السيرة النبوية

كما جاءت في الأحاديث الصحيحة

(قراءة جديدة)

محمد الصوياني

الجزء الرابع

مكتبة العبيكان

ح **مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصوياني محمد

السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة./ محمد الصوياني

- الرياض، ١٤٢٤هـ

٤٠٠ص، ١٦,٥×٢٤سم

ردمك: ٠-٣٧٥-٤٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

٣-٣٧٩-٤٠-٩٩٦٠ (ج٤)

١- السيرة النبوية ٢- الحديث - مباحث عامة أ. العنوان

ديوي ٢٣٩ ١٤٢٤/٢٨٧٨

ردمك: ٠-٣٧٥-٤٠-٩٩٦٠ (مجموعة) رقم الإيداع: ١٤٢٤/٢٨٧٨

٣-٣٧٩-٤٠-٩٩٦٠ (ج٤)

الطبعة الأولى الخاصة بمكتبة العبيكان

١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م

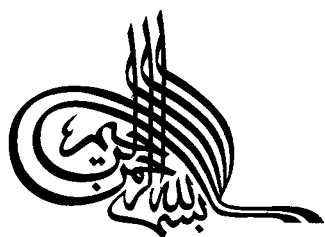
الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرمز: ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس: ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

زعيم اليمامة يحاول اغتيال النبي ﷺ

اسمه ثمامة بن أثال الحنفي سيد اليمامة وبني حنيفة يعلنها صـريحة للنبي ﷺ «ما وجه أبغض إلي من وجهك ولا دين أبغض إلي من دينـك ولا بلد أبغض إلي من بلدك»[1] لم يقنع ثمامة بتلك المشاعر بـل حـاول تجسيدها على أرض الواقع حاول أن يشفي غليله وغليل قريش والأصنام بسفح دماء النبي ﷺ لكن محاولته فشلت فدعا النبي ﷺ ربه أن يمكنه منه.. يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ دعا الله حين عـرض لرسول الله ﷺ بما عرض له أن يمكنه الله منه وكان عرض له وهو مشرك، فأراد قتله»[2] لكنه خاب.. أما النبي ﷺ فكان كعادته لا يكتفي بالدعاء فقط دون الأفعال.. فالتوكل عنده هو القيام بالعمل بطريقة صحيحة مع جعل النتائج كلها على الله.. وهذا بالضبط ما قام بـه للإمسـاك بهـذا المشرك الذي ملأ الحقد قلبه فأعماه عن رؤية شمس التوحيـد ونهـاره.. ويبدو أنه كان مدفوعاً بمفكر اليمامة ومنظرها مسيلمة الكذاب الذي بدأ يستعد لإعلان نفسه نبياً ونداً للنبي ﷺ.. في الوقت الذي كان ﷺ يعـد جيشاً ذكياً لـه:

غزو نجد

ويبدو أن هذه الغزوة مرت بمرحلتين الأولى مواجهة جماعية غنم فيها المسلمون الكثير.. حيث يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب رضـي الله

() سـنده صحـيح رواه ا بن إإسحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٤-٧٩: حدثني سعيد المقبري عن أبي هريرة وسعيد تابعي ثقة من رجال الشيخين: التقريب ١-٢٩٧.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٤-٧٩: حدثني سـعيد المقبري عن أبي هريرة وسعيد تابعي ثقة من رجال الشيخين: التقريب ١-٢٩٧.

عنهما «بعث النبي ﷺ سرية وأنا فيهم قبل نجد فغنموا إبلاً كثيرة فكانت سهمانهم اثنا عشر بعيراً أو أحد عشر بعيراً ونفلوا بعيراً بعيراً»[1]

ما المرحلة الثانية فتتلخص في القبض على سيد أهل اليمامة ثمامة بن أثال الحنفي الذي يستعد للانطلاق من بلاده متوجهاً نحو مكة لأداء العمرة عندما فاجأته الخيل وأسرته وأخذته معها إلى المدينة.. قصة مثيرة تحمل حكماً وأحكاماً عندما «بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبل نجد.. فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة فربطوه بسرية من سواري المسجد.. فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي يا محمد خير إن تقتل تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكر وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه رسول الله ﷺ حتى كان بعد الغد فقال ما عندك يا ثمامة.. قال ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر وإن تقتل تقتل ذا دم وإن كنت تريد المال فسل تعط ما شئت.. فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد فقال ماذا عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر وإن تقتل تقتل ذا دم وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت»[2].. كان أبو هريرة ومن معه من المساكين يستمعون إلى هذا الحوار ويتمنون لو ينتهي الأمر إلى شيء يفرحهم يقول رضي الله عنه «فجعلنا -المساكين- نقول -بيننا- ما يصنع بدم ثمامة، والله لأكلة من جزور سمينة من فدائه أحب إلينا من دم ثمامة»[3] أما النبي ﷺ فيرى أن الدنيا بحذافيرها لا تساوي شيئاً أمام هداية رجل أو امرأة فكيف بسيد اليمامة هذا.. «فقال

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٦٨.

(٢) حديث صحيح سيأتي تخريجه بعد الحديث التالي.

(٣) حديث صحيح سيأتي تخريجه بعد الحديث التالي.

رسول الله ﷺ: عفوت عنك يا ثمامة»[1] «فقال رسول الله ﷺ: أطلقوا ثمامة فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل.. ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.. يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلي.. والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إلي.. والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلي.. وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر»[2] «فيسره رسول الله ﷺ في عمرته وعلمه فخرج معتمراً»[3] بعد أن اعترف بذنبه واستحقاقه لعقوبة القتل.. لكن النبي ﷺ أسره بكرمه وعفوه بعد أن أطلقه من أسر الحبال..

رافع الطائي وثمامة الحنفي وبنو المصطلق وكثير من البشر قد لا يتأثرون بكثرة صلاة المسلم أو صيامه ولا بشكل لحيته وطول ثوبه بل قد يروها -قبل أن يسلموا- نوعاً من تعذيب الذات من أجل الخلاص.. هذه النوعية من البشر لا تأبه بالعبادات قبل هدايتها.. هي منساقة خلف خلق جميل وتعامل راق.. مأخوذة بالدين المعاملة لا بالدين العبادة..وهي طائفة لا تجد أفضل من محمد ﷺ للتعامل معها.. لا تجد أفضل من محمد يتهادى خلف كلمات ربه التي تقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا

(١) حديث صحيح سيأتي تخريجه بعد الحديث التالي.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٨٦.

(٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٤-٨٠ حدثني سعيد المقبري عن أبي هريرة وأخبرني سعيد عن أبي عن أبي هريرة وهو سند صحيح انظر التخريج التالي.

غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ﴾[1] ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[2] تعامل ﷺ بهذا المستوى مع ثمامة فحقق قول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[3] وقد حولت أخلاق محمد ثمامة إلى ولي حميم بعد أن كان عدواً مبغضاً.. ودع ثمامة نبيه ﷺ وأحبابه الجدد متجهاً إلى مكة بقلب آخر وشخصية أخرى وأهداف أرقى وأسمى.. وكأنه اغتسل بنهر حياة أخرى.. وتوجه نحو قريش بعد أن «اغتسل وصلى ركعتين فقال النبي ﷺ لقد حسن إسلام أخيكم»[4] «فلما قدم مكة قال له قائل أصبوت فقال لا ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ»[5] «وأيم الذي نفس ثمامة بيده لا تأتيكم حبة من اليمامة –وكانت ريف مكة– ما بقيت حتى يأذن فيها محمد ﷺ وانصرف إلى بلده ومنع الحمل إلى مكة حتى جهدت قريش»[6] لقد «رجع فحال

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٤-٨٠ حدثني سعيد المقبري عن أبي هريرة وأخبرني سعيد عن أبي عن أبي هريرة وهو سند صحيح انظر التخريج التالي.

(٢) النحل: ١٢٥.

(٣) سورة فصلت - ٣٤

(٤) سنده قوي رواه عبد الرزاق ٦-٩ أخبرنا عبيد الله وعبد الله ابنا عمر عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة، سعيد تابعي ثقة معروف التقريب ١-٢٩٧ وتلميذاه أحدهما ضعيف وهو عبد الله لكن أخاه ثقة ثبت من رجال الشيخين: التقريب ١-٥٣٧.

(٥) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٨٦.

(٦)حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٨٦.

بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز»[1] أي الدماء.

ادفع بالتي هي أحسن.. كلمات قليلة حولت أرض اليمامة إلى ربيع في قلب النبي ﷺ وسيف في يده.. أما قريش فـ:

قريش تأكل الدم بسبب حصار اليمامة الاقتصادي

بعد أن دعا النبي ﷺ عليها فكان ثمامة استجابة الدعاء.. وعندما أشرفت قريش على الهلاك انطلق زعيمها أبو سفيان كارهاً مستغيثاً بالمدينة.. باحثاً عن مخرج لأزماته المتسارعة والثقيلة مستغلاً قرابته ومصاهرته للنبي ﷺ علها تنقذه مما هو فيه..

أبو سفيان في المدينة

يطلب الرحمة من هذا الحصار ويستغيث وقد علم عبد الله بن مسعود بمجيئه فقال:

«إن قريشاً أبطؤوا عن الإسلام فدعا عليهم النبي ﷺ فقال اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف فأخذهم سنة حتى هلكوا فيها وأكلوا الميتة والعظام ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان فجاءه أبو سفيان فقال يا محمد جئت تأمرنا بصلة الرحم وإن قومك قد هلكوا فادع الله فقرأ ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ

---

(١) سنده حسن كما قال الحافظ رحمه الله في الإصابة ١-٤١١ وقد عزاه لابن منده من طريق علباء بن أحمر ووجدته عند البيهقي في الدلائل ٤-٨١ من طريق علباء عن التابعي الثقة تلميذ ابن عباس عكرمة رحمه الله الذي رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو سند قوي فعلباء صدوق من رجال مسلم: التقريب ٢-٣٠.

أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾»(١)

استمر الوضع على ما هو عليه «حتى جهدت قريش فكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلي حمل الطعام ففعل رسول الله ﷺ»(٢) وعفا عنهم لكن قريشاً لم تتأثر بذلك العفو ولم تتعظ.. لم تدرك الدرس جيداً.. فقدت مبررات البقاء على جاهليتها ووثنيتها ولم يبق لها سوى العناد.. العناد هو آخر أسوار قريش التي بقيت لها.. لكن العناد تحول إلى قشرة خفيفة تستر بها عورة الشرك وعيوبه وفضائحه..

كانت الجزيرة العربية وما حولها تترقب نهاية حاسمة وقريبة فلم يبق في صف قريش إلا حلفاء الأصنام الذين وقعوا معها حلفاً بعد صلح الحديبية وهم بنو بكر.. لكن يبدو أن الظروف لا تساعد قريشاً كثيراً فحتى هؤلاء الحلفاء لم تعد لهم أهمية تذكر.. فقد تحولوا إلى فخ يدني البقاء فيه قريشاً كل يوم من حتفها.. حتى جاءت تلك الليلة المشؤومة على قريش وحليفتها بكر عندما قررتا الانتحار عند نبع الوتير.

ليلة المؤامرة على خزاعة عند نبع الوتير

اتفق الطرفان قريش وبنو بكر على استغلال الليل للغدر بالقبيلة التي حالفها المسلمون عند توقيع صلح الحديبية وهي قبيلة خزاعة ومباغتتها.. وقد خطط طرفا المؤامرة أن تتم العملية بسرية لا يعلمها النبي ﷺ ولا حتى

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٧٩١.

(٢) حديث صحيح وهو آخر حديث ابن إسحاق السابق.

خزاعة وكأن العملية من بقايا السلب والنهب الجاهلي.. يقول أحد الصحابة «كان في صلح رسول الله ﷺ يوم الحديبية بينه وبين قريش أنه من شاء أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فتواثبت خزاعة فقالوا نحن ندخل في عقد محمد وعهده وتواثبت بنو بكر فقالوا نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة أو الثمانية عشر شهراً ثم إن بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم وثبوا على خزاعة الذين دخلوا في عقد رسول الله ﷺ وعهده ليلاً بماء لهم يقال له الوتير قريب من مكة فقالت قريش ما يعلم بنا محمد وهذا الليل وما يرانا أحد فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح فقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ»[1] والنيل منه ولو معنوياً.. لكن ذلك الليل لم يستطع طمس وجوه المجرمين الذين مزقوا معاهدة الحديبية التي تطرفوا في شروطها وتغطرسوا ومع كل هذا لم يلتزموا بها.. لم يستطع الظلام إخفاء تلك الجريمة فقد تمكن بعض رجال خزاعة من التعرف على المجرمين فأمرت خزاعة أحد رجالها واسمه: عمرو بن سالم كي ينطلق نحو المدينة لطلب النجدة من النبي ﷺ ففعل.. ولما وقف أمام النبي ﷺ انطلق الشعر من أعماقه جمراً ومراراة

الشعر يستغيث النصر لخزاعة

يقول أحد الصحابة « أن عمرو بن سالم ركب إلى رسول الله عندما كان من أمر خزاعة وبني بكر بالوتير حتى قدم المدينة إلى رسول

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في الكبرى ٩-٢٣٣ حدثني الزهري عن عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة أنهما حدثاه جميعاً وهذا السند هو سند البخاري في روايته لأول القصة.

الله ﷺ يخبره الخبر وقد قال أبيات شعر فلما قدم على رسول الله ﷺ أنشده إياها:

اللهم إني ناشد محمداً ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
كنا والدا وكنت ولدا ... ثمت أسلمنا ولم نترع يدا
فانصر رسول الله نصراً عتدا ... وادعوا عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا ... إن سيم خسفاً وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا ... إن قريش أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وزعموا أن لست أدعو أحدا
فهم أذل وأقل عددا ... قد جعلوا لي بكداء مرصدا
هم بيتونا بالوتير هجدا ... فقتلونا ركعاً وسجدا

فقال رسول الله ﷺ: نصرت يا عمرو بن سالم.. فما برح حتى مرت عنانة في السماء.. فقال رسول الله ﷺ: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز.. كتمهم مخرجه.. وسأل الله أن يعمي عليهم قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم»[(١)]

فهذه الجريمة لن تمر دون عقاب رادع يوقف قريش ومن معها عند حدهم.. ولن يوقفهم عند حدهم إلا إجراء بالغ الصرامة.. لن يوقف تآمرهم وكفرهم إلا:

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في الكبرى ٩-٢٣٣ حدثني الزهري عن عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة أنهما حدثاه جميعاً قالا.. وهذا السند صحيح تم الحديث عنه عند صلح الحديبية وهو سند البخاري في روايته لصلح الحديبية. والزهري وعروة تابعيان إمامان ثقتان ثبتان من أشهر الأئمة.

فهذا النوع من البشر يستنفذ منك كل طاقات الإقناع والسلام والعفو والحكمة والموعظة الحسنة.. بل هو ينظر إلى هذه الأنماط السلوكية في الدعوة على أنها ضرب من ضروب السذاجة والسطحية والغباء تستحق الانتهازية والاستغلال والمماطلة ما أمكن.. هذا النوع لا يخضع للحق رغم سطوعه كالشمس في عينيه.. لكنه يسرع إليه إذا رأى شعاع الشمس منعكساً على شفرة سيف حاد..

ولأهمية هذا الأمر لم يعلن النبي ﷺ لأصحابه كيف سيكون الرد ولا متى.. حتى أهل بيته حتى أبو بكر لا يعلم هدف هذا الاستعداد ولا وجهته.. فقد دخل أبو بكر الصديق على ابنته «عائشة وهي تغربل حنطة لها.. فقال: ما هذا؟ أمركم رسول الله ﷺ بالجهاز.. فقالت: نعم فتجهز، فقال: وإلى أين؟ قالت: ما سمى لنا شيئاً، غير أنه قد أمرنا بالجهاز»[1] ثم صدرت أوامر النبي ﷺ للمهاجرين والأنصار جميعاً بالتأهب فامتثلوا.. وبعث ﷺ إلى قياداته من بني سليم ومزينة فتطوع من بني سليم حوالي السبعمائة أما مزينة فتجاوزوا هذا العدد ليصلوا إلى ألف مقاتل.. وتداعت القوات من كل مكان في الجزيرة.. حتى توافر لدى النبي ﷺ قوة ضاربة قوامها عشرة آلاف مقاتل.. كل ذلك وهم لا يدرون إلى أين سيتوجه بهم النبي ﷺ.. والمدهش في الأمر أن شهر رمضان قد دخل على الأمة فلم يتزحزح النبي ﷺ عن قراره بغزو مكة وتخليصها.. يقول أحد الصحابة عن عدد القوات المتوفرة «مضى رسول الله ﷺ وأصحابه عام الفتح حتى

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٥-١٢ حدثنا محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير عن عائشة وهذا السند صحيح فجعفر ثقة من رجال الشيخين وعروة إمام ثقة مر معنا كثيراً.

نزل مر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين.. فسبعت سليم وألفت مزينة وفي كل القبائل عدد وإسلام.. وأوعب مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار.. فلم يتخلف عنه منهم أحد.. وقد عميت الأخبار على قريش فلا يأتيهم خبر رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو صانع»[1] وهو مؤشر على مدى السرية التي أحاط بها النبي ﷺ هدف كل هذا الاستعداد الضخم الذي لم تشهد له الجزيرة العربية مثيلاً.. ولا أستبعد أن يكون كبار الصحابة يرجحون أن مكة هي الهدف القادم.. لكنهم لا يستطيعون البوح بذلك لأن التلفظ به يعني مزيداً من البلبلة والإشاعات والإرجاف وإعطاء العدو فرصة للتأهب.. وهم يعلمون أن النبي ﷺ لا يريد ذلك كله.. لكن أحد أفاضل الصحابة من المهاجرين ورجال بدر العظماء قام بعمل خطير جداً لا يقوم به إلا منافق أو عدو لهذه الأمة.. لقد كان هذا الصحابي الجليل لماحاً فهم من هذه الجموع والترتيبات أن النبي ﷺ لا يمكن أن يقصد بها قبيلة عادية من قبائل الجزيرة.. فقد انتصر على كل القبائل التي واجهها بسرايا محدودة العدد محدودة التجهيز.. لكن الأمر اليوم يحمل بين حروفه ضربة حاسمة ستغير وجه الجزيرة وأعماق من يسكنها.. فلا يمكن أن تكون إلا أعظم قبيلة على أرض الجزيرة ولا يمكن أن تكون إلا أقدس أرض على سطح الأرض.. وهذا ما جعل انتقام قريش من ذوي المسلمين الضعفاء متوقعاً.. وكان أهل حاطب في مكة معرضين لانتقام طواغيت قريش في حالة مداهمتهم.. وربما يستغلوهم كرهائن في حالة الانكسار وأشياء عديدة وثقيلة كالهموم تغرز حرابها في رأس

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٤٦ حدثني الزهري عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: والزهري إمام مر معنا كثيراً وعبيد الله تابعي ثقة فقيه ثبت من رجال الشيخين: التقريب ١-٥٣٥.

حاطب.. لكن حاطباً يعلم من هذه الجموع ومن معنويـات قـريش أن النصر محسوم للإسلام وأهله فلن يضرهم أن يتصرف بطريقة تحمي أهلـه وهو يجزم أنها لن تعيق انتصار النبي ﷺ:

حاطب ينذر قريشاً معركة فاصلة

فقد كتب خطاباً «فيه من حاطب بن أبي بلتعـة إلى أنـاس مـن المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسـول الله ﷺ»[1] ثم تسـلل رضي الله عنه إلى مكان إحدى النساء المسافرات إلى مكة أو أرسلها هو بذلك الخطاب.. لكن ومن باب السرية أيضاً أمرهـا أن تخفـي كتابـه بضفائر شعرها.. لكن جبريلاً عليه السلام نزل يخبر الـنبي ﷺ بصـنيع حاطب فاستدعى علي بن أبي طالب والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود رضي الله عنهم فجاءوا.. هاهو علي سوف يخبرنا بما حدث.

.. يقول رضي الله عنه: «بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقـداد فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخـذوه منها.. فذهبنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة فقلنا: أخرجي الكتاب فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا لتخرجن الكتـاب أو لنلقين الثياب.. فأخرجته من عقاصها[2] فأتينا به النبي ﷺ فإذا فيه مـن حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين ممن بمكة يخبرهم ببعض أمـر النبي ﷺ»[3] أخذ الفرسان الكتاب ثم عادوا إلى المدينة دون أن يمسوا المرأة بسوء فهي لا تعلم عما بداخله شيئاً.. ولما سلموه إلى النبي ﷺ أمر بقراءته

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٠٩٥.

(٢) شعرها.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٨٥٥.

ثم استدعى حاطباً لمساءلته عن هذا الخطأ الشنيع الذي لا يفعله إلا أعداء هذا النبي وأعداء هذا الدين.

مساءلة حاطب

حاطب بين يدي النبي ﷺ دون قيود دون ضرب أو إهانة أو سجن على ذمة التحقيق.. لكن عمر بن الخطاب كان متأهباً بالسيف لفصل رأس حاطب عن جسده فهو في نظر عمر منافق مرتد.. لكن للنبي ﷺ قولاً آخر وحلماً آخر.. خاطب صاحبه بكلمات قليلة «قال رسول الله ﷺ يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ.. إني كنت امرأ ملصقاً في قريش.. كنت حليفاً و لم أكن من أنفسها.. وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم.. فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي.. و لم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام.. فقال رسول الله ﷺ: أما إنه قد صدقكم.. فقال عمر يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق.. فقال: إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. فأنزل الله السورة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾»[1] ما قام به حاطب رضي الله عنه خطأ شنيع لكنه لم يكن مقروناً بنية فاسدة تحمله معها إلى حيث مراتع الردة وسيف عمر.. كان الدافع خوفاً على الأهل.. كان تصرفاً تمليه حالة ضعف بشرية يمر بها

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥٧.

الجميع ويتجاوزها القليل.. ومع ذلك لم تفلح تلك النية السليمة في تمرير ذلك الخطأ.. لكن في هذه القصة ردع لأي حكم بالردة والسيف قبل المساءلة والتثبت واكتشاف الدوافع الحقيقية..

تلك الدوافع التي اكتشف حاطب أنه كان ضعيفاً جداً أمامها واكتشف أيضاً كم هو مخطئ وكم هي ثقيلة تلك المسؤولية التي يحملها تجاه أمته وأسرار دولته..

ندم حاطب ندماً شديداً فوجد النبي ﷺ واحة تقول «الندم توبة»[1] ووجد الإسلام يحتفظ له برصيد أودعه أيام بدر.. وما زال يتنامى ولا يزال إلى يوم البعث.. أما النبي ﷺ فقد اطمأن إلى عدم وجود أي قناة تتسرب منها أخباره إلى أهل مكة.. ودخل شهر رمضان بروحانيته وسكينته وجماله ليضفي كل تلك الأشياء على أفراد جيشه.. ليغسلوا حماسهم بها حتى لا يتحول الحماس إلى ثأر أو تهور وللقوم ثارات لا يجتثها سوى تجذر الإسلام في أعماقهم.. ولا يطفئ جحيمها سوى مطر الاحتساب.. ولما جاء اليوم العاشر من رمضان وكمل احتشاد الجموع نادى ﷺ رجلاً من أصحابه اسمه كلثوم بن عتبة بن خلف الغفاري ويلقب بأبي رهم.. ولما جاء عينه ﷺ أميراً على المدينة حتى يعود:

---

(١) حديث صحيح رواه ابن حبان ٢-٣٧٩ وغيره من طريق مالك بن مغول عن منصور عن خيثمة عن بن مسعود عن النبي ﷺ والحاكم ٤-٢٧٢ وغيره عن عبد الله بن وهب عن يحيى بن أيوب عن حميد الطويل عن أنس مرفوعاً وأحمد ١-٣٧٦ وغيره عن عبد الكريم قال أخبرني زياد بن أبي مريم عن عبد الله بن معقل بن مقرن عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ وهذه الأسانيد صحيحة.

أبو رهم خليفة رسول الله ﷺ في المدينة

يقول أحد الصحابة «مضى رسول الله ﷺ لسفره واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري.. وخرج لعشر مضين من رمضان فصام رسول الله ﷺ وصام الناس معه حتى إذا كان بالكديد ماء بين عسفان وأمج أفطر.. ثم مضى حتى نزل بمر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين»[1] و«الظهران واد قرب مكة وعنده قرية يقال لها مر تنسب إلى هذا الوادي فيسموها: مر الظهران»[2] ويحدد رضي الله عنه العام الذي خرج فيه النبي ﷺ فيقول إنه «خرج في شهر رمضان من المدينة معه عشرة آلاف من المسلمين وذلك على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمه المدينة.. فسار بمن معه من المسلمين إلى مكة يصوم ويصومون حتى بلغ الكديد وهو ماء بين عسفان وقديد فأفطر وأفطر المسلمون معه.. فلم يصوموا من بقية رمضان شيئاً»[3] طوال مدة سفرهم.. إذاً فقد «نزل مر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين فسبعت سليم وألفت مزينة وفي كل القبائل عدد وإسلام وأوعب مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار فلم يتخلف عنه منهم أحد وقد عميت الأخبار على قريش فلا يأتيهم خبر رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو صانع»[4] لكن

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الإمام أحمد ١-٢٦٦ حدثني محمد بن مسلم الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن عباس وهذا السند صحيح مر معنا تحت عنوان فتح مكة.

(٢) انظر معجم البلدان ٤-٦٣.

(٣) سنده صحيح رواه عبد الرزاق ٥-٣٧٣ عن معمر عن الزهري فأخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس ومعمر ثقة ثبت فاضل معروف من رجال الشيخين: التقريب ٢-٢٦٦ وبقية السند كالحديث السابق.

(٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٤٦ وهو السند السابق.

بعض فرسان قريش يشعرون بسكون يسبق إعصاراً مدمراً.. يشعرون بسكون مخيف مقلق وتحركات يجهلون هدفها بعد جريمة ارتكبها بعضهم تستحق انتقاماً فظيعاً مجهول التاريخ.. كان ليل مكة مخيفاً وكأن الجن تطل عليها من رؤوس جبالها وكأن تلك النجوم بريق عيون غيلان ووحوش.. لم يطق بعضهم هذا الجو الخانق فهرب يبحث عن محمد الذي لا ينضب عفوه ولا تنقطع أمطار تسامحه.

أبو سفيان يهرب من مكة المختنقة

إلى أجواء أكثر رحابة.. لكنه ليس أبا سفيان بن حرب والد معاوية وزوج هند بنت عتبة.. إنه أبو سفيان بن الحارث وهو ابن ابن عم النبي ﷺ: الحارث بن عبد المطلب.. وبصحبته ابن له صغير ومعه أيضاً ابن عمة النبي ﷺ واسمه: عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة وخرج آخرون لتنقيب الأرض بحثاً عن شيء يريح هذه الأنفس والأرواح المتعبة وكأن حجارة ستهوي عليهم من السماء أو بركاناً ينفجر من تحت أقدامها وذلك عندما «نزل رسول الله ﷺ بمر الظهران وقد عميت الأخبار عن قريش فلم يأتهم عن رسول الله ﷺ خبر ولا يدرون ما هو فاعل خرج في تلك الليلة أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون وينتظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به.. وقد كان العباس بن عبد المطلب أتى رسول الله ﷺ ببعض الطريق.. وقد كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله ﷺ فيما بين مكة والمدينة.. فالتمسا الدخول عليه فكلمت أم سلمة فيهما فقالت: يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك.. قال: لا حاجة لي بهما.. أما ابن عمي فهتك عرضي.. وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما

قال. فلما أخرج إليهما بذلك ومع أبي سفيان بني له.. فقال: والله ليأذنن لي أو لآخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً.. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رق لهما ثم أذن لهما فدخلا وأسلما»[1] وعفا عنهما ﷺ تلك القائمة الطويلة من الجرائم بحقه.. فكان ذلك العفو جمراً قذفه ﷺ في مجمرة بين أضلع أبي سفيان بن الحارث.. فتعالى الشعر من صدره ذكريات وزفرات ومشاعر حركت مشاعر النبي ﷺ فقام بحركة تنضح بالعتاب على ابن عمه وقسوته معه وهو الذي لم يؤذه يوماً ولم يؤذ مشاعره

«فأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما كان مضى فيه فقال

لعمرك أني يوم أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليلة ... فهذا أوان الحق أهدي واهتدي
فقل لثقيف لا أريد قتالكم ... وقل لثقيف تلك عندي
هداني هاد غير نفسي ودلني ... إلى الله من طردت كل

«فلما أنشد رسول الله ﷺ إلى الله من طردت كل مطرد ضرب رسول الله ﷺ في صدره فقال أنت طردتني كل مطرد»[3]

تلك الضربة المعاتبة لم توقف نزيف الشعر.. فقد تدفق أبو سفيان ندماً وحزناً وقال:

«أفر سريعاً جاهداً عن محمد ... وادعي ولو لم أنتسب لمحمد
هم عصبة من لم يقل بهواهم ... وإن كان ذا رأي يلم ويفند

(١) سند صحيح وهو حديث ابن عباس السابق وهذا لفظ الطبراني ٨-١٠.

(٢) سنده صحيح وهو سند الحديث السابق لكن اللفظ هنا للحاكم.

(٣) سنده صحيح وهو سند الحديث السابق لكن اللفظ هنا للحاكم.

أريد لأرضيهم ولست بلافظ مع القوم ما لم أهد في كل مقعد

فما كنت في الجيش الذي نال ولا كل عن خير لساني ولا يدي

قبائل جاءت من بلاد بعيدة توابع جاءت من سهام وسردد

وإن الذي أخرجتم وشتمتم سيسعى لكم سعي امرئ غير

لم يكن الشعر وحده هناك

الطفولة أيضاً في طريق النبي ﷺ

لئن كانت الطفولة أحد الأشياء التي يستسلم قلب النبي ﷺ لها فإن الحديث عنها وعن براءتها يذهب عناء الطريق إلى مكة.. فعلى ذلك الطريق كانت القبائل العربية تتوجس حدثاً يرفعها أو يحطها.. كان التساؤل ممتداً على طول الطريق يرصفه حيناً ويثير غباره أحياناً..

وكان على الطريق طفل عذب كالمطر شغوف كعينيه البريئتين يبلغ السادسة من عمره اسمه عمرو بن سلمة.. يشده منظر المترددين ما بين مكة والمدينة.. لكن توقد ذهنه وحافظته لا يقنع بالدهشة والتأمل كقومه.. كان يستدعي المزيد ويحفظ الآيات بشكل ملفت.. ويبدو أن قصر ثوبه الوحيد يتيح له خفة الانطلاق خلف الرائح والجاي.. وكان والده سفير قومه للمسير خلف هذا الجيش المتوجه نحو مكان مجهول.. يقول هذا الطفل عن نفسه وعن قومه وعن عرب الجزيرة: «كنا بماء ممر الناس وكان يمر بنا الركبان فنسألهم ما للناس ما للناس ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله أوحى إليه أو أوحى الله بكذا.. فكنت

(١) سنده صحيح وهو سند الحديث السابق لكن اللفظ هنا للحاكم.

أحفظ ذلك الكلام وكأنما يقر في صدري.. وكانت العرب تلوم[1] بإسلامهم الفتح.. فيقولون: اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق.. فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم وبدر أبي قومي بإسلامهم»[2] أي ذهب قبل قومه للاستفسار عما يجري.

ماذا عن العباس بن عبد المطلب

لقد خرج رضي الله عنه وقد أخرجه من مكة خوفه على تاريخ قريش ومستقبلها.. ولعله بقي كل هذه المدة يخفي إيمانه للإبقاء على زعامة أهل بيت النبي ﷺ لهذه القبيلة العظيمة فهو الوحيد الباقي من أبناء عبد المطلب العشرة.. ولا يمكن أن يفرط بتلك الزعامة لعبدة الأصنام من حوله.. فزعامة أبي سفيان لمكة كانت كزعامة أبي جهل زعامة إثارة وعزف على العواطف لا زعامة حكمة ونضج وتروي.. خرج العباس بن عبد المطلب خائفاً على مدينته وقبيلته من تهور تدفع ثمنه غالياً وغالياً جداً.. هاهو العباس يتحدث عن تلك اللحظات التي تحبس الأنفاس وتزهق الأرواح وذلك «لما نزل رسول الله ﷺ بمر الظهران قال العباس: واصباح قريش.. والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر.. الدهر قال: فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء فخرجت عليها حتى جئت الأراك فقلت: لَعَلِّي ألقى بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة.. فوالله إني لأسير عليها وألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء

(١) يعني ينتظرون.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٦٤.

وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول ما رأيت كاليوم قط نيراناً ولا عسكراً.. يقول بديل: هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب.. يقول أبو سفيان: خزاعة والله أذل وألأم من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.. قال:

فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة.. فعرف صوتي.. فقال: أبو الفضل؟ فقلت: نعم.. قال: ما لك فداك أبي وأمي.. فقلت: ويحك يا أبا سفيان.. هذا رسول الله ﷺ في الناس وا صباح قريش والله.. قال: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب معي هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ أستأمنه لك.. فركب خلفي ورجع صاحباه»[1] إلى مكة أما العباس فكان خائفاً على صديقه أبي سفيان.. وكان خوفه في موضعه فقد رآه عمر بن الخطاب ففرح فرحاً شديداً بتمكنه منه.. لكنه لا يستطيع أن يقدم على مس هذا التاريخ الطويل من الأذى والحرب على رسوله إلا بإذن من رسول الله ﷺ.. لذلك ركض نحوه طالباً الإذن بتصفية أبي سفيان فلن يجد فرصة كهذه الفرصة..

عمر يريد قتل أبي سفيان بن حرب

والعباس يريد إنقاذه حيث يقول رضي الله عنه: «فحركت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته.. حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: من هذا؟ وقام إليّ فلما رأى أبا سفيان على عجز البغلة قال:

---

(١) سنده صحيح وتخريجه في نهايته.

أبو سفيان عدو الله الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد.. ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيء الرجل البطيء.. فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عمر فقال: يا رسول الله.. هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلأضرب عنقه.. قلت يا رسول الله: إني أجرته ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه فقلت: لا والله لا يناجيه الليلة رجل دوني فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر أما والله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا.. ولكنك عرفت أنه رجل من رجال بني عبد مناف.. قال: مهلاً يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب.

فقال رسول الله ﷺ اذهب به إلى رحلك يا عباس فإذا أصبح فائتني به.. فذهبت به إلى رحلي فبات عندي فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله.

قال: بأبي أنت وأمي ما أكرمك وأوصلك.. والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً.. قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك هذه والله كان في نفسي منها شيء حتى الآن»[1] كان داخل أبي سفيان كتلة من العناد والزعامة والأوهام المتكلسة التي تعيق نظره إلى الحقيقة لكن حد السيف جعله يتخلص منها.. لأن السيف سيبيده معها

(١) تخريجه في نهايته.

كما أباد أبا جهل على أرض بدر.. ثم نسي الناس من يكون أبو جهل ونسوا زعامته وبقي محمد ومن معه.. لذلك تم:

إسلام أبي سفيان

وذلك عندما «قال العباس ويحك يا أبا سفيان أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فشهد بشهادة الحق وأسلم.. قلت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً قال: نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن»[1]

لكن النبي ﷺ لم يكن يريد إيماناً كإيمان ابن سلول.. فأبو سفيان زعيم وإيمان هذا الصنف من الناس لا يمكن أن يتم إلا إذا واجهته بعاصفة من الحقائق يستحيل بقاؤه معها.. وقد أحب ﷺ أن يقدم لأبي سفيان برهان ما قاله هرقل زعيم الروم أمواجاً تتلاطم على وجه الأرض وتغرق الأصنام ومن يعبدها.. لكن قبل ذلك قام النبي ﷺ بتقسيم جيشه إلى أربع كتائب أو أقسام:

كتيبة تمثل جناحاً أيمناً يقودها الزبير رضي الله عنه.. وكتيبة أخرى تمثل جناحاً أيسر ويقودها خالد بن الوليد رضي الله عنه.

وقسم يقوده أبو عبيدة وهم الحسر الذين لا يملكون دروعاً ويبدوا أنهم في المؤخرة.. وقسم يقوده النبي ﷺ وهو قلب الجيش وأكثره.. وهو عبارة عن معظم القبائل العربية.. وفرقة مدرعة ضخمة لقبت بالخضراء لشدة سوادها من كثرة الدروع وهو مكون من المهاجرين والأنصار..

---

(١) حديث صحيح تخريجه عند نهايته.

أما قريش فقد جمعت لها جيشاً من المرتزقة من بعض أفراد القبائل في محاولة كالمقامرة بحيث إذا ما تمت المعجزة وانتصروا شاركوهم في الغنائم وإن انهزموا فاوضوا المسلمين.. لكن النبي ﷺ كان أكثر حزماً هذه المـــرة فقد قرر حصد كل من يقاوم من تلك القوات المرتزقة وغيرهم.. وخص الأنصار وحدهم دون غيرهم بتنفيذ هذه المهمة.. وهذا الحصد هو ما بقي من خيارات استنفذتها قريش كلها.. أبو هريرة رضي الله عنه كلف بمهمة تجميع الأنصار.. ها هو يقول:

«أقبل رسول الله ﷺ فدخل مكة فبعث الزبير على أحد الجنبـــتين.. وبعث خالد بن الوليد على اليسرى.. وبعث أبا عبيدة على الحسر فأخذوا الوادي.. ورسول الله ﷺ في كتيبته.. وقد بعثت قريش أوباشاً لها وأتباعاً لها فقالوا: نقدم هؤلاء وإن كان لهم شيء كنا معهم.. وإن أصيبوا أعطينا ما سألوا.. فنظر رسول الله ﷺ فرآني فقال: يا أبا هريرة.. اهتف بالأنصار فلا يأتيني إلا أنصاري فهتف بهم: يا معشر الأنصار أجيبوا رســـول الله ﷺ.. فجاؤوا كأنما كانوا على ميعاد.. ثم قال: اسلكوا هذه الطريق ولا يشرفن لكم أحد إلا أنمتموه.. فجاؤوا فأحاطوا برسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: أما ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم وضرب بيده اليمنى مما يلي الخنصـــر وسط اليسرى وقال: احصدوهم حصداً حتى توافوني بالصفا.. قال أبـــو هريرة: فانطلقنا فما يشاء أحد منا أن يقتل من شاء منهم إلا قتلـــه ومـــا يوجه أحد منهم إلينا شيئاً»[1]

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٤٠٥ وابن حبان ١١-٧٤ والبيهقي ٩-١١٧ وابن أبي شيبة ٧-٣٩٧ وغيرهم واللفظ لابن حبان والزيادة للدارقطني والحاكم ٢-٦٢ من طريق محمد بن الفضل عارم وهدبة بن خالد قالا حدثنا سلام بن مسكين عن ثابت عن عبد الله ابن رباح عن أبي هريرة وهي زيادة صحيحة.

أما النبي ﷺ فقد أمر عمه العباس أن يأخذ زعيم قريش أبا سفيان إلى مكان يطل على ممر الجيش كله حتى يرى بعينيه قوات المسلمين وحتى يتأكد من عدم جدوى المقاومة وحتى يتطاير ما تبقي لديه من شك في صدق محمد ونبوته.

يقول العباس مكملاً قصته: «فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها.. قال: فخرجت به حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه.. ومرت به القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال: من هؤلاء؟ فأقول: سليم.. فيقول: ما لي ولسليم.. ثم تمر القبيلة قال: من هؤلاء؟ فأقول: مزينة.. فيقول: ما لي ولمزينة؟ حتى تعدت القبائل لا تمر قبيلة إلا قال: من هؤلاء؟ فأقول: بنو فلان.. فيقول: ما لي ولبني فلان؟ حتى»[1] حتى ماذا.. كان أبو سفيان ينتظر مرور النبي ﷺ محاطاً بالمهاجرين والأنصار لأنه لا يزال يرى أن تلك القبائل ما هي إلا عبيد لمن غلب.. وهو يريد رؤية هذا الذي غلب وهل بالإمكان مقاومته.. بقي أبو سفيان متحرقاً حتى مر به سيل أسود كالموت.

النبي يمر أمام أبي سفيان

«مر رسول الله ﷺ في الخضراء كتيبة فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منها إلا الحدق.. قال: سبحان الله من هؤلاء يا عباس؟

قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار.

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبراني ٨-٩ حدثني محمد بن مسلم الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس وهذا سند صحيح مر معنا تخريجه تحت عنوان فتح مكة وقد تابع ابن إسحاق جعفر بن برقان.

قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة والله يا أبا الفضل.. لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً.. قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة.. قال: فنعم إذن»[1] إلى هذه اللحظات الحاسمة وأبو سفيان لا يزال يصر على أن الأمر زعامة وملك وقد أعمى العناد بصيرته كما هي حال الكثير من أمثال أبي سفيان ممن يحملون أفكاراً منحرفة عن الإسلام.. إذا رأوا انتصار الإسلام ومده ينتشر كالطوفان ويجرف ما تبنوه من أفكار متهالكة برروا انتشاره وانتصاره بكل شيء إلا الاعتراف بأنه حق.. ولا يمكن أن يسلم أمثال هؤلاء إلا إذا رأوا حكم الإسلام واقعاً مطبقاً وسيفاً يحطم تلك الكثافة الغليظة من العناد والتي لا يمكن معها أن يصبح الفرد إلا معيقاً لكل إبداع.. وفي الوقت الذي كان فيه أبو سفيان متحسراً على مجد وثني ينهار أمام عينيه كان أول الناس إسلاماً أبو بكر الصديق رضي الله عنه أسعد الناس بهذا النصر العظيم الذي شارك في كل لحظة من لحظاته وفي كل خطوة من خطواته.. وهاهو اليوم يحوم على الخيل يرتبها وينظمها ويشرف على تحركاتها.. لكن شيئاً ما يكدر صفو هذا النصر ويحزن يوم أبي بكر ذلك هو والده الشيخ الطاعن في السن والعمى والشرك.. فأين هو الآن؟

أين والد الصديق

في الوقت الذي كلف النبي ﷺ أبا بكر بالإشراف على الخيل كان والده يرقبه من بعيد رغم أنه أعمى وبصحبته أصغر أخوات أبي بكر

---

(١)سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبراني ٨-٩ حدثني محمد بن مسلم الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس وهذا سند صحيح مر معنا تخريجه تحت عنوان فتح مكة وقد تابع ابن إسحاق جعفر بن برقان.

الصديق وذلك «لما وقف رسول الله ﷺ بذي طوى قال أبو قحافة لأصغر بناته: أظهريني على الجبل.. وكان يومئذ أعمى.. قالت: فأشرفت به عليه.. فقال: ما ترين؟ فقالت: سواداً مجتمعاً.. فقال: تلك والله الخيل.. قالت: وأرى بين يدي ذلك السواد رجلاً يسعى مقبلاً ومدبراً فقال: ذاك الوازع -يعني الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها- وكان الوازع يومئذ أبو بكر ابن أبي قحافة.. فقالت: وأرى أن ذلك السواد قد انتشر.. فقال: قد والله دفعت الخيل فأسرعي فانحدرت به من الجبل وتلقته الخيل قبل أن يصل إلى بيته.. وكان في عنق الجارية طوقاً لها من ورق.. فمر عليها رجل فاقتطعه منها»(١) وذهب العقد ولكن هناك ما هو أهم من العقد بالنسبة للعباس ابن عبد المطلب.. هناك قريش وأهل مكة.. لكن يبدو أن أبا سفيان لا يزال مشدوهاً مأخوذ العقل بما يجري على ساحة كانت قبل ساعات ساحة يظللها نفوذه وتخضع لكلمته.. وها هو اليوم لا يملك نفوذاً ولا كلمة.. فأراد العباس أن يوقظه مما هو فيه فالخيل إلى مكة ومن عليها أكثر شوقاً ولهفة.. يقول العباس رضي الله عنه:

«قلت النجاء إلى قومك.. فخرج حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته:

يا معشر قريش.. هذا محمد قد جاءكم بما لا قَبَلَ لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه امرأته هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الدسم الأحمس فبئس من طليعة قوم.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه ابن راهويه ١-١٣٢ والطبري ٢٤-٨٨ وأحمد ٦-٣٤٩ حدثني يحيى بن عباد عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت... وهذا السند صحيح مر معنا قبل قليل.

قال: ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاء ما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: ويلك وما تغني عنا دارك؟

قال: ومن أغلق بابه فهو آمن.. ومنُ دخل المسجد فهو آمن.

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد»[1] يطاردهم الموت في كل شبر طاردوا فيه النبي ﷺ وأصحابه.. هاهو الموت يحمله عشرة آلاف محارب تغص بهم مكة..

وها هي طرقات مكة تخلو من أهلها الذين طالما نشروا الرعب والتعذيب والاضطهاد فيها.. هاهي طرقات مكة لا يسير فيها إلا مؤمن.. وهاهي ساحاتها التي عذب فيها بلال وعمار وخباب تهتز ربيعاً بهم.. وهاهو الشرك وأهله يفرون كالفئران إلى مساكنهم وإلى المسجد الحرام.. فقد عزلوا كالطاعون والأوبئة في تلك البيوت.

هاهو أحدهم يحمل متاعه ويتسلل هارباً نحو آخر معاقل المشركين.. إنه وحشي قاتل حمزة عم النبي ﷺ وحبيبه لم يستطع أن ينعم بحريته التي حصل عليها والتي دفع ثمنها غالياً جداً.. ومع ذلك فهو يشعر بجبال مكة تتحول إلى حتف يكاد يطبق على صدره.. ويشعر بفداحة جرمه وكأن هؤلاء العشرة آلاف قد جاءوا للأخذ بثأر حمزة.. لذلك فر وحشي ليجد أبواب الطائف مفتوحة لاستقباله.. لنترك وحشي ونعود إلى الصحابة الذين يعودون إلى بيوتهم ومراتع طفولتهم وبيت ربهم دون قيد أو شرط أو طعنة أو ضربة سوط.. أين أبو جهل وأبو لهب وأمية وعقبة ليشهدوا

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبراني ٨-٩ حدثني محمد بن مسلم الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس وهذا سند صحيح مر معنا تخريجه تحت عنوان فتح مكة وقد تابع ابن إسحاق جعفر بن برقان.

هذا المنظر الذي عاشوا لاغتياله واغتيال من يتمناه.. أما أبو سفيان فبعد أن رأى هذه الفاجعة ذهب هذه المرة بنفسه خائفاً بعد أن قال ﷺ «احصدوهم حصداً حتى توافوني بالصفا. قال أبو هريرة: فانطلقنا فما يشاء أحد منا أن يقتل من شاء منهم إلا قتله.. وما يوجه أحد منهم إلينا شيئاً فقال أبو سفيان: يا رسول الله أبيحت خضراء قريش لا قريش بعد اليوم فقال رسول الله ﷺ: من أغلق بابه فهو آمن.. ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن فأغلقوا أبوابهم»(١) لكن:

هذا الأمان لا يشمل أربعة من مشركي قريش

ربما لرفعهم السلاح ومقاومتهم للمسلمين وربما لجرائم شنيعة ارتكبوها وقد استثناهم ﷺ وذلك «يوم فتح مكة أمن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة وامرأتين وقال اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة؛ عكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة وعبد الله بن سعيد بن أبي سرح»(٢).

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٤٠٥ وغيره مر قبل قليل وهو حديث أبي هريرة.

(٢) حديث حسن وسنده ضعيف رواه ابن أبي شيبة وغيره عن طريق أسباط بن نصر عن السدي عن مصعب بن سعد عن أبيه وهذا السند ضعيف من أجل كثرة أخطاء أسباط وهو من رجال مسلم وهو صدوق التقريب ١-٥٣ وشيخه أوثق منه وهو صدوق يهم أي أن حديثه حسن إذا لم يخالف وهو من رجال مسلم أيضاً ومصعب تابعي ثقة: التقريب ٢-٢٥١ لكن الحديث له شاهد وهو مرسل عكرمة و لم يذكر فيه عكرمة لكن يشهد لذكر عكرمة أحاديث أخرى: ابن أبي شيبة ٧-٤٠٢ وللحديث شاهد عند الطبراني ٦-٦٦ وغيره من طريق عمرو بن عثمان المخزومي وهو مقبول حسب التقريب ٢-٧٥ أي عند المتابعة أو الشواهد ثم وجدت له شاهداً يرفعه إلى درجة الحسن عند البزار: زوائد ٢٣٤٤ من طريق مبارك بن فضالة عن الحسن عن أنس ومبارك والحسن ثقتان لكنهما مدلسان وقد عنعنا وحديثهما في هذه الحالة حسن بالشواهد.

ما مصير هؤلاء الأربعة الذين أهدر دمهم

خبر ورود هذه الأسماء ضمن لائحة المطلوبين أمواتاً ينتشر الآن في مكة.. وكلما انتشر الخبر في مكان خسر هؤلاء مساحة من الأمن.. حتى أصبحت مساكن مكة وطرقاتها ووديانها وجبالها تضاريس للموت والرعب الذي لا يطاق.. أما عكرمة بن أبي جهل وخليفته في حمل لواء العنف ضد الإسلام والمسلمين فقد فر على وجهه من مكة حتى وجد نفسه أمام البحر «فركب البحر»(١)

وأما مقيس فيبدو أنه لم يأخذ وقتاً طويلاً حتى قضي عليه فقد «أدركه الناس في السوق فقتلوه»(٢) ..

أما ذلك المرتد المدعو عبد الله بن أبي سرح والذي كان أحد كتبة الوحي الذين تم الاستغناء عنه وعن كتابته فهو مختبئ نادم على ما صدر عنه من سخافات فالنبي ﷺ مازال حياً والوحي لم ينقطع يترل كل يوم وجبريل يراجع لمحمد عليهما السلام كل عام ما نزل من القرآن وبالتحديد في كل رمضان من كل عام.. أما ابن أبي سرح فقد خسر شرف الكتابة وشرف الأمانة وشرف الفروسية والنصر وهو الآن يفتش عن ثقب إبرة يهرب من خلاله.

أما الشقي الرابع ابن أخطل فقد أغلقت في وجهه أبواب الهروب ففر إلى الكعبة كخيار أخير للنجاة من الموت وهو الآن متعلق بأستار الكعبة.. وسنتركه معلقاً لنعود للنبي ﷺ كي نعرف آخر تحركاته..

إنه الآن على أبواب مكة وهو يهم بدخولها لكنه سيدخل هذه المرة من مكان يقال له: (كداء) وهو في أعلى مكة ومعه الرجل الذي حدد

(١) جزء من الحديث السابق.

(٢) صحيح البخاري ٢-٥٧٢ واللفظ الثاني عن ابن عمر رضي الله عنهما.

مكان الدخول.. صاحبه وشاعره حسان رضي الله عنه وذلك قبل سنين من هذا اليوم.

الشعر يحدد مكان دخول النبي لفتح مكة

تقول عائشة رضي الله عنها «إن النبي ﷺ لما جاء إلى مكة دخل من أعلاها»(١) «من كداء من الثنية العليا التي بالبطحاء»(٢)

وركز رايته بجبل من جبال مكة يقال له (الحجون) وأمر الزبير رضي الله عنه بركزها هناك.. كما أمر قوات خالد بن الوليد بالدخول من كداء أيضاً لكن خالداً لقي مقاومة هناك وقد خسرت قواته اثنين من الرجال رضي الله عنهما.. ها هو «العباس يقول للزبير بن العوام يا أبا عبد الله هاهنا أمرك رسول الله ﷺ أن تركز الراية.. وأمر رسول الله ﷺ يومئذ خالد بن الوليد أن يدخل من أعلى مكة من كداء.. ودخل النبي ﷺ من كداء فقتل من خيل خالد بن الوليد رضي الله عنه يومئذ رجلان حبيش ابن الأشعر وكرز بن جابر الفهري»(٣)

أما عن قصة ذلك التحديد فترويه لنا عائشة بنت الصديق رضي الله عنها فتقول:

«إن رسول الله ﷺ قال: اهجوا قريشاً فإنه أشد عليها من رشق بالنبل.. فأرسل إلى بن رواحة فقال اهجهم فهجاهم.. فلم يرض.. فأرسل إلى كعب بن مالك.. ثم أرسل إلى حسان بن ثابت.. فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه.. ثم اندلع لسانه فجعل

---

(١) صحيح البخاري ٢-٥٧٢ واللفظ الثاني عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) صحيح البخاري ٢-٥٧٢ واللفظ الثاني عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٥٩ والصواب من أسفل مكة بالنسبة لخالد.

يحركه فقال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم.. فقال رسول الله ﷺ: لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها وإن لي فيهم نسباً حتى يخلص لك نسبي.. فأتاه حسان ثم رجع فقال: يا رسول الله.. قد خلص لي نسبك.. والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين.. قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله.. وسمعت رسول الله ﷺ يقول: هجاهم حسان فشفى واشتفى قال حسان:

هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
هجوت محمد براً تقياً ... رسول الله شيمته الوفاء
فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء
ثكلت بنيتي إن لم تروها ... تثير النقع من كنفي كداء
يبارين الأعنة مصعدات ... على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات ... تلطمهن بالخمر النساء
فإن أعرضتموا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لضراب يوم ... يعز الله فيه من يشاء
وقال الله قد أرسلت عبداً ... يقول الحق ليس به خفاء
وقال الله قد يسرت جنداً ... هم الأنصار عرضتها اللقاء
لنا في كل يوم من معد ... سباب أو قتال أو هجاء
فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء
وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء

بهذا المستوى من الشعر يفتح الشاعر الإسلامي المستقبل على

(١) صحيح مسلم ٤-١٩٣٥.

مصراعيه.. يرسم أشكالاً أرقى للحياة ويعمق الشعور باللا مستحيل في حياة طاقتها يقين كالوحي.. عندما قال حسان هذه الأبيات لبى شيئاً من طموح النبي ﷺ الذي لم يرتق إليه شعر ابن رواحة ولا شعر كعب رضي الله عنهما.. ومازال هذا الطموح حياً يطلق الشعر إلى تلك المستويات الغائبة المأمولة.. ولئن كان للقرآن مسافات هائلة ومذهلة ومعجزة إلا أنه لم يزح الشعر عن عرشه.. ترك له عرشه لكنه قدم له تحدياً قاسياً أن يردم تلك المسافات الشاسعة بينهما.. إذاً فالشعر في الإسلام إما أن يكون قطعاً لمسافات جديدة أو لا يكون.. القرآن اليوم يفتح مكة لينطلق منها إلى غيرها فماذا سيقدم الشعر وماذا سيفتح.. لا أدري لكنني اليوم أرى النبي ﷺ يفسح للشعر طرقاته.. هاهو يقول في طريقه لفتح مكة كلمات تحتفي بالشعر سمعها ابن عمر ورواها فقال: «لما دخل رسول الله ﷺ عام الفتح رأى نساء يلطمن وجوه الخيل بالخمر فتبسم فقال يا أبا بكر كيف قال حسان بن ثابت؟ فأنشد أبو بكر:

عدمت بنيتي إن لم تروها ... تثير النقع من كنفي كداء
ينازعن الأعنة مسرجات ... يلطمهن بالخمر النساء

فقال رسول الله ﷺ: ادخلوا من حيث. قال حسان»[1] الذي لم يكتف بجعل الشعر تعبيراً عن تجربة شعورية بصورة موحية.. بل تجاوزها إلى جعله كشفاً وإضاءة للقادم وتشكيلاً له.. لا على طريقة المأخوذين

---

(١) سنده قوي رواه الحاكم ٣-٧٦ والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤-٢٩٦ من طريق إبراهيم بن المنذر بن الحزامي قال ثنا معن بن عيسى قال حدثني عبيد الله بن عمر عن نافع عن بن عمر رضي الله عنهما نافع وعبيد الله ثقتان معروفان ومعن الأشجعي ثقة ثبت: التقريب ٢-٢٦٧ وتلميذه صدوق من رجال البخاري: التقريب ١-٤٥ واللفظ للطحاوي وآخره للحاكم من قوله فقال رسول الله (ص).

بالسياحة في الحلم بل بأسلوب المأخوذين بإنجاز الحلم.. كيف لا وهو يسير خلف هذا النبي العظيم الذي ينحدر كالسيل نحو مكة العطشانة.. ولما وصلها لم يجد في طرقاتها سوى الهواء النقي والذكريات الجميلة والمريرة.. هنا ولد وهنا كان يتهادى طفلاً وهنا كان يلعب مع أبي بكر وأصحابه.. وهنا كانت أمه الحبيبة تناديه وتحمله وتلاعبه.. هنا كان يسير مع جده وعمومته وأبناء عمومته.. هنا التقى بخديجة وهنا تزوجا وهنا ولدت زينب وفاطمة وأم كلثوم ورقية.. من هنا جاء يخبر خديجة عن جبريل.. وهنا دعا الناس وهنا كذبه الناس وهنا صدقوه وهنا ناصروه وهنا خذلوه وعذبوه.. هنا مكة ما أطيبها وأطيب ريحها.. ذكريات تطوف لا شك بروح أبي بكر وبلال وعمر وعمار وعلي وعثمان وخباب وصهيب وبقية المهاجرين من مكة.. لا بد أن بعض الدموع والزفرات خالطت فرح السير في طرقات مكة الجميلة..

مواكب الإيمان الجارفة ونشوة النصر العظيم لا تسكر الفرسان المؤمنين عن شكر الله وذكره.. يقول أحد الصحابة الذين كانوا يرقبون النبي ﷺ يوم الفتح وينصتون إليه:

«رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يرجع»[1] أي يردد القراءة في الحلق.

كان لسانه ممتناً لله الذي أكرمه بنصره.. ولم يكن لسانه هو الممتن فقط كان قلبه بل كانت طريقته وهو يتقدم ذلك الجيش الضخم الممتزج بعظماء الرجال تنضح بالتواضع في أرقى صوره وأعظمها.. لم يكن ﷺ وحده على ناقته.. لم يكن مردفاً أبا بكر سيد المهاجرين ولا سعد بن عبادة سيد الأنصار

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٦٠.

ولا حتى سيداً من سادات العرب.. كان ﷺ يردف شاباً أسوداً صغير السن اسمه أسامة ابن أمير مؤتة الشهيد: زيد بن حارثة.. وبجانبه صاحبه الحبشي بلال بن رباح وهو في طريقه نحو تحطيم الأصنام وتطهير الكعبة.. لكنه كان أثناء الطريق يحطم أصنام الجاهلية داخل النفوس.. يحطم الفخر بالآباء والأجداد ليشيد التنافس على الإنجاز والإبداع.. كان ﷺ وفي لحظات النصر يؤكد تمسكه بمبدأ المساواة التي طالما اختبأ خلفه دعاة مذهب فإذا ما انتصروا تنكروا له.. مشهد جميل ورائع للنفوس المؤمنة والمتحضرة لكنه لا شك يؤذي نفوساً غارقة في دبق الجاهلية والتخلف..

يقول ابن عمر رضي الله عنهما: «إن رسول الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفاً أسامة بن زيد ومعه بلال»(١) في هذه الأثناء يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ دخل عام الفتح وعلى رأسه المغفر.. فلما نزعه جاء رجل فقال: إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة فقال: اقتلوه»(٢) فقتل.. فالرجل لم يعلن توبته عما بدر منه و لم يطلب الرحمة و لم يقبل دين الإسلام.. كان عناداً كأبي جهل وقد استجار بقماش مطروح على الكعبة فلم يمنعه ذلك القماش من السيوف.. ثم قال ﷺ يطمئن مكة باستمرار التوحيد فيها ويطمئن قريشاً التي بدأت ترتعد من مصير ابن خطل بحديث جميل سمعه أحد المعنيين واسمه العاصي بن الأسود.. يقول العاصي: «سمعت النبي ﷺ يقول يوم فتح مكة: لا يقتل قرشي صبراً بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة»(٣) «لا تغزى مكة بعد هذا اليوم»(٤)

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٦٢.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٦٥٥ ومسلم ٢-٩٨٩.

(٣) صحيح مسلم ٣-١٤٠٩ وكلمة أبي عند الحاكم.

(٤) سنده صحيح رواه الحميدي ١-٢٦٠ ثنا سفيان قال ثنا زكريا بن أبي زائدة عن الشعبي =

وقد قبض ﷺ على العاصي فعفا عنه وغير اسمه إلى مطيع.. يقول ابنه عبدالله: «لم يكن أسلم أحد من عصاة قريش غير [أبي] مطيع كان اسمه العاصي فسماه رسول الله ﷺ مطيعاً»(١)

لكن إذا كانت مكة لن تغزى كدولة غير مسلمة بعد اليوم فإن حلفاء الإسلام بني خزاعة يريدون الاحتفال بفتحها على طريقتهم المفضلة.. فتقدموا للني ﷺ بطلب أخذ الثأر من سبب كل هذا الذي يحدث اليوم بني بكر:

ثأر خزاعة من بني بكر

أرادت خزاعة الثأر ممن غدروا بها ونقضوا العهد والميثاق دون سابق إنذار وهم بنو بكر.. فتقدموا بطلب إلى النبي ﷺ أن يأذن لهم بغزو بني بكر على ما فعلوه فأذن لهم لكنه حدد لهم فترة زمنية قصيرة تبدأ من الآن وحتى وقت العصر فقط.. وقد أعلن ﷺ ذلك على الملأ مطمئناً قريش على أموالها ودمائها وأعراضها فقال: «يوم فتح مكة: كفوا السلاح إلا خزاعة من بني بكر فأذن لهم حتى صلوا العصر ثم قال لهم كفوا السلاح»(٢) ويقول أحد الصحابة من بين خزاعة واسمه أبو شريح «أذن لنا رسول الله ﷺ يوم الفتح

=

عن الحارث بن مالك بن البرصاء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله (ص) يوم فتح مكة يقول وهو سند مسلم في روايته للحديث السابق مع اختلاف تلميذ زكريا وهو أحد الأئمة الثقات وكذلك الصحابي.

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٠٩ وكلمة أبي عند الحاكم.

(٢) سنده قوي رواه ابن أبي شيبة ٧-٤٠٣ حدثنا يزيد بن هارون قال حدثنا حسين المعلم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي (ص) يزيد ثقة متقن عابد: التقريب ٢-٣٧٢ وشيخه المعلم اسمه حسين بن ذكوان ثقة: التقريب ١-١٧٦ وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده سند قوي مشهور.

في قتال بني بكر حتى أصبنا منهم ثأرنا وهو بمكة.. ثم أمر رسول الله ﷺ برفع السيف»[1] وذلك بعد أن تم التخلص من ابن أخطل.. وتنفس المشركون حياة أخرى وخرجوا من بيوتهم آمنين وانطلقوا للتفرج على مكة وهي مدينة إسلامية.. أما النبي ﷺ فتوجه نحو الكعبة ليخلصها من أغلالها التي خنقتها ودنست طهارتها مئات السنين.. وكان برفقته هذان الأسمران العظيمان بلال وأسامة بن زيد.. فكم هو حجم الغيظ في قلوب أهل الأصنام وهم يرون الإسلام يحتفي ببلال وأسامة كل هذا الاحتفاء.. ويقدمهما في ساعات النصر التي يتطاول لها زعماء العرب كلهم.. وهم يرون الأحساب والأنساب لا تنفع مشركاً ولا ترفع أنفه عن الوحل.. لكن ذلك كله يهون أمام تلك الخطوات التي كان ﷺ يمشيها نحو «ثلاث مائة وستون صنماً»[2] حول الكعبة وفوقها.. كان يمشي نحوها والمؤمنون ينتظرون هذه اللحظات منذ سنوات طويلة لتفيق قريش ومن معها على حقيقة الوهم الذي عاشوه مئات السنين.. أما المشركون فينتظرون فاجعتهم بأصنامهم ويطرقون السمع إلى صوت متوقع.. صوت:

تحطيم الأصنام

فقد «أقبل رسول الله ﷺ عام الفتح على ناقة لأسامة بن زيد حتى أناخ بفناء الكعبة»[3]

(١) في سنده ضعف رواه أحمد ٤-٣١ ثنا وهب بن جرير قال حدثني أبي قال سمعت يونس يحدث عن الزهري عن مسلم بن يزيد أحد بني سعد بن بكر أنه سمع أبا شريح وسبب الضعف هو التابعي ابن يزيد فهو لم يوثقه سوى ابن حبان لكن حديثه مقبول عند الشواهد فيشهد له ما قبله.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وابن حبان ١٣-١٧٢ ولفظ الشيخين هو نصباً بدل صنماً.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٦٦.

ثم «أقبل رسول الله ﷺ إلى الحجر فاستلمه وطاف بالبيت في يده قوس أخذ بسية[1] القوس فأتى في طوافه صنماً في جنبة البيت يعبدونه فجعل يطعن بها في عينيه ويقول جاء الحق وزهق الباطل»[2] ربما كان هذا هو هبل الذي تغنى باسمه أبو سفيان على أرض أحد.. ربما لكن هذا الصنم ليس الوحيد الذي يزعج الكعبة والحرم ومكة.. لم يكن وحده يلوث نقاء الحياة فيها فقد كان «حول الكعبة ثلاثمائة وستون نصباً فجعل يطعنها بعود في يده وجعل يقول جاء الحق وزهق الباطل»[3].. ولما انتهى ﷺ من الطواف وتم كنس بقايا تلك الأخشاب والحجارة التي كانت ملقاة على الكعبة وحولها اكتشف الوثنيون أنهم كانوا يعبدون نفايات جمعها المسلمون وقذفوها خارج الحرم وربما في إحدى المزابل..

هذا هو الشرك ببساطة غابة من الكلام والهشيم والعناد ليس لها جذور.. ويكفي للقضاء عليها عود ثقاب صغير..

تناثرت الأصنام وطهرت الكعبة من الخارج فأراد النبي ﷺ تطهيرها من الداخل فطلب مفاتيح الكعبة من العائلة التي شرفها الله بحجابة بيته وخدمته وسدانته.

---

(١) طرفها.

(٢) سنده صحيح رواه ابن خزيمة ٤-٢٣٠ ثنا عبد الله بن هاشم ثنا بهز يعني بن أسد ثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت قال ثنا عبد الله بن رباح وقد سمعه من أبي هريرة ورواه أيضاً من طريق الربيع حدثنا سليمان.. به وسليمان بن المغيرة ثقة من رجال الشيخين وكذلك ثابت وعبد الله ثقة من رجال مسلم فقط وقد تم تخريج الحديث تحت عنوان إسلام أبي سفيان.

(٣) صحيح البخاري ٢-٨٧٦ ومسلم ٣-١٤٠٨.

من هذه العائلة وما هي قصة السدانة

باختصار شديد: كان في قريش زعيم يقال له قصي وكان يتم في بيته كل أمر يهم القبيلة ويؤثر في مسارها.. وكان له أربعة أولاد أكبرهم عبد الدار وأحدهم جد النبي ﷺ واسمه: عبد مناف فجعل قصي أمر الكعبة من اختصاص ابنه عبد الدار الذي يقف حفيده بجانب النبي ﷺ واسم حفيده هذا: «عثمان بن عبد الله بن عبد العزيز بن عثمان بن عبد الدار».. وهو يلقب الآن بطلحة «الحجبي»[1] وكانت المفاتيح عند أمه وهي مشركة وترفض تسليمها فاستأذن لإحضارها.. يقول أحد الشباب القرشيين المتشوقين لدخول الكعبة: «دعا عثمان بن طلحة فقال ائتني بالمفتاح فذهب إلى أمه.. فأبت أن تعطيه فقال: والله لتعطينه أو ليخرجن هذا السيف من صلبي.. فأعطته إياه فجاء به إلى النبي ﷺ فدفعه إليه ففتح الباب»[2] لكن النبي ﷺ رفض دخول الكعبة بعد فتح بابها!

لماذا رفض النبي دخول الكعبة

لقد شاهد مناظر كدرته.. شاهد الشرك متعفناً داخل الكعبة يلوثها ويخنق براءتها.. شاهد صوراً وتماثيل هي بالنسبة لكثير ممن يعمرون القبور وينسون الإنسان تحفاً وآثاراً يجب الحفاظ عليها.. لكن النبي ﷺ يقدم درساً علمياً لمن يجعلون من تلك الآثار وحياً لا يكذب.. درساً يقول إنها أعمال بشرية محضة تنبع من ميول الإنسان وخياله وهواه وأساطيره وخرافاته.. ولا تعدو إطلاقاً كونها عملاً فنياً يعبر عمن رسمها ونحتها لا عن حقيقة هذا الشيء المرسوم ووجوده.

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٦٦.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٦٦.

رفض ﷺ دخولها حتى يتم تطهيرها تماماً و«أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة فأمر بها فأخرجت.. فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام.. فقال النبي ﷺ: قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها»[1] هذا هو مصير التماثيل أما الصور المرسومة على جدران الكعبة «فوجد فيه صورة إبراهيم وصورة مريم.. فقال: أما لهم فقد سمعوا أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة. هذا إبراهيم مصور فما له يستقسم»[2] و«لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت»[3] ثم دخل النبي ﷺ الكعبة.. لم يدخل معه أبو بكر ولا عمر ولا سعد بن عبادة ولا غيرهم من كبار الصحابة.. دخل معه أسامة وبلال وسادن الكعبة« دخل النبي ﷺ وبلال وأسامة بن زيد وعثمان بن طلحة وأمر بالباب فأغلق.. فلبثوا فيه ملياً»[4] «فكبر في نواحي البيت»[5] يقول الشاب عبد الله بن عمر: «فمكثوا فيه ملياً ثم فتح الباب فخرج النبي ﷺ ورقيت الدرجة فدخلت البيت»[6]

«فكنت أول من دخل فلقيت بلالاً.. فقلت أين صلى رسول الله ﷺ؟ فقال بين العمودين المقدمين فنسيت أن أسأله كم صلى رسول الله ﷺ»[7].

استطاع الشاب ابن عمر أن يسبق غيره إلى الدخول إلى الكعبة فقد كان نموذجاً حرفياً لسنة النبي ﷺ لا يحب الزيادة عليها ولا النقصان..

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٦١.
(٢) صحيح البخاري ٣-١٢٢٣.
(٣) صحيح البخاري ٣-١٢٢٣.
(٤) صحيح مسلم ٢-٩٦٦.
(٥) صحيح مسلم ٤-١٥٦١.
(٦) صحيح مسلم ٢-٩٦٧.
(٧) صحيح مسلم ٢-٩٦٧.

فهي الكمال وهي النموذج والناس تتأرجح صعوداً ونزولاً حولها.. وبينما كان ابن عمر مأخوذاً بتطبيق سنة النبي ﷺ كان المسجد يغص بـالمؤمنين المزينين بنصر الله وفتح مكة وبالمشركين اللائذين ببيت الله من المـوت.. وكان هؤلاء المشركون على أحر من الجمر ينتظرون

بيان النصر الأول

فقد تناثرت الأصنام وسيطر الجيش المؤمن على كل شيء فما هـي لغة هؤلاء المنتصرين الجديدة وما هو مصير هؤلاء الخائفين داخل الحـرم وخارجه.. أسئلة أجاب عنها النبي ﷺ بعد خروجه من الكعبة مباشـرة وسمعها أبو هريرة بذاكرة لا تعرف الصدأ.. يقول رضي الله عنه:

«حتى إذا فرغ وصلى جاء فأخذ بعضادتي الباب ثم قال يـا معشـر قريش ما تقولون قالوا نقول ابن أخ وابن عم رحيم كريم.. ثم عاد عليهم القول.. قالوا مثل ذلك «قال: يا معشر قريش ما تقولون؟ قالوا: نقـول ابن أخ وابن عم رحيم كريم.. ثم قال: يا معشر قريش.. ما تقولون؟ قالوا نقول: ابن أخ وابن عم رحيم كريم»

قال: فإني أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم.. اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين فخرجوا [كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام]»(١)

إذا كان لعظمة محمد مقاييس فتلك هي مقاييسها.. لا انتقام للذات ولا للأهل والعشيرة.. لم يأخذ سبايا ولا أموالاً.. ترك كل شيء لله فمن

(١) حديث صحيح مر معنا رواه النسائي في الكبرى ٦-٣٨٢ والزيادة للبيهقي في الكـبرى ٩-١١٨ من طريق سلام بن مسكين ثنا ثابت البناني عن عبد الله بن رباح الأنصاري عن أبي هريرة وسلام ثقة. التقريب ١-٣٤٢ وكذلك شيخه وشيخ شيخه التابعي ابن رباح.

أجل الله دعا وحورب وحارب وانتصر.. وهاهو يشرع أبواب الله لمن يريد الدخول فيها.. يشرعها بالعفو والصفح ونسيان الماضي بآلامه.. والبدء من جديد لإعادة تشكيل الأرض ومن عليها.. هرول المشركون الطلقاء إلى النبي ﷺ «فبايعوه على الإسلام»(١)

هرول من في المسجد نحو النبي ﷺ أما أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقد هرول خارجاً من المسجد يدفعه البر وتحمله الصلة.. ثم عاد رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقد «أتاه أبو بكر بأبيه يعوده.. فلما رآه الرسول ﷺ قال هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه.. قال أبو بكر يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه.. فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره ثم قال له أسلم فأسلم ودخل به أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ ورأسه كأنه ثغامة فقال رسول الله ﷺ: غيروا هذا من شعره.. ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته فقال: أنشد بالله وبالإسلام طوق أختي فلم يجبه أحد.. فقال: يا أخية احتسبي طوقك»(٢) ثم أخذ أباه «فأمر به إلى نسائه قال: غيروا هذا بشيء»(٣) .. أما عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد تهادى نحو النبي ﷺ وبصحبته رجل يسحب خجله وعاره معه.. ذلك الرجل الذي خان الأمانة والثقة ورضي بأكوام الحجارة.. لكن السيف أعاد له رشده وما شرد من صوابه.. عبد الله ابن أبي سرح يقدمه عثمان للنبي ﷺ ذليلاً خائفاً تائباً معتذراً.. ويلخص أحد الصحابة مصيبته

---

(١) حديث صحيح مر معنا رواه النسائي في الكبرى ٦-٣٨٢ والزيادة للبيهقي في الكبرى ٩-١١٨ من طريق سلام بن مسكين ثنا ثابت البناني عن عبد الله بن رباح الأنصاري عن أبي هريرة وسلام ثقة. التقريب ١-٣٤٢ وكذلك شيخه وشيخ شيخه التابعي ابن رباح.

(٢) حديث صحيح مر معنا رواه أحمد ٦-٣٤٩ وغيره.

(٣) صحيح مسلم ٣-١٦٦٣ أي غيروا لون الشيب الأبيض.

وتوبته بكلمات فيقول «كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب لرسول الله ﷺ فأزله الشيطان فلحق بالكفار فأمر به رسول الله ﷺ أن يقتل يوم الفتح فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره رسول الله ﷺ»[1] .. ولما انتهى ﷺ من مبايعة الحاضرين نهض نحو موعده مع الأنصار نهض نحو جبل الصفا ولما «أتى الصفا لميعاد الأنصار»[2] حسب اتفاقه مع أبي هريرة أن يجمع له الأنصار عند ذلك الجبل.. وتحت ذلك الجبل أحس الأنصار بمرارة لا تطاق.. شعروا بلهف النبي ﷺ على مكة وبيت ربه وأشعرهم عفو النبي ﷺ عن قريش وكأن المدينة والأنصار في حالة وداع لا يحتمل فكانت هذه القصة التي ترتب:

حب الأنصار ثم باقي البشر

أبو هريرة كان عند الصفا يروي فيقول:

«أتى الصفا فعلاها حيث ينظر إلى البيت.. فرفع يديه وجعل يحمد الله ويذكره ويدعو بما شاء أن يدعو.. والأنصار تحته.. يقول الأنصار بعضها لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته.. قال أبو هريرة: وجاء الوحي وكان إذا جاء الوحي لم يخف علينا فليس أحد من الناس يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى يقضي.. فلما قضي الوحي.. قال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار.. قالوا: لبيك يا رسول الله.. قال: قلتم

---

(١) سنن أبي داود ٤-١٢٨ حدثنا أحمد بن محمد المروزي ثنا علي بن الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس.. يزيد ثقة عابد: التقريب ٢-٣٦٥ والحسين ثقة: التقريب ١-١٨٢ وابنه حسن الحديث إذا لم يخالف. التقريب ٢-٣٥ فهو صدوق يهم.. ومن لا يهم أما شيخ أبي داود فهو الإمام أحمد رحمهم الله جميعاً.

(٢) هو حديث أبي هريرة السابق عند النسائي وغيره.

أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته.. قالوا: قد قلنا ذلك يا رسول الله.. قال فما أسمى إذاً.. كلا إني عبد الله ورسول الله هاجرت إلى الله وإليكم.. المحيا محياكم والممات مماتكم.. فأقبلوا إليه يبكون يقولون: والله يا رسول الله ما قلنا الذي قلنا إلا للضن بالله ورسوله.. قال: فإن الله ورسوله يعذرانكم ويصدقانكم»[1] «فوالله ما منهم أحد إلا بل نحره بالدموع»[2] «قال أبو هريرة: فرأيت الشيوخ يبكون حتى بل الدموع لحاهم»[3] فهذا النوع من الوفاء لا تقاومه الدموع والكلمات وحدها لا تكفي..

بذلك الوفاء طهر ﷺ قلوب الأنصار من الحزن بعد أن طهر المسجد الحرام والكعبة من الشرك والأصنام..

وبتلك العبارات شعر الأنصار أهم سادة الدنيا وأن مدينتهم غدت عاصمة الإسلام.. حتى مكة أفضل بقعة على وجه الأرض غدت مدينة تابعة للمدينة المنورة..

أدرك الأنصار كم هذا النبي وفي وعظيم ولا تعرف مصطلحات تعامله شيئاً عن الجحود والنكران.. وأدرك أبو سفيان ومن معه كم يرفع الإسلام أهله ويعلي قدرهم.. فهو اليوم يرى نفسه ومن معه من صناديد

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم وأحمد ٢-٥٣٨ وابن أبي شيبة ٧-٣٩٧ واللفظ له من طرق عن سليمان بن المغيرة عن ثابت قال هاشم قال حدثني ثابت البناني ثنا عبد الله بن رباح.

(٢) هذه اللفظة صحيحة عند الدارقطني المستدرك على الصحيحين ٢-٦٢ من طريق محمد بن الفضل عارم وهدبة بن خالد قالا حدثنا سلام بن مسكين عن ثابت عن عبد الله بن رباح عن أبي هريرة وهو سند صحيح. سلام ثقة: التقريب ١-٣٤٢ وعارم ثقة ثبت التقريب ٢-٢٠٠.

(٣) هو جزء من حديث أبي هريرة السابق وهذه اللفظة عند النسائي في الكبرى ٦-٣٨٢.

قريش دون من سبقهم إلى الإسلام.. دون من تخلوا عن العناد والمكابرة وإغلاق العقول.. وأدرك كذلك أن الإسلام وضع اليوم قدمه وقدم من أسلم معه على أول المضمار.. وعليهم أن يبذلوا الكثير ليلحقوا بهؤلاء العظماء الذين اصطحبهم محمد ﷺ معه من المدينة وغيرها.. أما النبي ﷺ فقد أنهى كلماته تلك حيث كان الوقت ضحى.. ثم توجه نحو بيت ابنة عمه أبي طالب وهي أخت علي وتدعى أم هانئ كي يرتاح ويغتسل ويغسل غبار السفر والتعب عنه.. وأخذ بصحبته ابنته فاطمة وزوجها علياً رضي الله عنهما.. وقد جرت بعض الـ:

أحداث في بيت أم هانئ

تقول رضي الله عنها: «إنه يوم فتح مكة اغتسل في بيتها ثم صلى ثماني ركعات قالت لم أره صلى صلاة أخف منها غير أنه يتم الركوع والسجود»(١) وتقول رضي الله عنها عندما «كان نازلاً عليها: إن النبي ﷺ ستر عليه فاغتسل في الضحى فصلى ثمان ركعات لا يدري قيامها أطول أم ركوعها أم سجودها»(٢)

وأثناء ذلك جاء رجل من المشركين يقال له ابن هبيرة إلى أم هانئ فاراً من الموت طالباً اللجوء والحماية.. فقد هدده أخوها علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالقتل إن وجده.. تقول أم هانئ: «ذهبت إلى

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٦٢.

(٢) سنده صحيح رواه عبد الرزاق ٥-٣٠ عن ابن جريج قال حدثنا ابن شهاب عن عبد الله ابن الحارث عن أم هانئ وهذا سند صحيح ابن جريج لم يدلس وابن الحارث قال على بن المديني عنه: ثقة سمع من عمر وعثمان وعلي سمع من العباس بن عبد المطلب ومن صفوان ابن أمية ومن أم هانئ - الجرح والتعديل ٥-٣٠.

رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره بثوب.. فسلمت.. فقال: من هذه؟ قلت: أم هانئ بنت أبي طالب.. قال: مرحباً بأم هانئ.. فلما فرغ من غسله قام فصلى ثماني ركعات ملتحفاً في ثوب واحد فلما انصرف.. قلت: يا رسول الله.. زعم ابن أمي علي بن أبي طالب أنه قاتل رجلاً أجرته فلان بن هبيرة.. فقال رسول الله ﷺ: قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ.. قالت أم هانئ: وذلك ضحى»(1) فالإسلام لا يفرق بين الرجل والمرأة في هذا الشأن وللمرأة أدوارها العظيمة في الحياة الإسلامية بشرط أن تعيها وترتقي إلى مستوى الإسلام في تفكيرها واهتماماها..

ولما جاء وقت العصر أمر ﷺ بني خزاعة بالتوقف عن قتال بني بكر.. يقول أحد الصحابة: «لما فتح على رسول الله ﷺ مكة قال كفوا السلاح إلا خزاعة عن بني بكر فأذن لهم حتى صلوا العصر ثم قال كفوا السلاح»(2) فكفوا السلاح..

انقضى العصر وانقضى القتال وجاء الليل فأين سيترل رسول الله ﷺ.. طرح أسامة هذا السؤال على النبي عليه السلام فقال «يا رسول الله أين تترل غداً قال النبي ﷺ وهل ترك لنا عقيل من مترل ثم قال لا يرث المؤمن الكافر ولا يرث الكافر المؤمن»(3).. أي أن النبي ﷺ لم يرث نصيب أبيه من تلك الدار وكذلك علي رضي الله عنه لم يرث والده فاستولى عقيل على نصيبهما..

---

(1) صحيح مسلم ١-٤٩٨.

(2) صحيح البخاري ٤-١٥٦٢.

(3) صحيح البخاري ٤-١٥٦٠.

بحث ﷺ عن مكان يبيت فيه.. لم يصادر بيت زعيم أو صنديد و لم يغتصب أرضاً ولا بيتاً ولا حتى خيمة بحجة أنه رأس الدولة الإسلامية.. فقط نام حيث يسر الله له.. ولما جاء الغد حدث خرق لذلك الأمر الذي صدر بالأمس من النبي ﷺ بوقف القتل والقتال.. وقد قام بارتكاب تلك الحماقة رجل من خزاعة ضد أحد رجال بني بكر ولما وصل الأمر إلى النبي ﷺ غضب غضباً شديداً وأنكر ذلك العمل وأصدر:

البيان رقم ٢ للدولة الإسلامية في مكة

يقول أحد الصحابة: «لما فتح على رسول الله ﷺ مكة قال: كفوا السلاح إلا خزاعة عن بني بكر.. فأذن لهم حتى صلوا العصر ثم قال: كفوا السلاح.. فلقى من الغد رجل من خزاعة رجلاً من بني بكر بالمزدلفة فقتله فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقام خطيباً فقال: «يا أيها الناس إن الله عز وجل كرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام من حرام الله تعالى إلى يوم القيامة.. لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ولا يعضد بها شجراً.. لم تحلل لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد يكون بعدي و لم تحلل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها.. ألا ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس.. ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب فمن قال لكم إن رسول الله ﷺ قد قاتل بها فقولوا إن الله عز وجل قد أحلها لرسوله و لم يحللها لكم يا معشر خزاعة.. وارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر أن يقع.. لئن قتلتم قتيلاً لأدينه فمن قُتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين إن شاؤوا فدم قاتله وإن شاؤوا فعقله»[1]

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق من طريقه الإمام أحمد ٤-٣٢: حدثني سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي شريح الخزاعي قال: وسعيد تابعي ثقة: التقريب ١-٢٩٧ وشيخه صحابي.

إن أعدى الناس على الله من عدا في الحرم

ومن قتل غير قاتله.

ومن قتل بنحول الجاهلية[١]

فقال رجل: يا رسول الله إن ابني فلاناً عاهرت بأمه في الجاهلية[٢].

فقال: لا دعوة في الإسلام.. ذهب أمر الجاهلية الولد للفراش[٣].. وللعاهر الأثلب.. قيل: يا رسول الله.. وما الأثلب قال: الحجر

وفي الأصابع عشر عشر[٤]

وفي المواضح خمس خمس[٥]

ولا صلاة بعد الصبح حتى تشرق الشمس.. ولا صلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس

ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها

ولا يجوز لامرأة عطية إلا بإذن زوجها[٦]

وأوفوا بحلف الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدة

ولا تحدثوا حلفاً في الإسلام»[٧]

---

(١) أي قتل أحداً ثأراً.

(٢) أنه أنجب هذا الولد عن طريق الزنا.

(٣) الولد للفراش أي أن ولد الزنا ينسب لأمه فيقال فلان بن فلانة أما العاهر أي الرجل فله الرجم بالحجر.

(٤) أي من قطع إصبع أحد فدية كل أصبع عشر من الإبل.

(٥) الجرح الذي يوضح العظم.

(٦) لا يجوز للمرأة أن تنفق من مال زوجها إلا بإذنه.

(٧) حديث حسن رواه الإمام أحمد ٢-٢٠٧ وابن أبي شيبة ٧-٤٠٣ والحارث «زوائد الهيثمي» ٢-٧٠٩ وغيرهم من طرق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وهذا السند قوي مشهور.

وبعد أن انتهى من خطبته «ودى رسول الله ﷺ الرجل الذي قتلته خزاعة»[1] أي دفع دية الرجل المقتول من بني بكر.. ثم حدد ﷺ عقوبة جنائية هي القتل خطأ «فقال: لا إله إلا الله وحده نصر عبده وهزم الأحزاب وحده.. الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده.. ألا إن كل مأثرة كانت في الجاهلية تعد وتدعى.. وكل دم أو دعوى موضوعة تحت قدمي[2] هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ألا وإن قتيل خطأ العمد بالسوط والعصا والحجر دية مغلظة مائة من الإبل منها أربعون في بطونها أولادها»[3]

توالت التوبة تلو التوبة والبيعة تلو البيعة. وأعطي الطلقاء فرصة كبيرة للتفكير والتروي ومراجعة النفس والتعود على حياة صافية دون أصنام أو أوثان أو خرافات.. لذلك:

قرر النبي ﷺ البقاء في مكة

لمدة تكفي لإذابة ما بقي في نفوس الطلقاء من بقايا الجاهلية.. يقول أحد الصحابة «أقام النبي ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً يصلي ركعتين»[4] الظهر ركعتين والعصر والعشاء كذلك أما المغرب والفجر فليس فيهما

---

(١) هو حديث ابن إسحاق وأحمد السابق وهو صحيح.

(٢) أي باطلة لا قيمة لها.

(٣) بين كملة: بالعمد والسوط قال الراوي: «قال هشيم مرة». سنده قوي رواه الإمام أحمد ٣-٤١٠ من طريق خالد الحذاء عن القاسم بن ربيعة بن جوشن عن عقبة بن أوس عن رجل من أصحاب النبي (ص) أن النبي (ص) خطب يوم فتح مكة: وعقبة تابعي صدوق التقريب ٢-٢٦ وتلميذه تابعي أيضاً وثقة: التقريب ٢-١١٦ وخالد بن مهران الحذاء تابعي صغير ثقة: التقريب وللحديث شواهد تقوية.

(٤) رواه البخاري ٤-١٥٦٤.

قصر.. وكان من عادة النبي ﷺ أن يقصر الصلاة إذا خرج من المدينة مسافة تقارب الأربع وعشرين كيلومتراً.. يقول أنس بن مالك «كان رسول الله ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ صلى ركعتين»(١) والقصر هو أن يؤدي الصلاة ذات الأربع ركعات ركعتين بدلاً من أربع طوال أيام السفر.. وهذا ما فعله النبي ﷺ مدة بقائه في مكة.. حيث كانت تلك الأيام عبارة عن إعطاء الطلقاء فرصة لتغيير الزاوية التي كانوا ينظرون من خلالها إلى النبي ﷺ.. زاوية الحسب والنسب والقبيلة والعادات والتقاليد والتنافس والثأر لينتقلوا إلى زاوية أخرى حيث الصفاء والعقل والاتزان والتجرد من أثقال الموروثات البالية.. تسعة عشر يوماً يفز فيها أكثر من عشرة آلاف مؤمن للصلاة يحيطون بالكعبة ويملأون البيت الحرام خمس مرات في اليوم والليلة.. في سكون وحركات خاشعة رائعة موحدة راكعة ساجدة خلف رجل واحد هو محمد ﷺ.. مشهد مهيب وجليل اختفت فيه الأصنام والأزلام وبقي فيه التوحيد نقياً دون شوائب.. مشهد مهيب أخذ عقول الطلقاء إلى المقارنة بين صلاة هؤلاء المؤمنين الخاشعين الراكعين الساجدين وبين صلاتهم المليئة بالجهل والتخلف والهمجية ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ أي ما كانت صلاتهم إلا تصفيراً وتصفيقاً كما كانت تعرياً أيضاً.. وقد تمكن ﷺ من استمالة كل مكة إلى الإسلام في تلك الفترة القصيرة حتى هذه المرأة زوجة أبي سفيان التي كانت تحمل ضد النبي ﷺ وأصحابه ثارات وأحقاداً سوداء تتجه إليه مختارة طائعة

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١-٤٨١. وبعد كلمة فراسخ قال الراوي: «شعبة الشاك» أي الذي تردد في الجزم بأنها ميل أو فرسخ هو أمير المؤمنين في الحديث شعبة بن الحجاج وليس أنس فيؤخذ بالأكثر لأنه الذي لا شك في والفرسخ مسافة تقارب ثمانية كيلومترا.

لتبايعه بعد أن أذهلتها أخلاق النبي ﷺ وسماحته وعدالته عن كل ما مضى.. تقول عائشة رضي الله عنها: «جاءت هند بنت عتبة قالت: يا رسول الله.. ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك.. ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من أهل خبائك.. قال: وأيضاً والذي نفسي بيده.. قالت: يا رسول الله.. إن أبا سفيان رجل مسيك.. فهل عليَّ حرج أن أطعم من الذي له عيالنا؟ قال: لا أراه إلا بالمعروف»(١) أي خذي من ماله قدر ما تعارف عليه الناس من مصروف.

إن إسلام هذا الكم من البشر في هذه الفترة القصيرة يوحي بحقيقة ثقافة المنتصر المقنعة وأنها لا تحتاج إلى الكثير من العناء للقبول.. لأن كل أدوات العناد الهزيلة لا تستطيع التماسك أمامها.. أما إذا كان من يحملها دون سلطان أو دولة فالثقافة المقنعة تحتاج إلى رجال كمحمد ﷺ وأصحابه المهاجرين والأنصار يحملونها بسلوكهم وتعاملهم ورحمتهم لا بالتزامهم في جانب العبادات فقط.. فالعبادة بين الإنسان وبين ربه وقد تنقع فئة قليلة من أصحاب العقول وممتازي البشر.. أما دهماء الناس فتنتظر وتنظر دائماً إلى من يقدم لها شيئاً يروي غليلها ويحقق أحلامها بسلوكه وإنجازه.. عندها يجد التوحيد دروباً فسيحة نحو النفوس.. وهذا ما يفعله محمد ﷺ وصحبه الكرام اليوم على أرض مكة وتحت سمائها..

هاهو أحد الرجال القادمين لرصد الأحداث يعود إلى قومه محملاً بالإيمان فيروي ابنه الصغير بغبطة قصة عودة والده وقصة المجد الذي توجه به قومه رغم صغر سنه فيقول:

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٣٩٠. ومعنى مسيك: أي بخيل

«كنا بماء ممر الناس وكان يمر بنا الركبان فنسألهم ما للناس ما للناس ما هذا الرجل.. فيقولون: يزعم أن الله أرسله أوحى إليه أو أوحى الله بكذا فكنت أحفظ ذلك الكلام وكأنما يقر في صدري وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح فيقولون: اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق.. فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم وبدر أبي قومي بإسلامهم فلما قدم قال: جئتكم والله من عند النبي ﷺ حقاً فقال: صلوا صلاة كذا في حين كذا وصلوا كذا في حين كذا فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآناً.. فنظروا فلم يكن أحد أكثر قرآناً مني لما كنت أتلقى من الركبان فقدموني بين أيديهم وأنا بن ست أو سبع سنين.. وكانت علي بردة كنت إذا سجدت تقلصت عني.. فقالت امرأة من الحي: ألا تغطون عنا أست[1] قارئكم. فاشتروا فقطعوا لي قميصاً فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص»[2]

فرح الطفل الإمام بثوبه الجديد كعادة الأطفال ولم يأنف قومه من إمامة طفل لهم في الصلاة لأن الإسلام يريد ذلك ويستحبه.. أما على أرض مكة فما زال المبايعون والطلقاء يتوافدون على النبي ﷺ.. أما المهاجرون والأنصار فلم يكن همهم الاحتفال بانتصارهم على أرض مكة ولا استعراض سبقهم على طرقاها.. كانت أنفاسهم أطواق نجاة لمن حولهم وكانت كلماهم بساتين كرم للمتعبين.. ينطلقون في اتجاه كل عقل حائر وكل قلب متعب بالشرك والضياع.. فكما نجح أبو بكر مع والده أسرع البقية إلى من بقي من أرحامهم.. بل إن من دخل منهم الإسلام يقوم بعرض قناعته على غيره وهاهو أحدهم ويدعى مجاشع بن مسعود يبايع النبي ﷺ ويقول: «أتيت

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٦٤.

(٢) أي عورته.

النبي ﷺ أبايعه على الهجرة فقال إن الهجرة قد مضت لأهلها ولكن على الإسلام والجهاد والخير»[1] .. ثم يتجه إلى أخيه فيقنعه ويأخذ بقلبه إلى النبي ﷺ ويقول: «جئت بأخي أبي معبد إلى رسول الله ﷺ بعد الفتح فقلت يا رسول الله بايعه على الهجرة قال: قد مضت الهجرة بأهلها قلت فبأي شيء تبايعه قال على الإسلام والجهاد والخير»[2] فقد «قال النبي ﷺ يوم افتتح مكة: لا هجرة ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا.. فإن هذا بلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة.. وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها.. ولا يختلى خلاها قال العباس: يا رسول الله.. إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم قال: قال: إلا الإذخر»[3] وهو (حشيش طيب الريح أطول من الثيل)[4] وقد وافق ﷺ على استثنائه لحاجة أهل مكة له.. أما ما عدا ذلك فلا يجوز لأحد داخل منطقة الحرم قطع شجر أو مطاردة صيد أو حتى التقاط شيء ضائع إلا لإيصاله إلى أهله أو تسليمه لمن يتولى إمارة الحرم..

كان الصحابة يستمعون بإنصات إلى تلك التعليمات وفجأة قال النبي ﷺ:

اكتبوا لأبي شاه

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «لما فتح الله عز وجل على رسول

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٨٧.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٤٨٧.

(٣) صحيح البخاري ٢-٦٥١.

(٤) لسان العرب ٤-٣٠٣.

الله ﷺ مكة قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين وإنها لن تحل لأحد كان قبلي وإنها أحلت لي ساعة من نهار وإنها لن تحل لأحد بعدي.. فلا ينفر صيدها ولا يختلى شوكها ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين إما أن يفدى وإما أن يقتل فقال العباس: إلا الإذخر يا رسول الله.. فإنا نجعله في قبورنا وبيوتنا فقال رسول الله ﷺ إلا الإذخر.. فقام أبو شاه رجل من أهل اليمن فقال: اكتبوا لي يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: اكتبوا لأبي شاه»(١) وهو إذن منه ﷺ لمشروع تدوين أقواله وأفعاله وتقريراته.. حتى لقد تحدث راوية الإسلام أبو هريرة عن امتثال المأخوذين بالرواية فقال «ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب»(٢)

وسط هذا الاسترخاء الجميل على سواحل الإسلام وتحت أشعة شمسه الساحرة كان التوتر يسود مناطق قريبة من مكة وبالذات تلك المناطق التي تقطنها قبيلة هوازن الهادئة المسالمة.. والشجاعة أيضاً.

هوازن متوترة

فقد أربكتها الإشاعات التي ترددت حول جمع النبي ﷺ لعشرة آلاف مجاهد وأثارت مخاوفها تلك الحشود.. كانت التخمينات قد ذهبت بهوازن بعيداً فظنت أن النبي ﷺ يقصدها بذلك الجيش الكاسح فاستعدت لتراله استعداداً انتحارياً ولا أدري من الذي وسوس لها وهي القبيلة التي لم يشهد تاريخها أي تصرف يحسب ضدها.. وقد شاركتها هذا الخوف قبيلة

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٨٨.

(٢) صحيح البخاري ١-٥٤.

ثقيف وهي قبيلة لم تقم بأي نشاط معاد للنبي ﷺ سوى ذلك الموقف الذي صدر من بعض رجالها قبل الهجرة.. لكن المبادرة جاءت من هوازن فهي الآن «على بكرة أبيها بظعنها ونعمها وشائها هي في وادي حنين»[1] لم يبق منها ذكر ولا أنثى إلا توجه نحو وادي قريب من مكة يسمى وادي حنين.. وقد اختبأوا «في شعابه وأحنائه ومضايقه وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا»[2] كل هذا كان يجري في الوقت الذي كان فيه النبي ﷺ وأصحابه ينعمون بأجواء مكة الهادئة الجميلة.. ويقترب عيد الفطر فيخرج المسلمون زكاة الفطر للفقراء والمساكين في مكة ويواسوهم بطريقة ناعمة لم يتعودوا على رقتها من قبل.. ويأتي العيد فيصلي المسلمون ﷺ العيد ويخطب النبي ﷺ بالمسلمين ثم يحتفل المسلمون بعيد الفطر في مكة ويرى الطلقاء كم هو جميل هذا العيد بالإسلام وكم هو جميل هذا الإسلام الذي طالما أغواهم العناد والشيطان بتشويهه.. ويرى الطلقاء هذه الاحتفالية الإسلامية المدهشة فمكة صاخبة بالحركة والحب والتراحم أكثر من عشرة آلاف يفزون جميعاً خمس مرات يومياً للصلاة ثم يروهم بعد أداء الصلاة حول المسجد يتحادثون بود يتبايعون بأمانة ويقرضون دون ربا ويواسي بعضهم بعضاً ويقضون أوقاتاً ممتعة ومرحة

---

(١) سنده صحيح رواه في الآحاد والمثاني ٤-١٠٦ والنسائي في الكبرى ٥-٢٧٣ وغيرهما من طريق: معاوية بن سلام عن جده أبي سلام عن أبي كبشة السلولي عن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه فأبو كبشة تابعي كبير ثقة: التقريب ٢-٤٦٥ وتلميذه تابعي ثقة أيضاً من رجال مسلم: التقريب ٢-٣٧٢ ومعاوية ثقة من رجال الشيخين: التقريب ٢-٢٥٩.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق - ابن هشام ٥-١١٠ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله رضي الله عنه: عبد الرحمن تابعي ثقة التقريب ١-٤٧٥ وعاصم تابعي ثقة عالم بالمغازي من رجال الشيخين: التقريب ١-٣٨٥.

تدخل البهجة على النفوس.. أهذه مكة التي كانت قبل أيام بطيئة مملة كئيبة ملوثة الأجواء بالأصنام والطبقية والعنصرية والربا والأحقاد.. لو لم يكن هذا الرجل نبياً لما تغيرت مكة بهذه الطريقة المعجزة ولو بعد آلاف السنوات.. لكن هذه الأجواء الساحرة تظل بشرية بحتة لكنها موجهة بالوحي النقي والعادل.. وما دامت بشرية فلا بد من الزلل والخطأ.. وقد حدث ذلك عندما أقدمت امرأة مخزومية على السرقة فكانت سرقتها رحمة للمسلمين ودرساً جديداً للطلقاء.

الجريمة والواسطة

حددت المرأة السارقة واعترفت بجريمتها كانت من قريش «كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده فأمر النبي ﷺ أن تقطع يدها»[١] «فأتي بها النبي ﷺ فعاذت بأم سلمة زوج النبي ﷺ»[٢] بعد أن عرفت أن عقوبة السرقة هي قطع اليد.. وانتشر خبر السرقة في مكة واهتز الطلقاء لقطع يد امرأة من أعرق قبائل العرب.. لكن تلك النعرة تفتت أمام العدالة كالجذع المتآكل.. فتوجه أشرف الطلقاء وأرفعهم نسباً متنازلين إلى شاب يتيم أسود اللون يدعى أسامة بن زيد لكي يتوسط عند رسول الله ﷺ لإسقاط حد السرقة عن تلك المرأة نظراً لمكانتها الاجتماعية ولأن في تطبيق الحد عليها مساساً بتلك المكانة في نظرهم.. تقول «عائشة زوج النبي ﷺ: إن قريشاً أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح فقالوا من يكلم فيها رسول الله ﷺ.. فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسو الله ﷺ.. فأتي بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها

(١) صحيح مسلم ٣-١٣١٦.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٣١٦.

أسامة بن زيد فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: أتشفع في حد من حدود الله فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله.. فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد.. فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه.. وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد.. وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.. ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها»[1] .. وتعلم الطلقاء درساً جديداً اسمه المساواة في العقوبة بعد أن استوعبوا المساواة في التعامل والمكافأة.. وأيقنوا أنهم أمام وحي لا يزحزحه شيء فليس بعد فاطمة من قرابة.. فالقضية لا تتعلق بشخصين أو ثلاثة يمكنهم التفاهم حول ما أخذه أحدهما من الآخر.. بل يتعلق بأمن الناس على أموالهم ودمائهم وأعراضهم وبالتالي فهو يتناول بشكل خطير أمن الدولة برمتها فالدولة التي لا تجيد التعامل مع الجريمة لا تستحق أن تسمى دولة.. والحياة فيها لا تعرف معنى للرفاه والاستقرار.. لكن تنفيذ العقوبة في الإسلام لا يعني سوى تنفيذ العقوبة ثم يعود المذنب بعدها بريئاً ليواصل مع غيره مسيرته في الإبداع والإنجاز في موكب هذه الدولة العادلة المنطلقة للآفاق.. هذه المرأة لم تمسح من ذاكرة الأمة ولم تصادر حقوقها في المواطنة فهي امرأة أخطأت ونالت عقابها وانتهى الأمر.. لقد تابت فـ: «قالت عائشة فحسنت توبتها بعد وتزوجت وكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ»[2] .. وقد كان بإمكان أهلها ومن يهمه أمرها طلب الشفاعة من صاحب المال المسروق قبل أن يصل الأمر إلى إمام المسلمين وقائدهم وقاضيهم ﷺ.. لكن عند وصول

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٣١٥.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٣١٥.

الشكوى إلى الإمام تكون الشفاعة قد وصلت إلى طريق مسدود.. وتتحول الشفاعة في هذه الحالة إلى كبيرة قال عنها النبي ﷺ:

«من حالت شفاعته دون حد من حدود الله عز وجل فقد ضاد الله في أمره»(١)

كان تطبيق هذا الحد يعني أشياء كثيرة منها تسليم الجميع بوجود دولة عظيمة ذات نظام يرتب حياتها وينطلق بها مادياً وروحياً.. وكان من ضرورات النظام الجديد إزالة كل شوائب الجاهلية وآثارها التي قد تسبب ارتكاسة للأمة في الحاضر أو المستقبل.. ومن أجل ذلك لم يأمر ﷺ بقطع يد إحدى النساء بل أمر بقتلها..فلماذا:

النبي ﷺ يأمر بقتل امرأة

هذه المرأة لم تسرق مالاً ولم تقتل إنساناً.. فقط اكتفت بجر الأمة إلى هاوية الشرك.. تلك هي العزى التي هتف أبو سفيان باسمها بعد انتهاء غزوة أحد.. فما هي العزى ومن بعث ﷺ من شجعانه للقضاء عليها؟

أحد الصحابة يقول:

«لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها العزى.. فأتاها خالد بن الوليد وكانت على تلال السمرات فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليها.. ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال:

(١) سند صحيح رواه الإمام أحمد ٢-٧٠ وغيره من طريق زهير بن معاوية ثنا عمارة بن غزية عن يحيى بن راشد عن ابن عمر سمعت رسول الله (ص) ومعمر بن راشد ١١-٤٢٥ وغيره من طريق عبد الرزاق عن معمر عن عطاء الخراساني عن ابن عمر.. زهير ثقة: التقريب ١-٢٦٥ وعمارة لا بأس به من رجال مسلم: التقريب٢-٥١ ويحيى بن راشد الدمشقي تابعي ثقة: التقريب ٢-٣٤٧.

ارجع فإنك لم تصنع شيئاً.. فرجع خالد فلما نظرت إليه السدنة وهم حجابها أمعنوا في الجبل وهم يقولون:

يا عزى خبليه

يا عزى عوريه

وإلا فموتي برغم

فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها فعممها بالسيف حتى قتلها ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره قال: تلك العزى»[1]

ولا أدري هل هذه المرأة من السحرة المشعوذين أو من مدعي الألوهية لكن القضاء عليها كان من حتميات العقيدة الإسلامية وإلا فلا معنى للرسالة والنبوة إذا تركت تنشر خزعبلاتها وضلالاتها دون عقاب.. لكن في طريق الدولة الإسلامية ما هو أخطر من العزى فالعزى لم تحتمل أكثر من ضربة بالسيف..

هذه الدولة تواجه الآن آخر خطر يقبع في طريقها وهو ذلك الحشد الهائل من هوازن فقد علم النبي ﷺ بتلك التحركات فأرسل جاسوساً من أصحابه ذكياً يرصد تحركاتهم وأخبارهم اسمه عبد الرحمن بن أبي حدرد

(١) سنده حسن رواه أبو يعلى ٢-١٩٦ والنسائي في السنن الكبرى ٦-٤٧٤ وغيرهما من طريق محمد بن فضيل حدثنا الوليد بن جميع عن أبي الطفيل قال.. وهذا السند حسن من أجل الوليد بن عبد الله بن جميع فهو حسن الحديث من رجال مسلم: التقريب ٢-٣٣٣ والوليد عن أبي الطفيل على شرط مسلم انظر الصحيح (٣-١٤١٤ و٤٢١٤٤) وقد توبع تابعه عن أبي الطفيل في الأحاديث المختارة ٨-٢٢٠ من طريق أبي يعلى الموصلي ثنا عبد الله بن عمر بن أبان ثنا عبد الله بن المبارك أخبرني عبيد الله بن أبي زياد عن أبي الطفيل ولعل الضياء رحمه الله قد وهم في هذا السند (انظر موسوعة السيرة).

السلمي رضي الله عنه.. عن ذلك يتحدث جابر بن عبـــد الله الـــذي لم يتخلف عن أي غزوة منذ استشهاد والده العظيم فيقول إن النبي ﷺ:

«لما فرغ من فتح مكة جمع مالك بن عوف النصري من بني نصـــر وجشم ومن سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال.. وناساً من بني عمـــرو بن عاصم بن عوف بن عامر.. وأوزعت معهم الأحلاف من ثقيف وبنو مالك.. ثم سار بهم إلى رسول الله ﷺ مع الأموال والنساء والأبناء.. فلما سمع بهم رسول الله ﷺ بعث عبد الرحمن بن أبي حدرد الأسلمي فقال:

اذهب فادخل بالقوم حتى تعلم لنا من علمهم فدخل فمكث فـــيهم يوماً أو يومين.. ثم أقبل فأخبره الخبر فقال رســـول الله ﷺ لعمـــر بـــن الخطاب ألا تسمع ما يقول ابن أبي حدرد؟

فقال عمر كذب ابن أبي حدرد.

فقال ابن أبي حدرد: إن كذبتني فربما كذبت من هو خير مني.

فقال عمر: يا رسول الله.. ألا تسمع ما يقول ابن أبي حدرد؟

فقال رسول الله ﷺ: قد كنت يا عمر ضالاً فهداك الله عز وجل.

ثم بعث رسول الله ﷺ إلى صفوان بن أمية فسأله أدراعاً مائة درع وما يصلحها من عدها، فقال: أغصباً يا محمد؟ قال: بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك ثم خرج رسول الله ﷺ سائراً»[1] بعد أن عين أمـــيراً

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٥١: حدثني عاصم بن عمر بـــن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رســـول الله ﷺ سار إلى حنين.. وهذا السند صحيح شيخ ابن إسحاق تابعي ثقة عـــالم بالمغـــازي التقريب ١-٣٨٥ وشيخه تابعي ثقة من رجال الشيخين التقريب ١-٤٧٥ لكن له شاهد عند ابن أبي شيبة ٧-٣٤٨ عن عبد الله بن أبي الهذيل مرسلاً.

على مكة وهو صحابي اسمه: عتاب بن أسيد ويبدو من لغة الحوار بين النبي ﷺ وصفوان بن معطل أن صفوان لا يزال على جاهليته أو أنه أسلم مجاملة.

.. أخذ ﷺ الأدراع ثم خرج ﷺ إلى:

غزوة حنين بين مكة والطائف

بعد أن تجهز بجيش كبير مؤلف من عشرة آلاف مجاهد قدموا معه قبل الفتح بالإضافة إلى أعداد غفيرة من الطلقاء الذين أسلموا بعد فتح مكة.. وفي الطريق نطق بعض الصحابة المخلصين من الطلقاء ممن أسلم حديثاً بكلام ينسف ما خرج النبي ﷺ من أجله بل وما بعث من أجله..

بعض الصحابة يريد تقليد المشركين

يقول أحد المشاركين في تلك الغزوة واسمه الحارث بن مالك:

«قال خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية قال فسرنا معه إلى حنين.. وكانت كفار قريش ومن سواهم من العرب لهم شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط.. يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً.. فرأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سدرة خضراء عظيمة.. فتنادينا من جنبات الطريق: يا رسول الله.. اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط.. قال رسول الله ﷺ: الله أكبر؛ قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة.. قال: إنكم قوم تجهلون إنها السنن

لتركبن سنن من كان قبلكم»[1] أي اليهود النصارى. صحح النبي ﷺ تلك الزلة ثم أخذ صحابته نحو حنين..

«ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين فأطنبوا السير حتى كانت عشية فحضرت الصلاة عند رسول الله ﷺ فجاء رجل فارس فقال:

يا رسول الله.. إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله ثم قال من يحرسنا الليلة؟

قال أنس بن أبي مرثد الغنوي: أنا يا رسول الله.. قال: فاركب، فركب فرساً له فجاء إلى رسول الله ﷺ..

فقال له رسول الله ﷺ: استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه ولا نغرن من قِبَلِكَ الليلة[2].. فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه فركع ركعتين ثم قال: هل أحسستم فارسكم؟ قالوا: يا رسول الله.. ما أحسسناه.. فثوب[3] بالصلاة فجعل رسول الله ﷺ يصلي وهو يلتفت إلى الشعب حتى إذا قضى صلاته وسلم قال: أبشروا فقد جاءكم فارسكم. فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ فسلم.. فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق (السيرة النبوية ٥-١١٠) حدثني ابن شهاب الزهري عن سنان بن أبي سنان الدؤلي عن أبي واقد الليثي أن الحارث ابن مالك.. الزهري إمام ثقة تابعي معروف مر معنا كثيراً وشيخه تابعي ثقة من رجال الشيخين: التقريب ١-٣٣٤ والبقية صحابة.

(٢) أي احذر أن تسهو فيفاجئنا العدو من الجهة التي تراقبها.

(٣) نادى للصلاة.

حيث أمرني رسول الله ﷺ فلما أصبحت اطلعت الشعبين كليهما فنظرت فلم أر أحداً.

فقال له رسول الله ﷺ هل نزلت الليلة قال: لا إلا مصلياً أو قاضياً حاجة.

فقال له رسول الله ﷺ: قد أوجبت فلا عليك أن لا تعمل بعدها»(١)

بشر النبي ﷺ صاحبه بثواب عظيم لا يضره معه -ربما- أن لا يقوم بشيء من النوافل.. كما بشر أصحابه بالنصر والغنائم الهائلة التي ساقتها هوازن معها بتهور وانتحارية غير معهودة.. ولم تكن هوازن وحدها فقد انضمت إليها قبيلة أخرى.

غطفان وغيرهم ينضمون إلى هوازن

استطاع زعيم هوازن مالك بن عوف أن يحرض من بقي من المشركين حوله على قتال النبي ﷺ والقضاء عليه بعد أن فشلت قريش في ذلك.. فقد «جمع مالك بن عوف النصري:

من بني نصر

وجشم

ومن سعد بن بكر

وأوزاع من بني هلال

---

(١) سنده صحيح مر معنا تحت عنوان: هوازن متوترة وهذا لفظ أبي داود ٣-٩ والحديث من طريق معاوية يعني ابن سلام عن زيد يعني ابن سلام أنه سمع أبا سلام قال حدثني السلولي أبو كبشة أنه حدثه سهل بن الحنظلية أنهم. ومعنى أوجبت: أي فعلت فعلاً يدخلك الجنة.

وناساً من بني عمرو بن عاصم بن عوف بن عامر

وأوزعت معهم الأحلاف من ثقيف

وبنو مالك.

ثم سار بهم إلى رسول الله ﷺ وسار مع الأموال والنساء والأبناء»[1]

ولم تكن غطفان وغيرها أقل انتحارية ولا أقل حماساً في الاستعداد للجيش المسلم فـ:

ماذا أحضر المشركون معهم

لا يصدق المرء ما قام به مالك بن عوف ومن معه من زعماء المشركين في حشدهم لقتال النبي ﷺ فقد شل محمد ﷺ وأصحابه تفكيرهم فأقدموا على إحضار النساء والأطفال وكل حيوان أليف تملكه هوازن وغطفان.. يقول أحد الصحابة المشاركين رضي الله عنهم: «لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمهم وذراريهم ومع النبي ﷺ عشرة آلاف ومن الطلقاء»[2]

إن أشخاصاً فعلوا هذا لا يمكن وصفهم إلا بالتهور.. فالحكيم يخوض الحرب وهو يحسب حسابات النصر والهزيمة معاً.. فإن انتصر فقد حقق ما يريد وإن خسر فلا بد من خاسر والأيام تمنح له أكثر من فرصة.. لكن مالك زعيم هوازن الآن رجل المغامرة والمقامرة.. رجل الفرصة الواحدة.. ربما لثقته ببسالة جيشه.. ولم يكن المسلمون أقل ثقة منهم فقد أعجبتهم كثرتهم حتى خيل لبعضهم أن لا أحد يستطيع أن يهزمهم بعد اليوم..

(١) سنده صحيح وهو حديث ابن إسحاق السابق عن جابر ومن طريقه رواه الحاكم ٣-٥١.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٧٦.

أخبرنا الله سبحانه عن تلك المعنويات فقال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ لدرجة أن «خرج شبان أصحابه وإخفاؤهم حسراً ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح»[1] هذه الكثرة قد ترفع المعنويات لكنها قد تسحب خلفها غروراً يكبد الكثير من الضحايا والخسائر فالنصر من عند الله لكنه لا يتحقق إلا بمجهود بشري أمر الله بتنفيذه بدقة.. ولن ينصر الله جيشاً مسلماً مفرطاً متهاوناً أو مخالفاً للأوامر أو غير مستعد.. لذلك لا بد من تلافي الأخطاء التي تكلف أثماناً باهظة حتى لا يقع الجيش المسلم في فخ غزوة أحد مرة أخرى.. تعالوا نقرأ تفاصيل حنين ففيها الكثير من المفاجآت.. تعالوا إلى:

وادي حنين وأرضها

فهي الآن تحت سيطرة جيش المشركين ويبدو من شهود العيان أن المشركين قاموا بتنظيم ما معهم من قوات وغير قوات في منتهى التهور والدهاء معاً.. بل ربما قاموا باستنساخ خطة النبي ﷺ في غزوة أحد مع اختلاف التضاريس.. فبينما كانت أرض أحد تحتوي جبالاً استغلها النبي ﷺ نجد أرض حنين تحتوي على أودية استغلها قادة هوازن وغطفان بشكل سليم.. أما تخطيط مشركي هوازن وغطفان ومن معهما لتسيير المعركة[2] فهو كالتالي:

قسمت هوازن وغطفان جيشها إلى قسمين:

أولاً- قسم أمامي ومكانه مقدمة بطن الوادي أو لنقل مدخل الوادي

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٠٠.

(٢) هذا الاستنتاج بنيته على مجموع الأحاديث الصحيحة فقط لمجريات المعركة.

وهو خط المعركة الأول وقد قسمه المشركون إلى أربعة صفوف أو أربع مجموعات يقف بعضها خلف بعض وهي:

الصف الأول: الفرسان

الصف الثاني: المقاتلون من الرجال والشباب

الصف الثالث: الأقل قوة وهم النساء والشيوخ والأطفال

الصف الرابع: ومهمته معنوية وهو مكون من الأغنام

الصف الخامس: ومهمته معنوية أيضاً وهو مكون من بقية الأنعام

وقد عبر أحد جنود الإسلام عن إعجابه بتلك الصفوف وهو أنس بن مالك رضي الله عنه فقال: «افتتحنا مكة ثم إنا غزونا حنيناً فجاء المشركون بأحسن صفوف رأيت؛

قل فصفت الخيل

ثم صفت المقاتلة

ثم صفت النساء ومن وراء ذلك

ثم صفت الغنم

ثم صفت النعم»[(١)]

ثانياً- قسم الرماة: وقد تترس هؤلاء بتجاويف الوادي وتعرجاته ويبدو أنهم في مكان مرتفع بحيث يسهل إصابة المسلمين من خلاله وعن ذلك يقول جابر رضي الله عنه:

---

(١) صحيح مسلم ٢-٧٣٦.

«لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في وادي من أودية تهامة أجوف حطوط إنما ننحدر فيه انحداراً.. وفي عماية الصبح وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا»(١)

أما جيش المسلمين فكان كالعادة منظماً ومقسماً يقول أنس: «وعلى مجنبة خيلنا خالد بن الوليد» وهذا يدل على أن هناك جناحاً أيمن وآخر أيسر وقلباً يقوده النبي ﷺ لكن النبي ﷺ كان يشعر ببعض الخوف ليس من الأعداء فما خرج إلا وقد أعد لهم واستعد.. لكن خوفه كان من هذا الجيش العظيم الذي يقوده الآن.. والنبي ﷺ في كل أحواله يتذكر نعمة الله وأنه لا بد من شكره عليها في غمرة الانتصار.. ولا بد أن يتذكر الإنسان في أوج الانتصار أنه لا يزال إنساناً مخلوقاً ولا بد لهذا المخلوق أن يظهر ويبطن الامتنان لخالقه تحت أي ظرف من الظروف.. ها هو ﷺ وبعد كل صلاة فجر يحرك شفتيه فيتساءل الصحابة عن تلك الأحرف التي لا يسمعوها ويشعرون بالشوق إليها.. فيقول الصحابي المهاجر الصابر المجاهد صهيب الرومي رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ: يحرك شفتيه أيام حنين بشيء لم يكن يفعله قبل ذلك: قال فقال النبي ﷺ: إن نبياً كان فيمن كان قبلكم أعجبته أمته فقال لن يروم هؤلاء شيء فأوحى الله إلي أن خيرهم بين إحدى ثلاث: إما أن أسلط عليهم عدواً من غيرهم فيستبيحهم أو الجوع... أو الموت.. فقالوا: أما القتل أو الجوع فلا طاقة لنا به ولكن الموت قال رسول الله ﷺ فمات في ثلاث سبعون ألفاً فقال ﷺ

(١) سنده صحيح رواه إسحاق – السيرة النبوية ٥–١١٠ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله قال.. وعاصم وعبد الرحمن ثقتان وقد مر معنا تخريج السند عند الحديث عن العزى.

فأنا أقول الآن: اللهم بك أحاول وبك أصول وبك أقاتل»[١] «اللهم إنك إن تشأ لا تعبد بعد هذا اليوم»[٢]

بالدعاء كان ﷺ يبدأ معاركه.. لكن قبل بداية المعركة كانت هوازن قد بثت جواسيسها لرصد تحركات وتجهيزات النبي ﷺ..

وقد تمكن أحدهم من أن يندس بين جند النبي ﷺ لكن نظراته وحركاته وربما ألفاظه أفصحت للنبي ﷺ عن هويته فكانت هذه القصة التي تم فيها:

القبض على جاسوس هوازن

يقول الفارس سلمة بن الأكوع والذي كلف بمهمة القبض أو القضاء على الجاسوس:

«غزونا مع رسول الله ﷺ هوازن فبينا نحن نتضحى مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل على جمل أحمر فأناخه ثم انتزع طلقاً من حقبه فقيد به الجمل.. ثم تقدم يتغدى مع القوم وجعل ينظر.. وفينا ضعفة ورقة في الظهر وبعضنا مشاة إذ خرج يشتد.. فأتى جمله فأطلق قيده ثم أناخه.. وقعد عليه فأثاره فاشتد به الجمل فاتبعه رجل على ناقة ورقاء.

قال سلمة: وخرجت أشتد.. فكنت عند ورك الناقة.. ثم تقدمت

---

(١) سنده صحيح رواه الإمام أحمد ٤-٣٢٢: وكيع عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب وعبد الرحمن تابعي ثقة كبير ووكيع إمام معروف وكذلك بقية السند.

(٢) سنده ثلاثي صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٤١٦ حدثنا يزيد بن هارون عن حميد عن أنس قال كان من دعاء النبي (ص) يوم حنين: يزيد وحماد ثقتان معروفان وحميد الطويل سمع من أنس.

حتى كنت عند ورك الجمل.. ثم تقدمت حتى أخذت بخطام الجمل فأنخته.. فلما وضع ركبته في الأرض اخترطت سيفي فضربت رأس الرجل فندر.. ثم جئت بالجمل أقوده عليه رحله وسلاحه.

فاستقبلني رسول الله ﷺ والناس معه فقال: من قتل الرجل؟

قالوا: ابن الأكوع، قال: له سلبه أجمع»[1]

حصل ابن الأكوع على سلب الجاسوس وتخلص المسلمون من شره.. وتهيأ النبي ﷺ ومن معه لقتال المشركين وتواجه الجيشان فـ:

كيف سارت المعركة على أرض حنين

في البداية كانت المواجهة بين الجيشين على أرض الوادي دون تدخل رماة المشركين.. وعندما التحم الجيشان هجم المسلمون ببسالتهم المعروفة فاكتسحوا عدوهم وهزموهم بل وطاردوهم.. وكان فارس الإسلام أبو قتادة أحد هؤلاء حيث يقول رضي الله عنه «خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حنين فلما التقينا كانت للمسلمين جولة.. فرأيت رجلاً من المشركين علا رجلاً من المسلمين فاستدرت حتى أتيته من ورائه حتى ضربته بالسيف على حبل عاتقه.. فأقبل عليّ فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت ثم أدركه الموت فأرسلني»[2] وسقط ذلك المشرك جثة هامدة وهرب المشركون من أرض المعركة فلاحقوهم ولكن يقول البراء: «لما حملنا عليهم انكشفوا فأكببنا على الغنائم»[3] وبدأ الطلقاء يجمعون الغنائم الهائلة التي خلفتها هوازن ومن معها.. ومرة أخرى تطل المأساة برأسها

(١) صحيح مسلم ٣-١٣٧٤.
(٢) صحيح البخاري ٣-١١٤٤.
(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٦٨.

البشع.. مرة أخرى يرتكب بعض المؤمنين الخطأ نفسه.. لكنهم معذورون فهم لم يحضروا و لم يتجرعوا كأس أُحد المر.. مرة أخرى

الغنائم والرماة يهزمون المسلمين

الغنائم هي الغنائم لكن الرماة ليسوا هم الرماة.. إنهم رماة هوازن وهم دقيقوا التصويب.. وعندما وصل الجيش المسلم إلى مرمى تلك السهام وهو يطارد تلك الفلول الهاربة انهمر سيل السهام من تلك التجاويف والمنحنيات.. فقد كان الوادي مفخخاً بالرماة البارعين.. وقد أعان الرماة في مهمتهم ذلك الارتباك الذي أحدثه تكالب الطلقاء على الغنائم وهم لا يعلمون أنها ليست للنهب ولا لمن سبق.. ولك أن تتصور جيشاً قوامه أكثر من عشرة آلاف مقاتل يتدفق مسرعاً مدمراً كالموج خلف عدوه ثم تعترض طريقه مجموعة من أفراده بطريقة غير منظمة لالتقاط غنائم في الطريق.. لقد تحول الجيش مرة أخرى إلى كومة من الفوضى زاد في بعثرتها ذلك الموت المنهمر من سهام المشركين.. يقول البراء نافياً تهمة الفرار عن الرسول عندما سئل: «أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال لكن رسول الله ﷺ لم يفر.. كانت هوازن رماة وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكببنا على الغنائم فاستقبلنا بالسهام»[1] «والله ما ولى النبي ﷺ ولكن ولى سرعان الناس.. فلقيهم هوازن بالنبل والنبي ﷺ على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجامها والنبي ﷺ يقول:

أنا النبي لا كذب أنا بن عبد المطلب»[2]

وكان كثير ممن ولى لم يستعد للحرب استعداداً يليق بها ظناً أن هذا

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٦٨.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٠٥٤.

الجيش الضخم ليس من الممكن هزيمته.. فقد «خرج شبان أصحابه وإخفاؤهم حسراً ليس بسلاح فأتوا قوماً رماة جمع هوازن وبني نصر ما يكاد يسقط لهم سهم.. فرشقوهم رشقاً ما يكادون يخطئون.. فأقبلوا هنالك إلى النبي ﷺ وهو على بغلته البيضاء.. وابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به فترل واستنصر ثم قال:

أنا النبي لا كذب أنا بن عبد المطلب»[1]

..كان هذا الصوت المتأجج حماساً وثباتاً مثيراً.. لكنه لا يجد حوله سوى غبار الطلقاء الذين ولوا وتركوا غبارهم يخنق أرض حنين:

ثم هرب بعدهم الأعراب

يقول أنس رضي الله عنه: «فجعلت خيلنا تلوي خلف ظهورنا فلم نلبث أن انكشفت خيلنا وفرت الأعراب ومن نعلم من الناس»[2] وقد ساهمت منحدرات الوادي في هزيمة المؤمنين ووقوعهم في الفخ المعد لهم حيث يصف جابر ذلك الوادي وما حدث فيه فيقول:

«كان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد وانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد»[3] إلا النبي ﷺ فقد كان كما وصفه البراء بن عازب وهو

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٠٧١.

(٢) صحيح مسلم ٢-٧٣٦.

(٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق السيرة النبوية ٥-١١٠ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر وهذا السند صحيح مر معنا قبل قليل عاصم وعبد الرحمن ثقتان ومعنى: انشمر الناس أي أسرعوا.

يتحدث عن الفرار يوم حنين بقوله: «أشهد على نبي الله ﷺ ما ولى»[1] «كنا والله إذا احمر البأس نتقي به وإن الشجاع منا للذي يحاذي به يعني النبي ﷺ»[2] لقد توجه ﷺ نحو الكفار بمفرده بعد أن «ولى المسلمون مدبرين فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الكفار»[3]

كان مشهد الهروب محزناً لفارس الإسلام أبي قتادة رضي الله عنه الذي يقول عن تلك اللحظات «لما التقينا كانت للمسلمين جولة فرأيت رجلاً من المشركين علا رجلاً من المسلمين.. فاستدرت حتى أتيته من ورائه حتى ضربته بالسيف على حبل عاتقه.. فأقبل عليّ فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت.. ثم أدركه الموت فأرسلني.. فلحقت عمر بن الخطاب فقلت: ما بال الناس؟ قال: أمر الله»[4] ففرار جيش بهذا الحجم شيء لا يصدقه عمر.. «وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمن.. ثم قال: أين أيها الناس؟ هلموا إلي أنا رسول الله.. أنا محمد بن عبد الله.... فلا شيء حملت الإبل بعضها على بعض.. فانطلق الناس إلا أنه قد بقي مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر ومن أهل بيته علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن الحارث والفضل بن العباس وربيعة بن الحارث وأسامة بن زيد وأيمن بن عبيد قتل يومئذ.. ورجل من هوازن على جمل له أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح له طويل أمام هوازن وهوازن خلفه إذا أدرك طعن برمحه وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٠١.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٤٠١.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٩٨ والنسائي في السنن الكبرى ٥-١٩٧ واللفظ له.

(٤) صحيح البخاري ٣-١١٤٤.

فاتبعوه وأبو سفيان بن حرب وبعض النـــاس يشـــمت بالمســلمين»[1].

ويتوقعون بل يتمنون هزيمة ساحقة للمؤمنين.. لكن الـــنبي ﷺ لم يتـــرك مساحة أكبر من هذه لانشراح قلوب هؤلاء الشـــامتين.. فمثـــل هـــذه الحالات الشديدة والحرجة يصعب تجاوزها بأمثال الطلقاء الذين لم يقضوا فترة تربوية كافية على يد النبي ﷺ.. ولهذا صاح الـــنبي عليـــه الســـلام يستدعي البنائين الأوائل للدولة الإسلامية الذين شيدوها بدمائهم وعرقهم وإيمانهم.. صاح بهم وناداهم.. «نادى رسول الله ﷺ: يال المهاجرين يال المهاجرين.... ثم قال يال الأنصار يال الأنصار...»[2]

قال أنس «قلنا: لبيك يا رسول الله»[3]

وحتى يصل الصوت أقصى مدى استعان الـــنبي ﷺ بعمـــه الثابـــت الشجاع العباس بن عبد المطلب الممسك الآن بلجام بغلته عليه الســـلام يواجه بها عاصفة هوازن ونبالها ويقول «إني لمع رســـول الله ﷺ آخـــذ بحكمة بغلته البيضاء قد شجرتها بها.. وكنت امـــرءاً جســـيماً شـــديد الصوت.. ورسول الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من الناس: أين أيهـــا الناس؟ فلم أر الناس يلوون على شيء.. فقال: يا عباس اصرخ: يا معشر الأنصار يا معشر أصحاب السمرة.. فأجابوا لبيك لبيك.. فيذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر على ذلك.. فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه.. ويأخـــذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله فيؤم الصوت حتى ينتهي إلى

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق السيرة النبوية ٥-١١٠ حدثني عاصم بن عمر بن قتـــادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر وهذا السند صحيح مر معنا قبل قليل عاصم وعبد الرحمن ثقتان.

(٢) درجته: حديث صحيح رواه مسلم ٢-٧٣٦.

(٣) درجته: حديث صحيح رواه مسلم ٢-٧٣٦.

رسول الله ﷺ.. حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس.. فاقتتلوا وكانت الدعوى أول ما كانت: ياللأنصار.. ثم خلصت أخيراً ياللخزرج.. وكانوا صبراً عند الحرب فأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون فقال: الآن حمي الوطيس»[1] والجلاد والقتال واستعر كالبركان.. وقد كان الصحابة الذين حضروا المعركة ورووا أحداثها قليلين وهم كالغصن وسط تلك الغابة التي تجاوزت العشرين ألف مقاتل من الطرفين.. لذلك كان قرب معظمهم من النبي ﷺ أثناء المعركة نادراً وللحظات.. فكان كل صحابي يروي المشهد الذي رآه والحالة التي كان عليها النبي ﷺ أثناء مروره فقط.. أحد هؤلاء الصحابة مر بالنبي ﷺ أثناء الهزيمة فرأى صحابياً يدعى زيد مع النبي ﷺ فوصف ذلك المشهد بقوله «إن رسول الله ﷺ يوم حنين انكشف الناس عنه فلم يبق معه إلا رجل يقال له زيد.. آخذ بعنان بغلته الشهباء وهي التي أهداها له النجاشي.. فقال رسول الله ﷺ: ويحك يا زيد ادع الناس فنادى: أيها الناس هذا رسول الله يدعوكم فلم يجب أحد عند ذلك فقال: ويحك حض الأوس والخزرج فقال: يا معشر الأوس والخزرج.. هذا رسول الله يدعوكم فلم يجبه أحد عند ذلك.. فقال: ويحك ادع المهاجرين فإن لله في أعناقهم بيعة.. فحدثني بريدة أنه أقبل منهم ألف قد طرحوا الجفون وكسروها ثم أتوا رسول الله ﷺ حتى فتح عليهم»[2]

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق السيرة: ٥-١١٠ حدثني الزهري عن كثير بن العباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب قال: وهذا السند صحيح الزهري تابعي إمام ثقة أشهر من أن يعرف وشيخه صحابي صغير.

(٢) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٤١٧ حدثنا الفضل بن دكين قال حدثنا يوسف بن صهيب عن عبد الله بن بريدة مرسلاً وآخره متصل وليس كما في المطالب حيث وهم =

وأحد الصحابة يقول: «انطلق الناس إلا أن مع رسول الله ﷺ رهطاً من المهاجرين والأنصار وأهل بيته غير كثير وفيمن ثبت معه ﷺ أبو بكر وعمر ومن أهل بيته علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وابنه الفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن عبيد وهو ابن أم أيمن وأسامة بن زيد»(١)

هذا ما يحدث في المقدمة أما في المؤخرة فقد كانت هناك امرأة ثابتة تفوقت على كثير من المحاربين الرجال.. إنها المرأة التي سجلت حضورها لمعظم معارك النبي ﷺ «أم أنس بن مالك» أو أم سليم أو زوجة أبي طلحة المقدام.. كانت رضي الله عنها تتأهب بخنجر للمشركين بل لمن يولي هارباً من الطلقاء.. يقول ابنها «أنس: إن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجراً فكان معها فرآها أبو طلحة فقال:

يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر.. فقال لها رسول الله ﷺ: ما هذا الخنجر؟ قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه فجعل رسول الله ﷺ يضحك.. قالت يا رسول الله: اقتل من بعدنا من الطلقاء انهزموا بك فقال رسول الله ﷺ: يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن»(٢)

فقد نظم ﷺ أصحابه من جديد ثم هجم بهم على المشركين وهب علي ابن أبي طالب وشجاع آخر من الأنصار نحو حامل الراية حتى استطاعوا:

= الهيثمي رحمه الله فوصله فالذي وصله هو الروياني ١-٧٣ حدثنا محمد بن إسحاق حدثنا عبيد الله بن موسى أنا يوسف به موصولاً.

(١) حديث صحيح مر معنا وهو عند ابن إسحاق.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٤٤٢.

إسقاط راية المشركين

فقد كان «رجل من هوازن على جمل له أحمر في يده راية سوداء في رأس رمح طويل له أمام الناس وهوازن خلفه فإذا أدرك طعن برمحه وإذا فاته الناس رفعه لمن وراءه فاتبعوه قال جابر بن عبد الله بينا ذلك الرجل من هوازن صاحب الراية على جمله ذلك يصنع ما يصنع إذا هوى له علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار يريدانه.. فيأتيه علي من خلفه فضرب عرقوبي الجمل فوقع على عجزه.. ووثب الأنصاري على الرجل فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه.. فانعجف عن رحله واجتلد الناس.. فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسرى مكتفين عند رسول الله ﷺ»(١)

فعاد النصر إلى أصحابه و:

نزلت المعجزة

يقول أحد الذين رأوها: سلمة بن الأكوع «تقدمت فأعلو ثنية فاستقبلني رجل من العدو فأرميه بسهمه فتوارى عني فما دريت ما صنع.. ونظرت إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى.. فالتقوا هم وصحابة النبي ﷺ فولى صحابة النبي ﷺ وأرجع منهزماً وعلي بردتان متزراً بإحداهما مرتدياً بالأخرى.. فاستطلق إزاري فجمعتهما جميعاً ومررت على رسول الله ﷺ منهزماً وهو على بغلته الشهباء.. فقال رسول الله ﷺ: لقد رأى ابن الأكوع فزعاً.. فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن

(١) سنده صحيح مر معنا رواه ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن ابن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله: السيرة النبوية ٥-١١٣ ومن طريقه الإمام أحمد ٣-٣٧٦: عاصم إمام ثقة وعبد الرحمن تابعي ثقة.

البغلة.. ثم قبض قبضة من تراب من الأرض.. ثم استقبل بـــه وجـــوههم فقال: شاهت الوجوه

فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضـــة فولـــوا مدبرين فهزمهم الله عز وجل»[1] وقد اختصر سلمة أحداثاً رآها غـــيره قبل أن يقول النبي ﷺ

شاهت الوجه

فالعباس كان هناك يرى ويقاتل ويروي تفاصيلاً فاتت سلمة فيقول «لزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلـــم نفارقه.. ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بـــن نفاثـــة الجذامي.. فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مـــدبرين فطفـــق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار قال عباس وأنا آخذ بلجام بغلـــة رسول الله ﷺ: أكفها إرادة أن لا تسرع.. وأبو سفيان ابن الحارث آخذ بركاب رسول الله ﷺ.. فقال رسول الله ﷺ: أي عباس نـــاد أصـــحاب السمرة.. فقال عباس وكان رجلاً صيتاً: فقلت بـــأعلى صـــوتي: أيـــن أصحاب السمرة.. فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقـــر على أولادها فقالوا: يا لبيك يا لبيك.. فاقتتلوا والكفـــار والـــدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار.. ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج.. فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج.. يا بني الحارث بن الخزرج.. فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلتـــه كالمتطـــاول عليها إلى قتالهم.. فقال رسول الله ﷺ: هذا حين حمي الوطيس

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٠٢.

ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار

ثم قال: انهزموا ورب محمد... فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى.. فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى أحدهم كليلاً وأمرهم مدبراً»[1] حتى انقشع الغبار فإذا ساحة الحرب أكوام من القتلى و«الأسرى مكتفين عند رسول الله ﷺ»[2] أما الغنائم فهائلة لا تعد ولا تحصى.. إنها ثروة هوازن وما تملك كاملة وثروة من جاء معها من المشركين.. تحولت إلى أيدي المسلمين بعد أن كادت تضيع منهم ويضيع معها ما هو أثمن.. ليس هناك ألفاظ تعبر عما جرى مثل كلمات الله ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾.

.. وبعد أن هدأ كل شيء «التفت رسول الله ﷺ إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.. وكان ممن صبر يومئذ مع رسول الله ﷺ.. وكان حسن الإسلام.. حين أسلم وهو آخذ بثفر بغلته فقال من هذا؟ قال: أنا ابن أمك يا رسول الله»[3]. يقول أبو قتادة:

ثم إن «الناس رجعوا وجلس النبي ﷺ فقال: من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه.. فقمت فقلت: من يشهد لي.. ثم جلست، ثم قال: من قتل

(١) صحيح مسلم ٣-١٣٩٨.

(٢) آخر حديث ابن إسحاق الصحيح الماضي.

(٣) آخر حديث ابن إسحاق الصحيح الماضي.

قتيلاً له عليه بينة فله سلبه.. فقمت فقلت: من يشهد لي.. ثم جلست.. ثم قال الثالثة مثله.. فقمت.. فقال رسول الله ﷺ: ما لك يا أبا قتادة؟ فاقتصصت عليه القصة فقال رجل: صدق يا رسول الله وسلبه عندي فأرضه عني.. فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لا ها الله إذا لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ﷺ يعطيك سلبه.. فقال النبي ﷺ: صدق فأعطه. فبعت الدرع.. فابتعت به مخرفاً في بني سلمة.. فإنه لأول مال تأثلته في الإسلام»(١)

هذه هي سنة النبي ﷺ في سلب المقتول وهي غير الغنائم.. فالغنائم تم توزيعها من قبل الله سبحانه الذي قال: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أما السلب فهو أسلحة وأمتعة المقاتل المشرك الشخصية وهو من حق من يقتله من المؤمنين أثناء المعركة وللسلب قيمة معنوية تحفيزية على الإقدام أثناء المعركة.. يقول ﷺ: «من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه»(٢)

ولما سمع الصحابة هذا الكلام منه ﷺ جاء أبو طلحة لأخذ ما يستحق.. يقول أنس بن مالك رضي الله عنه «قال رسول الله ﷺ يومئذ: من قتل كافراً فله سلبه.. فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلاً فأخذ أسلابهم»(٣)

أما الغنائم الهائلة فلم يقسمها النبي ﷺ حتى الآن فتوزيعها ليس في

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٤٤.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٣٧١.

(٣) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٤١٩ حدثنا عفان قال حدثنا حماد بن سلمة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك ورواه غيره من طرق عن حماد بن إسحاق بن أبي طلحة تابعي ثقة حجة: التقريب ١-٥٩.

قائمة اهتماماته الآنية.. فهناك أخطار ملحة تحتاج إلى حل عاجل جداً.. هناك الطائف الذي شارك زعماؤه ورجاله في هذه المعركة ثم لجأوا بعد الهزيمة إليه.. وهم الآن في حصن منيع يحتاج إلى تفكير عسكري ناضج.. وهناك الفلول المنهزمة من هوازن وغطفان ومن معهم وهي تحتاج إلى معالجة جادة.. فالظروف قد تغيرت ومكة قد فتحت ومعظم العرب الآن تحت لواء التوحيد.. لذلك قرر ﷺ:

حبس الغنائم في الجعرانة

فنادى رسول الله ﷺ أحد الصحابة واسمه: بديل بن ورقاء فجعله أميراً على الغنائم وأمره أن يأخذها إلى الجعرانة وهو مكان قريب من مكة لكنه خارج الحرم مثل التنعيم.. يقول بديل عن مهمته: «إن النبي ﷺ أمر بديلاً أن يحبس السبايا والأموال بالجعرانة حتى يقدم عليه فحبسه»[1] فامتثل بديل ثم تفقد النبي ﷺ جيشه ودفن من استشهد منهم.. واطمأن على إصابات أفراده خاصة قواده المصابين وكان أحد القادة الذين أصيبوا خالد بن الوليد.. وهو قائد قسم من خيل جيش المسلمين فجاء ﷺ بنفسه وسأل واطمأن على إصابة خالد بن الوليد

يقول أحد الصحابة: «إن خالد بن الوليد بن المغيرة جرح يومئذ وكان على الخيل خيل رسول الله ﷺ.. قد رأيت رسول الله ﷺ بعد ما هزم الله الكفار ورجع المسلمون إلى رحالهم يمشي في المسلمين ويقول من يدل على رحل خالد بن الوليد.. فمشيت بين يديه وأنا محتلم أقول من يد

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البخاري في التاريخ الكبير ٢-١٤١ والطبراني ٢-٣٠ حدثني ابن أبي عبلة عن ابن بديل بن ورقاء عن أبيه. وشيخه تابعي ثقة والبقية صحابة واسم ابن أبي عبلة: إبراهيم وهو من رجال الشيخين: التقريب ١-٣٩.

على رحل خالد حتى حللنا على رحله.. فإذا خالد بن الوليد مستند إلى مؤخرة رحله فأتاه رسول الله ﷺ فنظر إلى جرحه ونفث فيه رسول الله ﷺ»[1].. وقد أصيب غير واحد من الصحابة منهم: عبد الله بن أبي أوفى.. حيث يقول أحد الذين رأوا إصابته: «رأيت بِيَدِ ابن أبي أوفى ضربة.. قال ابن أبي أوفى: قد ضربتها مع النبي ﷺ يوم حنين»[2]

وهناك إصابات أخرى عديدة ألمت ببعض الصحابة أثناء المعركة.. لكن هناك ما هو أكثر من تفقد الجرحى والصلاة على الشهداء.. فقد كان الإسلام على تلك الساحة حاضراً بكليته بسماحته وعدله.. فعلى تلك الأرض وبعد انتهاء معركة حنين.. وبينما كان النبي ﷺ يتفقد جرحاه أحضر بعض الصحابة رجلاً من الصحابة أنفسهم ابتلى بحب الخمر فشربها فسكر وهو في ظرف تتجول فيه المنايا بين الجنود.. ولما مثل بين يديه ﷺ وتأكد من ارتكابه لجريمة الشرب أمر بـ:

إقامة الحد على شارب الخمر

يقول أحد الصحابة: «رأيت النبي ﷺ عام حنين سأل عن رحل خالد ابن الوليد فجريت بين يديه أسأل عن رحل خالد بن الوليد حتى أتاه جريحاً وأتي النبي ﷺ بشارب فقال: اضربوه.. فضربوه بالأيدي والنعال وأطراف الثياب.. وحثوا عليه من التراب ثم قال النبي ﷺ: بكتوه فبكتوه

(١) سنده صحيح رواه الإمام أحمد ٤-٨٨: حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال وكان عبد الرحمن بن الأزهر يحدث وعبد الرزاق هو الإمام الثقة صاحب المصنف وشيخه معمر ثقة ثبت فاضل معروف من رجال الشيخين التقريب ٢-٢٦٦ والزهري من أئمة التابعين الثقات وشيخه صحابي.. وبعد كلمة جرحه «قال الزهري: وحسبت أنه قال» وجاء عند الحميدي بسند صحيح وعند غيره الجزم بها.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٦٨.

ثم أرسله»[1] وقد طهر من ذنبه الذي ارتكبه لكي يعــود مــن جديــد لمشاركة إخوته في جهادهم ونشر دين ربهم.. فالمسلم لا يدع للمعصــية فرصة لإعاقته عن البذل في سبيل الله والإبداع في مرضاته.. هي كبوة أو كبوات لكنها ليست أغلالاً إلا عند من يجهل أعماق هذا الدين وآفاقه.. أو عند من لا يرى في الآخرين سوى الزوايا المعتمة متغاضياً عــن تلــك الجوانب الوضاءة المبدعة ومتغاضياً عن تلك العتمة القابعة في أعماقه..

نهض ذلك الصحابي مع إخوته خلف نبيهم ﷺ الذي أمر بالتوجــه لــ:

حصار الطائف

توجه ﷺ إلى الطائف لحصاره في الوقت الذي بعث فيه أبــا عــامر الأشعري لملاحقة مجموعة من المقاتلين كانوا تحت توجيه الشاعر الجاهلي الكبير دريد بن الصمة في معركة سميت:

غزوة أوطاس. وقتل دريد بن الصمة

حيث أوكل قيادة هذه السرية إلى أبي عامر الأشعري وذلك «لما فرغ النبي ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس فلقي دريد بــن الصمة فقتل دريد وهزم الله أصحابه قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر فرمي أبو عامر في ركبته.. رماه جشمي بسهم فأثبته في ركبته.. فانتهيت إليه فقلت يا عم من رماك؟

فأشار.. فقال: ذاك قاتلي الذي رماني فقصدت له فلحقته.. فلمــا

(١) سنده صحيح رواه الشافعي في مسنده ١-٢٨٥ وغيره.. أخبرنا معمر عن الزهري عــن عبد الرحمن بن أزهر قال: وهذا السند صحيح وهو السند الذي مر معنا قبل قليل.

رآني ولى فاتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحي؟ ألا تثبت؟ فكف فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته.. ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك.. قال: فانزع هذا السهم.. فنزعته فنزا منه الماء.. قال: يا ابن أخي أقرئ النبي ﷺ السلام وقل له: استغفر لي واستخلفني أبو عامر على الناس فمكث يسيراً.. ثم مات.. فرجعت فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مرمل وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبيه.. فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقلت له: قال: قل له: استغفر لي.. فدعا بماء فتوضأ ثم رفع يديه فقال: اللهم اغفر لعبيد أبي عامر ورأيت بياض إبطيه ثم قال: اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس.

فقلت: ولي.. فاستغفر فقال: اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه.. وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً»[١]

في تلك الأثناء كان الطائف محاطاً بالقوات الإسلامية المنتصرة المتوثبة وقد طال الحصار إلى مدة أحصاها أحد المقاتلين بقوله: «انطلقنا إلى الطائف فحاصرناهم أربعين ليلة»[٢] وهم في حصنهم المنيع فلم يستطع المسلمون اقتحامه وفتحه.. وقد استخدم النبي عليه الصلاة والسلام كافة المحفزات على الفتح لدى جنوده حسب الوسائل المتاحة.. ولم يكن هناك أفضل من الرمي بالسهام بعد اختباء أهل الطائف خلف حصنهم.. يقول أحد الصحابة الذين استجابوا «حاصرنا مع رسول الله ﷺ حصن الطائف فسمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٧١.

(٢) صحيح مسلم ٢-٧٣٦.

من بلغ بسهم في سبيل الله فهو له عدل محرر[1] فبلغت يومئذ بستة عشر سهماً فسمعت رسول الله ﷺ يقول: من رمى بسهم في سبيل الله عز وجل فهو له درجة في الجنة.. ومن شاب شيبة في الإسلام كانت به نوراً يوم القيامة.. وأيما رجل مسلم أعتق رجلاً مسلماً فإن الله عز وجل جاعل وفاء كل عظم من عظامها محرر من النار وأيما امرأة مسلمة أعتقت فإن الله عز وجل جاعل وفاء كل عظم من عظامها محرر من النار»[2]

كان النبي ﷺ يجفف منابع الرق حول أسوار الطائف بل داخل أسوار الطائف بعد أن فشلت الأسهم فلم تُجْدِ شيئاً ورد أهل الطائف عليها فاستشهد صحابيان جليلان وسقطا دون أسوار الطائف المنيعة.. مما حدا بالنبي ﷺ إلى استخدام أساليب جديدة في حربه مع مشركي الطائف.. من هذه الأساليب أسلوب نقل الحرب إلى داخل أسوار الطائف دون تكبد خسائر أو حتى أدنى مشقة وذلك عن طريق التحريض على التمرد والعصيان العام وذلك بتقديم إغراءات لمن يقوم به..

التمرد والفرار من أسوار الطائف

هذا العرض يستفيد منه أناس لهم ثقلهم في حرب المدن وهم الأرقاء.. وهو عرض يواصل تجفيف الرق داخل الطائف نفسها.. فمن هرب من ديار الشرك من العبيد إلى معسكر المسلمين فهو حر كما حدث

(١) أجر عتق رقبة

(٢) سند صحيح رواه الطيالسي ١-١٥٧ حدثنا هشام عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة اليعمري عن أبي نجيح السلمي قال ورواه غير الطيالسي من الطريق نفسه.. وهشام الدستوائي ثقة ثبت من رجال الشيخين: التقريب ٢-٣١٩ وشيخه إمام ثقة معروف وسالم تابعي ثقة: التقريب ١-٢٧٩ وكذلك شيخه معدان ٢-٢٦٣.

قبل عامين في الحديبية.. وقد استجاب ثلاثة وعشرون من أرقاء الطائف فهربوا وتدلوا كالفرح من تلك الأسوار.. أبرزهم رجل يدعى أبو بكرة الذي «نزل إلى النبي ﷺ ثالث ثلاثة وعشرين من الطائف»[1] حصل المسلمون على بعض ما أرادوا وانقذف الرعب في قلوب المشركين وأدركوا أن الفتح إن لم يحدث اليوم فهو قادم لا محالة.. أما في معسكر المسلمين فالدولة الإسلامية كانت تمارس أنشطتها خلف أسوار الطائف وكأن الدولة ليست في حالة حرب.. كان ﷺ يمارس دوره التربوي حتى في ظروف الحرب فالقائد الناجح لا يتخلى عن مبادئه ومرتكزاته.. هي زاده وجراب زاده..

كان ﷺ يصحب زوجاته في تلك المعركة وبينما هو متوجه نحو خباء زوجته أم سلمة سمع كلمة أزعجته فبادر إلى إصلاحها وإصلاح قائلها وسامعها أيضاً.. فقد كان ضمن جيش المسلمين شخص لم يتحدد جنسه حتى الآن هل هو ذكر أم أنثى وكانوا يطلقون على هذا النوع من الناس لقب: (المخنث) وكان هذا الشخص جالساً عند أم سلمة ويتحدث إلى أحد الصحابة بلهجة الرجال الذين يميلون إلى النساء.. كان يتكلم بطريقة فيها من قلة الذوق أمام النساء ما أغضب النبي ﷺ حيث تقول «أم سلمة رضي الله عنها: دخل علي النبي ﷺ وعندي مخنث فسمعه يقول لعبد الله ابن أمية يا عبد الله أرأيت إن فتح الله عليكم الطائف غداً فعليك بابنة غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان»[2] فهو يصف امرأة بعينها ويسميها ويغري أحد المسلمين بجسدها الممتلئ حتى تثني بطنها من الأمام فأصبح أربعة أحزمة دهنية لدرجة أن بإمكانه رؤية أطراف تلك الأحزمة الدهنية

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٧٣.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٧٢.

من خلفها لأنها تطل من جوانبها.. أربعة من الجانب الأيمن ومثلها من الجانب الأيسر.. عندها «قال النبي ﷺ لا يدخلن هؤلاء عليكن»[(١)].. فهذا الشخص يبدو أنه خبير بالطائف أو من أهلها وبدلاً من أن يكشف للمسلمين نقاط ضعف فيها تؤدي إلى فتحها.. أشغل نفسه بكشف العورات وإثارة غرائز المجاهدين.. ويبدو أنه يجهل أحكام الجهاد الصارمة وحرمة أعراض الأعداء حتى في حالة السبي وأن هناك أحكاماً للنصر يرجع فيها للنبي ﷺ.. فليس هناك إباحية أو همجية أو اغتصاب في غمرة الانتشاء بالنصر.. هناك انضباط وخوف من الله.. فالمسلم لم يخرج طلباً للنساء ولا للمال والشهرة بل خرج طلباً للموت في سبيل الله أن تكون كلمة الله هي العليا.. أما من يتهور في انتهاك الحرمات بدعوى أن أولئك النساء كافرات فهو يرتكب حماقة وجريمة خلقية تستحق اللعن.. ولما حاول أحد المسلمين فعل ذلك مع امرأة حامل غضب النبي ﷺ غضباً كاد الرجل أن يحترق به وذلك لما «أتى بامرأة مجح على باب فسطاط فقال: لعله يريد أن يلم بها فقالوا: نعم.. فقال رسول الله ﷺ: لقد هممت أن ألعنه لعناً يدخل معه قبره.. كيف يورثه وهو لا يحل له كيف يستخدمه وهو لا يحل له»[(٢)]

لم يفلح ذلك الشخص بنصيحته بل خسر ثقة النبي ﷺ وأصحابه.. وخسر توقعاته بفتح الطائف فقد طالت مدة الحصار ولم تفلح جهود المسلمين في اقتحامها.. لذلك قرر ﷺ العودة إلى الجعرانة حيث تقبع الغنائم والسبي لكن بعض الصحابة تضايق من العودة دون دخول الطائف في الإسلام مما جعلهم يعترضون على العودة ويصرون على القيام بـ

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٧٢.

(٢) صحيح مسلم ٢-١٠٦٥.

آخر محاولة لفتح الطائف

وذلك «لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف لم ينل منهم شيئاً

قال: إنا قافلون إن شاء الله.. فثقل عليهم وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟

فقال: اغدوا على القتال.. فغدوا.. فأصابهم جراح فقال: إنا قافلون غداً إن شاء الله.. فأعجبهم.. فضحك النبي ﷺ»[1] ثم أمر أصحابه بـ

العودة إلى الجعرانة

حيث تحرك الجيش تاركاً مشركي الطائف في حيرة من أمرهم فالشرك يذبل يوماً بعد يوم ومحمد يملك الجزيرة شبراً فشبر.. وشمس التوحيد تشرق على الجميع إلا عليهم.. وأعوانهم وعضدهم أسرى في أيدي المسلمين قد تكوموا في الجعرانة كالذل.. نساء وأطفال ورجال وشيوخ وأموال وبهائم لا تعد ولا تحصى.. ورغم عجز المسلمين عن فتح الطائف إلا أنهم لم يعجزوا عن إيقاظ الإيمان المنطمر في أعماق أهل الطائف تحت أرتال العادات والتقاليد الجاهلية.. أما هوازن فقد خسرت كل شيء إلا قلب النبي ﷺ.. كان أفسح من حنين لهم ولأبنائهم ونسائهم وأطفالهم.. لقد كان ﷺ أرحم بهؤلاء من قادتهم الذين ساقوهم وخاطروا بهم.. بل كان أرحم بهم من أنفسهم.. فعندما وصل ﷺ إلى الجعرانة لم يبادر إلى تقسيم شيء من الغنائم أو السبي على أصحابه.. فقد كان

(١) صحيح البخاري: ٤-١٥٧٢.

النبي يريد رد الغنائم على هوازن

ولذلك انتظر عودهم على أرض الجعرانة أياماً قال عنها أحد الصحابة «وكان النبي ﷺ انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف»[1] ولما لم يعودوا قام عليه السلام بـ:

توزيع الغنائم

وقد كانت طريقة النبي ﷺ في توزيع الغنائم على غير المعتاد.. كانت طريقة تناسب هذه الظروف الجديدة تماماً.. فقد دخل في الإسلام أعداد لا حصر لها ما بين يوم وليلة.. وهذه النوعية من الناس تحتاج إلى من يعمق جذور الإيمان الغضة الطرية في داخلها لأنها عرضة للتلف في العراء.. وقد تبين ذلك قبل أيام على أرض حنين عندما هرب الأعراب والطلقاء ومن أسلم حديثاً وتركوا النبي ﷺ على أرض المعركة.. كانت كثرتهم غير مجدية بل ضارة ومعيقة.. ومن أجل هذا انسابت الغنائم بشكل أثار استغراب الكثيرين لكنه بُعْد نظر النبي ﷺ وسعة أفقه.. فرغم أن تلك الغنائم كانت هائلة جداً وكثيرة جداً إلا أن شيئاً منها لم يذهب إلى أحق الناس بها وهم الأنصار.. كانت غنائم حنين تقييماً للإيمان والمؤمنين لا مكافأة هذه المرة.. كان توزيعها نقلة نوعية في طريقة الدعوة عند ما تتهاوى الدول أمام زحف الدولة الإسلامية.. لأن الشدة وحدها توجد تلك النوعيات الفذة والممتازة من الرجال أما الرخاء فحلفاء الرخاء والرفاه كثيرون.. بدأ ﷺ بتوزيع الغنائم فهجم الأعراب الذين هربوا من المعركة عليه بأسلوب فوضوي قال عنه أحد الذين كانوا برفقته ﷺ في

---

(١) صحيح البخاري ٢-٩٢٠.

تلك اللحظات: «إنه بينما يسير هو مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من حنين فعلقه الناس يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه فوقف النبي ﷺ فقال: أعطوني ردائي لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً»[1] ثم حذرهم عليه السلام من الغلول وهو الاختلاس من الغنائم دون إذن منه فكانت هذه القصة الأنصارية:

قصة الأنصاري وخيوط الشعر

وذلك بعد أن: «اتبعه الناس يقولون يا رسول الله اقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم حتى ألجؤوه [إلى سمرة].. فاختطفت الشجرة عنه رداءه فقال: ردوا علي ردائي أيها الناس فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نعماً لقسمتها عليكم ثم ما لقيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً.. ثم قام إلى جنب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصبعيه ثم رفعها فقال: أيها الناس إنه والله ليس لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم.. فأدوا الخياط والمخيط فإن الغلول يكون على أهله عاراً وناراً وشناراً يوم القيامة.

فجاءه رجل من الأنصار بكبة من خيوط شعر فقال: يا رسول الله.. أخذت هذه الكبة أعمل بها برذعة بعير لي دبر.. قال: أما نصيبي منها فلك فقال: إنه إذا بلغت هذه فلا حاجة لي بها ثم طرحها من يده»[2].. فلا حاجة

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٠٣٨.

(٢) سنده حسن رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري ٢-١٧٥ والبيهقي في الكبرى ٦-٣٣٦ وغيرهما قال حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال وهو سند حسن مشهور والزيادة لأحمد ٢-١٨٤.

له في إفساد جهده وجهاده من أجل كنوز الدنيا فكيف يفسده من أجل كومن من شعر تافه رخيص.. هذا هو الجيش الإسلامي المنطلق من الكتاب والسنة لا من ثكنات التشريعات العسكرية البشرية التي عجزت عن ضبط جنودها عن النهب والسلب والاغتصاب وقائمة شنيعة من جرائم الحرب بل عجزت عن ضبطهم حتى ضد أنفسهم.. أما محمد عليه السلام فبكلمة واحدة تم كل شيء لأنه لا يخاطب جنوده من الخارج بل يشيدهم من الداخل.. هو صوت دائم في أعماقهم يجذر خوف الله قبل كل شيء فيهم.. وهاهو صوته الذي لا يخبو ينادي من أجل ذلك رجالاً ليس لهم تاريخ ولا رصيد حتى الآن في الإسلام.. بل إن بعضهم سخر كل ما يملك من أجل القضاء على هذا الدين.. ومع ذلك وفي أصفى لحظات الانتقام يطل محمد ﷺ رحمة وعطاء أخجلهم طوال حياتهم وعرفهم بربهم تعريفاً جديداً لا تحجبه الأحقاد.. استدعى ﷺ أبا سفيان بن حرب وعيينة بن حصن والأقرع ابن حابس فحولهم إلى أثرياء في لحظات كان الجميع يترقب أن يكون الثراء من نصيب أبي بكر أو عمر أو علي أو سعد بن عبادة أو أسيد بن حضير أو غيرهم من عمالقة الأنصار والمهاجرين..

استدعى ﷺ أولئك الرجال فـ «أعطى النبي ﷺ من غنائم حنين الأقرع بن حابس مائة من الإبل وعيينة بن حصين مائة من الإبل فقال ناس من الأنصار: يعطي رسول الله ﷺ غنائمنا ناساً تقطر سيوفهم من دمائنا أو تقطر سيوفنا من دمائهم فبلغه ذلك»[1]

كان هذا الكلام صادراً من بعض فتيان الأنصار المتحمسين والذين

---

(١) سنده صحيح رواه الإمام أحمد ٣-٢٠١ ثنا يزيد بن هارون أنا حميد عن أنس وهذا سند ثلاثي صحيح. يزيد ثقة مر معنا وشيخه تابعي ثقة سمع من أنس.

يرون في الغنائم أوسمة للمحاربين ومكافأة لهم والأقرع وعيينة وأبو سفيان وأمثالهم لا يستحقون مثل هذا التكريم نظراً لتاريخهم البعيد وحتى القريب حيث فروا من أرض المعركة.. هذه الكلمات غير المتزنة والتي ينقصها التروي وبعد النظر وجدت خصوبة لدى أحد المتهورين من فتيان الأنصار فأطلق كلمات غيرت وجه النبي ﷺ وعكرت صفو انتصاره بعد أن نقلها له أحد الصحابة الذي يروي ما حدث من:

الاحتجاج على توزيع الغنائم

فيقول: «لما قسم النبي ﷺ قسمة حنين قال رجل من الأنصار ما أراد بها وجه الله»[1] وذلك حين «آثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة وأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وأعطى عيينة مثل ذلك وأعطى أناساً من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة فقال رجل والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها وما أريد فيها وجه الله.. فقلت: والله لأخبرن رسول الله ﷺ.. قال: فأتيته فأخبرته بما قال.. فتغير وجهه حتى كان كالصرف[2].. فغضب من ذلك غضباً شديداً واحمر وجهه حتى تمنيت أني لم أذكره له.. ثم قال: فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله.. ثم قال: يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر.. قلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثاً»[3]

لم يكن ذلك الأنصاري الطائش وحده الذي تطاول على النبي ﷺ واتهمه بعدم العدل فإن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه سمع ورأى متهوراً آخر يتهم النبي ﷺ ويعلن عن

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٧٦ والزيادة له أيضاً.

(٢) الصرف شجر أحمر.

(٣) صحيح مسلم ٢-٧٣٩.

وهي طائفة الخوارج الذين غرهم كثرة عبادتهم فتوجهوا نحو عيوب الناس وتناسوا عيوبهم فجرهم ذلك إلى قذف التهم يمنياً وشمالاً.. وتطاولوا فتسوروا القلوب واقتحموا النوايا ورسموها لا كما هي بل كما يريـــدون وكما تشكلت في مخيلتهم المريضة.. والنوايا حصون منيعة لم يجرؤ الـــنبي ﷺ على اقتحامها يوماً إلا بوحي يحمله جبريل.. أما هؤلاء الخوارج فتطوعوا لاقتحام واكتشاف ما عجز عنه النبي ﷺ.. بل تجرأ أحدهم اليوم علـــى تصحيح الوحي ذاته ونقد النبوة.. يقول أبو سعيد رضي الله عنه: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم فقال:

يا رسول الله اعدل

فقال: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه.. فقال: دعـــه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مـــع صـــيامهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم.. يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء.. ثم ينظر إلى رصافه فما يوجد فيه شيء، ثم ينظر إل نضيه وهو قدحه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظـــر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء.. قد سبق الفرث والدم آيتهم رجـــل أســـود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر ويخرجون على حين فرقة من الناس.

قال أبو سعيد فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ»[1]

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٣٢١.

عن هؤلاء الخوارج الذين ذكر النبي ﷺ مزيداً من صفاتهم حتى لا ينخدع الناس بكثرة ركوعهم وسجودهم وصيامهم وقراءتهم للقرآن ولا بكثرة حلقهم لرؤوسهم.. يقول عليه الصلاة والسلام:

«يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية.. لا يجاوز إيمانهم حناجرهم فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة»(١) «قيل ما سيماهم قال سيماهم التحليق»(٢) أي حلق شعر الرأس.. لكن هذا الخارجي يعتبر شاذاً اليوم أمام الحضور الغامر والجميل لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.. أما غير الشاذ على ساحة الجعرانة فهو إحساس بعض شباب الأنصار ببعض الغضاضة من ذهاب الغنائم إلى رجال لم يعرفوا الإسلام إلا منذ أيام عندما قام ﷺ «فقسم في المهاجرين والطلقاء و لم يعط الأنصار شيئاً فقالت الأنصار إذا كانت الشدة فنحن ندعى وتعطى الغنائم غيرنا»(٣).. أحس ﷺ بعتاب الأنصار وحبهم يتمددان في صدره فأحب أن يقدم لهم كنوزاً لا يستحقها سواهم.. ومجداً لا يطاوله سواهم في الوقت الذي يفرح غيرهم بخشاش الأرض.. وذلك «لما قسم رسول الله ﷺ السبي بالجعرانة أعطى عطايا قريشاً وغيرها من العرب [أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة ابن حصن والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال عباس بن مرداس:

أتجعل نهبي ونهب العبيد ... بين عيينة والأقرع

(١) صحيح البخاري ٣-١٣٢١.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٧٤٨.

(٣) صحيح مسلم ٢-٧٣٥.

فما كان بـــدر ولا حـــابس يفوقان مـــرداس في المجمـــع
وما كنت دون امرئ منـــهما ومن تخفض اليـــوم لا يرفـــع

قال فتم له رسول الله ﷺ مائة][1] ولم يكن في الأنصار منها شـــيء فكثرت القالة وفشت حتى قال قائلهم أما رسول الله فقد لقـــي قومـــه.. فأرسل إلى سعد بن عبادة فقال ما مقاله بلغني عن قومك أكثروا فيها؟

فقال له سعد: فقد كان ما بلغك.

قال: فأين أنت من ذلك؟

قال: ما أنا إلا رجل من قومي.. فاشتد غضبه وقال: اجمع قومك ولا يكن معهم غيرهم.

فجمعهم في حظيرة من حظائر النبي ﷺ وقام على بابهـــا وجعـــل لا يترك إلا من كان من قومه وقد ترك رجالاً من المهاجرين وزاد أناساً.. ثم جاء النبي ﷺ يعرف في وجهه الغضب [فقال: هل فيكم من غيركم قالوا: لا إلا ابن أخت لنا.. فقال رسول الله ﷺ: ابن أخت القوم منهم][2]

[فجمعهم في قبة من آدم فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: ما حديث بلغني عنكم؟ فقال له فقهاءِ الأنصار: أما ذوو رأينا يا رســـول الله فلم يقولوا شيئاً.. وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسوله يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.. فقال رســـول الله ﷺ: فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم][3]

(١) حديث صحيح رواه مسلم عن رافع بن خديج رضي الله عنه ٢-٧٣٧.

(٢) سنده صحيح رواه الإمام أحمد ٣-٢٠١ ثنا يزيد بن هارون أنا حميد عن أنس وهو سند ثلاثي صحيح مر معنا قبل قليل.

(٣) صحيح مسلم ٢-٧٣٣.

فقال: يا معشر الأنصار.. ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله؟

فجعلوا يقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله.

يا معشر الأنصار.. ألم أجدكم عالة فأغناكم الله؟

فجعلوا يقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله.

يا معشر الأنصار: ألم أجدكم أعداء فألف الله بين قلوبكم؟

فيقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله.

فقال: ألا تجيبون؟

قالوا: الله ورسوله آمن وأفضل.

فلما سري عنه قال ولو شئتم لقلتم فصدقتم:

ألم نجدك طريداً فآويناك ومكذباً فصدقناك وعائلاً فآسيناك ومخذولاً فنصرناك؟

فجعلوا يبكون ويقولون الله ورسوله آمن وأفضل.

قال: أوجدتم من شيء من دنيا أعطيتها قوماً أتألفهم على الإسلام وكلتكم إلى إسلامكم. لو سلك الناس وادياً أو شعباً وسلكتم وادياً وشعباً لسلكت واديكم أو شعبكم وأنتم شعار والناس دثار ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار

[الأنصار كرشي وعيبتي][1] ثم رفع يديه حتى إني لأرى ما تحت منكبيه فقال:

---

(١) سنده صحيح وهو حديث الإمام أحمد السابق.

اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار.

أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله إلى بيوتكم؟ فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وانصرفوا وهم يقولون رضينا بالله رباً وبرسوله حظاً ونصيباً»[1] بعد أن أشار ﷺ إلى مواقعهم ومواقع غيرهم.. وأراهم هول الكنوز والأمجاد الخالدة التي سيسافرون بها عبر التاريخ.. فهم وحدهم الذين استدعاهم النبي عليه السلام في الشدة بعد أن هرب الناس وتركوه.. وهم وحدهم الذين لم يقبضوا شيئاً من تلك المعركة التي هي في الحقيقة معركتهم وحدهم.. وهم وحدهم غنموا النبي عليه السلام وفازوا به.. بينما فاز غيرهم بالبقر والماعز.. أفاق الأنصار من كبوة عابرة وتجلى حب الله لهم قبل أن يحركوا رواحلهم من هذا المكان المزدحم بالعواطف الجياشة فقد حدث شيء سار ومفرح للنبي ﷺ وأصحابه خاصة الأنصار وذلك عندما شاهدوا جميعاً:

هوازن كلها تدخل في الإسلام

هاهي خيل فرسانهم تنهب الأرض نحو الجعرانة تبحث عن رسول الله ﷺ لا لتقاتله بل لتسلم وترجوه أن يطلق أطفالها ونساءها وأموالها ويحررها لتعود بها.. لكن الوقت قد فات فقد انتظرهم النبي ﷺ أكثر من عشرة أيام

في هذا الوقت كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد سبق الجميع إلى مكة... وذلك لـــ

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه ابن أبي شيبة ٧-٤١٨: حدثني عاصم بن عمر ابن قتادة عن محمود بن لبيد عن أبي سعيد الخدري وعاصم تابعي ثقة عالم بالمغازي: التقريب ١-٣٨٥ وشيخه صحابي.

وفاء نذر نذره عمر في الجاهلية

يقول ابنه عبد الله بن عمر «إن عمر بن الخطاب سأل رسول الله ﷺ وهو بالجعرانة بعد أن رجع من الطائف فقال: يا رسول الله.. إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف يوماً في المسجد الحرام فكيف ترى؟ قال: اذهب فاعتكف يوماً»(١) فهو وإن كان نذر طاعة إلا أنه عبادة تحتاج إلى سؤال النبي ﷺ لأخذ شرعيتها.. لأن العبادات في الإسلام محرمة إلا إذا كان لها دليل من كلام الله أو موافقة نبيه ﷺ.. وهذا النذر كصلاة بلال عندما «قال رسول الله ﷺ لبلال عند صلاة الغداة:

يا بلال.. حدثني بأرجي عمل عملته عندك في الإسلام منفعة فإني سمعت الليلة خشف نعليك بين يدي في الجنة قال بلال: ما عملت عملاً في الإسلام أرجى عندي منفعة من أني لا أتطهر طهوراً تاماً في ساعة من ليل ولا نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي»(٢)

فلو لم يقر النبي ﷺ فعل بلال لتحول ذلك العمل إلى ابتداع مرفوض في الإسلام.. فذات يوم و«بينا النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم.. فسأل عنه.. فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم.. فقال النبي ﷺ: مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه»(٣)

فقد وافقه النبي ﷺ على نذر الطاعة فقط وهو الصوم واحتج على نذر المعصية وأبطله.. ففي الإسلام يجب أن تظل العبادة نقية من الزيادة والنقصان والغلو حتى يبقى هذا الدين نقياً كما أنزل.. وحتى لا يتكئ

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٢٧٧.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٩١٠.

(٣) صحيح البخاري ٦-٢٤٦٥.

المسلم على فعل عمر أو بلال أو أبي إسرائيل رضي الله عنهم بدعوى أن الصحابة لا يمكن أن يخالفوا رسول الله ﷺ.. وهذا المنطق المقبول يعكر عليه كون الصحابة غير معصومين فهم يخطئون وينسون بينما النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى وقد عصمه الله عن الخطأ في التبليغ والتشريع.. والمستند الوحيد المقبول هو فعله وقوله وموافقته ﷺ.. لأنه هو وحده الذي يوحى إليه.. وهو وحده النبي بل وخاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام وآخرهم والبقية تبع لمحمد ﷺ وبذلك نضمن بقاء الإسلام جديداً طرياً نشربه من النبع لا من الفروع التي قد تلتاث عبر التاريخ بالأهواء والعواطف والتروات..

إذاً فقد أقر النبي ﷺ عمر على نذر الطاعة في الجاهلية وهو الآن في مكة ليفي بنذره.. في الوقت نفسه وصل مقاتلوا قبيلة هوازن إلى أرض الجعرانة معلنين إسلامهم وانضوائهم تحت لواء الإسلام راجين من النبي ﷺ أن يحرر أطفالهم ونساءهم وأموالهم.. فـ

هل ستحصل هوازن على ما طلبته

أحد شهود العيان «عبد الله بن عمرو بن العاص قال أتى وفد هوازن رسول الله ﷺ وهو بالجعرانة وقد أسلموا

فقالوا: يا رسول الله.. إنا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك فامنن علينا منَّ الله عليك.

فقام رجل من هوازن أحد بني سعد بن بكر وكان بنو سعد هم الذين أرضعوا رسول الله ﷺ يقال له زهير بن صرد وكان يكنى بأبي صرد فقال:

يا رسول الله.. إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك ولو أننا ملحنا للحارث بن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر ثم نزل منا بمثل ما نزلت به رجونا عطفه وعائدته وأنت خير المكفولين.. ثم قال:

امنن علينا رسول الله في كرم   فإنك المرء نرجوه وندخر
امنن على بيضة قد عاقها قدر   ممزق شملها في دهرها غير

في أبيات قالها فقال رسول الله ﷺ: أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فقالوا يا رسول الله: خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحب إلينا فقال: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم فإذا أنا صليت بالناس فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم.. فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به؛ فقال رسول الله أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله.

قال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا.

قالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله.. قال العباس لبني سليم: وهنتموني.

فقال رسول الله ﷺ: أما من تمسك بحقه من هذا السبي منكم فله بكل إنسان ست فرائض من أول شيء نصيبه فردوا إلى الناس أبناءهم

ونساءهم»[1].. وعادت هوازن مبتهجة مجموعة الشمل بالإسلام والنساء والأطفال ونهض الجيش المسلم متوجهاً نحو مكة لأداء العمرة مع النبي ﷺ وتمايلت مطايا الأنصار تحمل النبي ﷺ فهو غنيمتها من هـذه المعركـة العظيمة.. وفي الطريق توقف النبي ﷺ ومن معه لأداء الصلاة ولما بـدأ المؤذن بالنداء للصلاة انطلقت صيحات غريبة من خارج المعسكر المسلم.. كانوا:

مجموعة من الشباب يسخرون من الأذان

ويقومون بترديد ما يقوله مقلدين صوته الجميل وسـاخرين منـه.. وكان أشدهم تقليداً هو أكثرهم بغضاً للنبي ﷺ ولدينه..

وصلت صيحات الساخرين إلى مسامع النبي ﷺ فتحرك نحو الصوت المستهزئ حاملاً في صدره حلم الداعية ووعي المربي وبأسلوب عـذب وراق ودون تجهم وجه أو تشنج أو ضجيج تهادى نحو أولئـك الفتيـان برفق.. وقدم للتربوبيين في كل الدنيا درساً في استغلال الطاقات وعـدم إهدار القدرات.. فحدثت هذه القصة التي يرويها أبو محـذورة.. وأبـو محذورة هذا هو ذلك الشاب الذي كان شديد البغض والتقليـد لـلآذن وأهله حيث يقول «نعم خرجت في نفر فكنا ببعض طريق حنين.. فقفل رسول الله ﷺ من حنين فلقينا رسول الله ﷺ ببعض الطريق.. فأذن مؤذن

(١) سند صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري في التاريخ ٢-١٧٣ وغيره: حـدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وهذا السند مشهور جداً وهو حسن لكـن كلمـة الأنصار وَهْمٌ من عمرو أو من ابن إسحاق لأن الأنصار لم يحصلوا على شيء من غنـائم هوازن إلا إن كان المقصود كل ما حصلوا عليه حتى السلب فقد حصل بعض الأنصـار على سلب من قتلوه أثناء المعركة.

رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ فسمعنا صوت المؤذن ونحن متنكبون فصرخنا نحكيه ونستهزئ به.. فسمع رسول الله ﷺ الصوت فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه.. فقال رسول الله ﷺ: أيكم الذي سمعت صوته قد ارتفع فأشار القوم كلهم إلي وصدقوا فأرسل كلهم وحبسني فقال: قم فأذن بالصلاة فقمت ولا شيء أكره إلي من رسول الله ﷺ ولا مما يأمرني به.. فقمت بين يدي رسول الله ﷺ فألقى إلي رسول الله ﷺ التأذين هو نفسه فقال قل:[1]

«الله أكبر الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله

ثم يعود فيقول أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله

حي على الصلاة مرتين

حي على الفلاح مرتين

الله أكبر الله أكبر... لا إله إلا الله»[2]

ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صرة فيها شيء من فضة ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة ثم أمارها على وجهه مرتين ثم مرتين على يديه ثم على كبده ثم بلغت يد رسول الله ﷺ سرة أبي محذورة ثم قال رسول الله ﷺ: بارك الله فيك.

---

(١) انظر تخريجه في الحديث بعد التالي.

(٢) صحيح مسلم ١-٢٨٧.

فقلت: يا رسول الله.. مرني بالتأذين بمكة.. فقال قد أمرتك به وذهب كل شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهية وعاد ذلك محبة لرسول الله ﷺ فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ بمكة فأذنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ»(١)

الذي لم يعنفه ولم يأمر بقطع رأسه بل اكتفى بالنظر داخل هذا الفتى فوجد طيشاً يحتاج إلى من يترفق به.. ووجد مواهب ليس من العدل سكبها على الطريق.. أما الفتى فوجد من يعتني به ويقدر ما لديه فاحتضنه بقلبه وتحول إلى أحب الناس إليه.. ولم يكتف بذلك بل طلب من النبي ﷺ في الحال أن يوظف ما لديه من قدرات في الخير له وللناس فكان ما أراد.. فمحمد ﷺ أفضل بيئة لتفجير الإبداع ورعاية المواهب ولكن نحو خير البشرية ورفاهها.. لذلك أطلق ذلك الفتى وانطلق بجيشه نحو مكة لـ

أداء العمرة..

وصل النبي ﷺ إلى مكة فأدى العمرة وهذه العمرة هي الثالثة بعد عمرة الحديبية وعمرة القضاء.. ثم وفى بعهد الحب بينه وبين الأنصار فانطلق نحو شعاب الأنصار.. لكن قبل أن ينطلق قام ﷺ بـ

---

(١) حديث حسن رواه الإمام أحمد ٣-٤٠٩ وغيره من طريق ابن جريج قال أخبرني عبد العزيز ابن عبد الملك بن أبي محذورة أن عبد الله بن محيريز أخبره وكان يتيماً في حجر أبي محذورة عن أبي محذورة... ثم قال ابن جريج: وأخبرني ذلك من أدركت من أهلي ممن أدرك أبا محذورة على نحو ما أخبرني عبد الله بن محيريز وهذا السند فيه ضعف من أجل عبد العزيز فهو مقبول عند المتابعة.. ولذلك قال الحافظ في التقريب: مقبول ١-٥١٠ أما شيخه فهو تابعي ثقة: التقريب ١-٤٤٩ وعبد العزيز لم ينفرد فقد توبع تابعه من أدرك ابن جريج من أهله وكذلك فإن للحديث شاهداً عند ابن خزيمة: ٢٠٠١ حدثني عثمان ابن السائب أخبرني أبي وأم عبد الملك بن أبي محذورة عن أبي محذورة لكن عثمان مقبول حيث يحتاج إلى متابعة وقد توبع.. وقد صححه الإمام الألباني في صحيح النسائي (٦١٣).

إعادة أدراع صفوان بن أمية

فقد «استعار رسول الله ﷺ من صفوان بن أمية سلاحاً.. فقال صفوان: أعارية أم غصب فقال: بل عارية.. فأعاره ما بين الثلاثين إلى أربعين درعاً.. فغزا رسول الله ﷺ حنيناً فلما هزم الله المشركين قال رسول الله ﷺ: اجمعوا أدراع صفوان ففقدوا من دروعه أدراعاً فقال رسول الله ﷺ لصفوان: إن شئت غرمناها لك.. فقال: يا رسول الله.. إن في قلبي اليوم من الإيمان ما لم يكن يومئذ»[1].

لقد أخجله كرم النبي ﷺ الغامر وتسامحه وسعة حلمه فأصبح لا يرى في الدنيا غير محمد وأخلاق محمد ودين محمد.. فبمثل هذا المستوى من الأخلاق تنتزع القلوب.. وتتهاوى تلك الجدران الغليظة التي تحول بين صاحبها وبين استمراء الحقيقة والانفتاح عليها.. والنبي ﷺ لم يؤثر على كثير من الناس بسبب كثرة صلاته وصيامه أو مظهره.. فبالإضافة إلى حمله حقيقة كالنهار فإنه يحمل معها أخلاقاً كالماء البارد للعطشى والمتعبين.. يعفو عن هذا ويعطي هذا ويثني على ذاك ويمدح رابعاً ويتنازل لخامس و.. ويبتسم في وجه الجميع ويصدق مع الجميع ويفي بوعوده ويلتزم بمواثيقه ولا ينتقم لنفسه.. وقائمة طويلة من

(١) حديث حسن رواه البيهقي في السنن الكبرى ٦-٨٩ وأخبرنا أبو الحسن علي بن محمد المقري أنبأ الحسن بن محمد بن إسحاق ثنا يوسف بن يعقوب القاضي ثنا مسدد ثنا أبو الأحوص ثنا عبد العزيز بن رفيع عن عطاء بن أبي رباح عن ناس من آل صفوان بن أمية فقالوا.. وأخبرنا أبو علي الروذباري أنبأ أبو بكر بن داسة ثنا أبو داود ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا جرير عن عبد العزيز بن رفيع عن أناس من آل عبد الله بن صفوان أن رسول الله ﷺ قال يا صفوان هل عندك سلاح فذكر معناه. وله شاهد من طريق شريك بن عبد الله في مسند أحمد ٦-٤٦٥ عن عبد العزيز بن رفيع عن أمية.

الأخلاق البيضاء التي أعيى الكثير من المتدينين وغير المتدينين حملها.. فتلك الصفات أثقل من الجبل إذا لم يتخلَّ الإنسان عن أنانيته وذاته الكثيفة المعتمة التي لا يرى معها سواها.. أما أولئك الذين يضعون أنفسهم ضمن الجميع ويحكمون عليها كما يحكمون على الجميع ويحبون للجميع ما يحبونه لها فهم تلك النوعية الممتازة من البشر التي تستمع بممارسة الأخلاق وتبدع في إهدائها.. وهذا ما يجيده النبي ﷺ وبه تمكن من أخذ صفوان بن أمية.. رغم أن صفوان لا يزال حتى الآن في مكة.. أما النبي ﷺ فقد حمله الأنصار نحو شعبهم عندما توجه الناس نحو شعابهم.. ومعه المهاجرون الأبرار.. ولم يمض من الوقت غير قليل حتى تمايلت المطايا نحو المدينة فإذا:

صفوان بن أمية في المدينة

حيث تحول الوطن عنده إلى مساحات يرسمها قلب النبي ﷺ.. ففي مكة ولما «قيل لصفوان: إنه من لم يهاجر هلك فدعا براحلته فركبها فأتى المدينة فقال له رسول الله ﷺ: ما جاء بك يا أبا وهب؟ قال: بلغني أنه لا دين لمن لا هجرة له قال ارجع إلى أباطح مكة فرجع»[1] لكنه كان متعباً «فدخل المسجد فتوسد رداءه فجاء رجل فسرقه فأتي به النبي ﷺ.. فقال: يا رسول الله سرق هذا ردائي فأمر النبي ﷺ بقطعه.

(١) حديث حسن رواه الإمام مالك عن ومن طريقه الضياء في المختارة ٨-٢٠ أخبرنا سليمان الطبراني ثنا أبو مسلم الكشي ثنا أبو عاصم عن مالك بن أنس عن ابن شهاب عن صفوان ابن عبد الله بن صفوان عن جده قال ورواه الإمام أحمد أيضاً عن حسين بن محمد عن سليمان بن قوم عن سماك عن جعيد ابن أخت صفوان عن صفوان وعن عفان عن وهيب عن ابن طاوس عن أمية عن صفوان بنحوه.

فقلت: يا رسول الله لم يبلغ ردائي ما تقطع فيه يد رجل قد جعلتها صدقة عليه.

فقال رسول الله ﷺ فهلا قبل أن تأتيني به»[1]

فالشفاعة تجوز عندما تكون الشكوى في طريقها إلى الحاكم أما إذا وصلت إليه فإن الشفاعة تتحول إلى جرم خطير يهدد الأمن الداخلي للدولة ويمكن للفساد من التسلل إلى جهاز القضاء والعدالة فيها.. وفي التشريع الإسلامي حدود خمسة لا تجوز الشفاعة فيها هي:

حد السرقة.. وحد شرب الخمر.. وحد الزنا.. وحد القذف.. وحد الحرابة.

وهي حدود ضرورية لحماية الدماء والأموال والأعراض والعقول والأنساب ولا خير في حياة تمتهن تلك الأشياء التي تعادل الحياة نفسها.. وتميز الإنسان وترفعه عن مرتبة الحيوان.. فليس من المستغرب أن يرتكس الإنسان إلى درجة أسفل من درجة الحيوان في تلك اللحظات التي ينتهك فيها تلك الأشياء.. لأنه قد يفعل ذلك بوعي وإرادة وترتيب.. أما الحيوان فهو يسفك ويفترس بدافع غريزي بحت ودون وعي أو ترتيب مسبق.. تلك الأفعال التي يقوم بها الحيوان هي شرط الحياة الوحيد الذي يملكه وهو شرط مبرمج داخله من الخالق سبحانه.. أي أنه لا يمكن له العيش دون ذلك.. أما الإنسان فله طرق كثيرة جداً للعيش دون الإضرار

(١) حديث حسن رواه الإمام مالك عن ومن طريقه الضياء في المختارة ٨-٢٠ أخبرنا سليمان الطبراني ثنا أبو مسلم الكشي ثنا أبو عاصم عن مالك بن أنس عن ابن شهاب عن صفوان ابن عبد الله بن صفوان عن جده قال ورواه الإمام أحمد أيضاً عن حسين بن محمد عن سليمان بن قوم عن سماك عن جعيد ابن أخت صفوان عن صفوان وعن عفان عن وهيب عن ابن طاوس عن أمية عن صفوان بنحوه.

بالآخرين لكنه يختار أحياناً طرقاً شديدة الضرر بمحض إرادته إرضاءً لغروره أو جشعه أو نوازع الحقد في داخله.. أو تحت تأثير العاطفة والشهوة وهي أشياء لا تمت للضرورة أو للصراع من أجل البقاء بصلة.. ومسؤولية الفرد الشخصية أمر جعله الإسلام من ثوابته.. والنبي ﷺ يمارس تطبيقه الآن مع هذا السارق على أرض المدينة لاسيما وهو يسرق شيئاً ليس مضطراً للحصول عليه للبقاء حياً.. كما أنه مارس ذلك داخل المسجد وباعترافه هو.. مع أن النبي ﷺ لم يكن في مثل هذه الحالة يمارس الحبس على ذمة التحقيق أو التعذيب لانتزاع الاعتراف بالقوة القهر.. كان ﷺ يقرر قاعدة الوقوف مع المتهم حتى تثبت عليه التهمة.. فقد «أتي بسارق قد سرق شملة فقالوا: يا رسول الله.. إن هذا سرق.. فقال رسول الله ﷺ: ما أخاله سرق فقال السارق: بلى يا رسول الله.. فقال رسول الله ﷺ: اذهبوا به فاقطعوه ثم احسموه ثم إيتوني به فقطع.. ثم أتي به فقال: تب إلى الله.. فقال: تبت إلى الله.. فقال: تاب الله عليك»[1] فتطبيق الحد لا يعني أن ينصرف المذنب وهو يحس أنه مراقب من قبل السلطة والمجتمع فقط لأن تلك الرقابة تذوب متى ما أمن العقوبة وتوفرت له سبل الفرار والخروج والتحايل على النظام.. أما الإسلام فيجذر في أعماق الفرد رقابة الله والخوف منه قبل كل شيء.. فالله لا يغفو ولا ينام ولا تخفى عليه خافية وبذلك يتوفر لدى الشريعة الإسلامية وحدها رقابتان: من الداخل

(١) حديث صحيح وسنده حسن رواه الحاكم ٤-٤٢٢ والبيهقي الكبرى ٨-٢٧١ وغيرهما من طرق عن عبد العزيز بن محمد الدراوردي أخبرني يزيد بن خصيفة عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وهذا السند صحيح ابن ثوبان تابعي ثقة: التقريب ٢-١٨٢ وتلميذه تابعي من رجال الشيخين: التقريب ٢-٣٦٧ أما الدراوردي فحسن الحديث إلا عن عبيد الله العمري فمنكر وهذا ليس منها وللحديث طريق أخرى عند الطبراني: ٧-١٥٧ عن السائب بن يزيد.

حيث استشعار مراقبة الله ومن الخارج حيث أحكام الشريعة المالية والشخصية والدولية والجنائية وغيرها..

كان ﷺ يقدم في المدينة لمن يأتي بعده دور الزعيم والإمام والقاضي والأب والمواطن الصالح لكل زمان ومكان.. لا يشغله شيء عن شيء ولا يعتذر عن مخالطة الناس وتحسس قضاياهم بكثرة مشاغله واتساع دولته وكثرة غزواته..

هاهو في إحدى بيوته وأحد أيامه السعيدة يبتهج بهدية جميلة تقدمها له مارية القبطية:

مارية تلد ابناً للنبي ﷺ

سَعِدَ عليه السلام بولادة ابنه الجميل وسماه باسم أبيه وأبي الأنبياء إبراهيم ﷺ.. وكان هذا الرضيع الجميل يملأ قلب النبي ﷺ ويحظى بعنايته.. حتى انتقى له بيتاً من عوالي المدينة يتولون رضاعه وكان يتردد على ذلك البيت كالشوق.. يصفه أنس بن مالك فيقول: «ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ.. كان إبراهيم مسترضعاً له في عوالي المدينة.. فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت.. وإنه ليدخل وكان ظئره قيناً فيأخذه فيقبله ثم يرجع»[1] كانت تلك القبلات الحانية موضع استهجان بعض الأعراب الذين أكسبتهم الصحراء بعض ما فيها.. فقد «قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبّلون صبيانكم؟ فقالوا: نعم فقالوا: لكن والله ما نُقبِّل.. فقال رسول الله ﷺ وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة»[2].

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٨٠٨.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٨٠٨.

وليس هناك شيء أشنع من نزع الرحمة من القلب سوى تـــوهم أن الرجولة تتطامن بتقبيل الأطفال والانحناء لهـــم وكـــأنهم نســـل بهـــائم مستقذرة..

وإذا كان إبراهيم الصغير عليه السلام قد أدخل البهجة على قلـــب والده وكبده من الشوق الكثير.. حتى تجشم وهـــو رأس الدولـــة عنـــاء البحث عنه لتقبيله وضمه مع أن باستطاعته أن يطلب إحضاره متى شـــاء وأين شاء.. فإنه حزن كثيراً على ابن ابنته -لعلها- زينب فهو الآن يعاني من مرض شديد.. يقول «أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن ابنة للنبي ﷺ أرسلت إليه وهو مع النبي ﷺ وسعد وأبي.. نحسب أن ابنتي قد حضرت فاشهدنا.. فأرسل إليها السلام ويقول: إن لله ما أخذ وما أعطى وكـــل شيء عنده مسمى.. فلتحتسب ولتصبر.. فأرسلت تقسم عليه.. فقـــام النبي ﷺ وقمنا فرفع الصبي في حجر النبي ﷺ ونفسه تقعقع.. ففاضت عينا النبي ﷺ.. فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذه رحمة وضـــعها الله في قلوب من شاء من عباده ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء»[١].

وما هذا النبي إلا رحمة مهداة.

كان لا يشغله اهتمامه بشؤون أسرته عن الاهتمام بقضـــايا أمتـــه ومواصلة رسالته[٢].

ها هو يستدعي أحد القادة الذين برزوا سريعاً وبشكل ملفت: خالد بن الوليد ويطلب منه التوجه نحو منطقة يسكنها بنو جذامة.. وهم حـــتى

---

(١) صحيح البخاري ٥-٢١٤١.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو داود ٤-٩٢ والبيهقي ٤-١٤١ حـــدثني يحيى بن عباد عن أبيه عباد بن عبد الله عن عائشة رضي الله عنها قالت:

الآن في موقف يبدو غامضاً تجاه الإسلام ودولته.. فتحرك خالد بن الوليد رضي الله عنه مأخوذاً بحماس المنتصر العائد من فتح مكة وإخضاع أكبر قبائل الجزيرة (قريش) لدولة الإسلام لكن أحداثاً غريبة ومؤسفة وقعت في:

غزوة بني جذيمة.. ومأساة عاشق وحبيبته

لم ينطلق ابن الوليد وحده نحو بني جذيمة.. فمن مكان لا أعرفه لكنه مفعم بالعواطف الغامرة.. كان هناك شاب يعشق فتاة يقال لها: حبيش.. وهي تبادله العواطف نفسها.. كان حباً عذرياً لم يتدنس برذيلة أو يتلوث بعهر.. لكن ذلك العفاف لم يسلم من المنغصات فقد قدم الجاه والمال مع أمير لينتزعا حبيشا من بين عيني عاشقها.. فتنطلق المطايا وتتمايل الهوادج بحبيش ووصيفاتها فيتحطم قلب العاشق ويرغم صاحبه على التحرك.. فينطلق خلفها كالمجنون عابراً المفاوز والمغاور لا يعرف وجهة غير وجهة هودجها.. ولا عنواناً غير عنوان طويل تكتبه آثار راحلتها.. كان سفرها الطويل يلهب قلبه ويلهم شعره حتى توقفت تلك المطايا في آخر المحطات ونهاية الأسفار.. حيث بلغ الجنون ذروته.. ولم يبق في رأس العاشق وقلبه مكان لغير الحبيبة حبيش.. توقفت الرواحل عند ماء بني جذيمة في الوقت الذي وصلت فيه خيل خالد بن الوليد.. وهنا أصبح العاشق أمام حتفين حتف حبيش وحتف جيش.. وكان ذلك العاشق لا يبالي بأمر خالد فهو لا يعرفه ولا يعرف رسالته ولا يهمه أمر ما أرسل به ولا ما يتحدث هو وجيشه عنه.. كان مأخوذ القلب والعقل وهو في حالة ذهول تام عما حوله من جيش ودماء وحتى منطق أو حتى مجرد رغبة في الحياة..

توقف خالد بن الوليد وكان من بين جنده شاب تضلع بسنة النبي ﷺ وهديه وسمته هو عبد الله بن عمر بن الخطاب.. وقد كان جندياً مطيعاً

لإمامه الذي عينه عليه النبي عليه السلام.. غير أن ذلك الجندي المطيع لله ولرسوله وولي أمره سرعان ما أبدى احتجاجه على أميره وتبرمه من تصرفه.. كل ذلك كان يحدث دون حقد أو شحناء بين الشاب وقائده.. إنما هي الحرية التي منحها الإسلام لأتباعه في محاسبة القائمين عليهم وإنكار المنكر حتى في حالات تفوق حالات الطوارئ خطورة كحالة الحرب التي يخوضها ابن الوليد اليوم.. تلك السماحة التي جعلت فتى الإسلام يقول: «بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فقالوا: صبأنا صبأنا.

فجعل خالد يقتل ويأسر ودفع إلى كل رجل منا أسيره فأمر كل رجل منا أن يقتل أسيره.

فقلت: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره»[1].

لكن خالداً رضي الله عنه أصر على حكمه وأن هؤلاء يملكون وقاحة وتحدياً للإسلام في ساحة حرب لا يردعه سوى السيف.. فقام بتوزيع الأسرى لتنفيذ حكم القتل فيهم.. وكان بين هؤلاء الأسرى شاب في مثل سن آسره.. شاب مسكين لم يكن من أهل هذه الديار ولا شأن له بما يحدث.. فهو في واد والعالم كله في واد.. شاب قاده قلبه المسكين وضعف إرادته وعدم معرفته بدين التوحيد إلى التيه في الصحاري خلف هذا الهودج الذي تتربع فيه معشوقته ومهرى فؤاده التي تدعى حبيشاً.. لم يكن يريد من الدنيا سواها سوى التأمل في عينيها.. لكن راحلته ساقته ليلتقي بسيف خالد بن الوليد وهو الآن مأسور عند شاب اسمه ابن أبي حدرد.. فما هي

(١) صحيح البخاري ٦-٢٦٢٨.

قصة عاشق حبيش

هي قصة ليست من خيال الأدباء والروائيين.. هي حقيقة مرة يرويها من شارك في أحداثها معترفاً بالمأساة التي ارتكبها ويستغفر الله من ذلك..

يرويها شاب اسمه: ابن أبي حدرد كتب نهاياتها بيده وأسدل ستائرها على أرض بني جذيمة.. تبدأ القصة عندما كان شاب يعشق فتاة تدعى حبيشاً منذ صغره.. ربما كان والدها أميراً فارتحل عن دياره وجيرانه.. وربما جاء أمير فأخذها إلى بيت أكثر ثراءً وجاهاً.. لكن يبدو أن الأمير لم يحمل في هودجه سوى جسدها.. أما قلبها فقد أردفه ذلك الشاب معه على راحلته.. يسير كلما سارت ويتوقف عندما تتوقف.. وفي ديار بني جذيمة توقفت القافلة وخلفها الشاب المتيم أمام جيش خالد.. فحدث ما حدث.. وأُخذ الشاب أسيراً غير آبه بالأسر ولا بهذه الحبال فالحبال التي تربطه بحبيش أقوى وأسرها لقلبه أقسى.. يقول ابن أبي حدرد:

«كنت يومئذ في خيل خالد بن الوليد فقال لي فتى من بني جذيمة وهو في سني وقد جمعت يداه إلى عنقي برمة ونسوة مجتمعات غير بعيد منه: يا فتى

فقلت: ما تشاء..

قال: هل أنت آخذ بهذه الرمة فقائدي إلى هؤلاء النسوة حتى أقضي إليهن حاجة ثم تردني بعد فتصنعوا بي ما بدا لكم [إني لست منهم عشقت امرأة فلحقتها فدعوني أنظر إليها نظرة ثم اصنعوا بي ما بدا لكم]

قلت والله ليسير ما طلبت فأخذت برمته فقدته بها حتى وقف عليهن (فإذا امرأة طويلة أدماء) فقال: اسلمي حبيش قبل نفاد العيش:

أريتك إذ طالبتكم فوجدتكم بحلية أو ألفيتكم بالخوانق
ألم يك أهلاً أن ينول عاشق تكلف إدلاج السرى والودائق
فلا ذنب لي قد قلت إذ أهلنا أثيبي بود قبل إحدى الصفائق
أثيبي بود قبل أن تشحطَ وينأى الأمير بالحبيب المفارق
فإني لا ضيعت سر أمانة ولا راق عيني عنك بعدك رائق

قالت: [نعم فديتك] وأنت فحييت عشراً وسبعاً وتراً وثمانياً تترى...

قال: ثم انصرفت به فضربت عنقه»[1].

كانت المرأة تشاهد عاشقها وهو يضرب بالسيف.. تشاهد رأسه يهوى عن جسده الحبيب.. فلم تحتمل.. ولما سقط على الأرض تخلت عن وقارها وأسرارها وانحدرت من هودجها غير آبهة بما حولها ولا بمن حولها.. انحدرت نحو ذلك الجسد الذي هوى على الأرض كالفجيعة.. وانحنت بمشاعر تنبض بالموت للموت..

«جاءت المرأة فوقفت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت»[2] وجداً عليه وحزناً.. كأنها أقسى العشاق وأضعفهم.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق: السيرة النبوية ٥-١٠٠: حدثني يعقوب عن عتبة بن المغيرة بن الأخنس عن الزهري عن ابن أبي حدرد الأسلمي.. يعقوب ثقة: التقريب ٢-٣٧٦ وشيخه تابعي ثقة وإمام معروف أما الزيادة فسندها حسن رواها النسائي في السنن الكبرى ٥-٢٠١ أنبأ محمد بن علي بن حرب قال أنبأ علي بن الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس وهذا السند حسن من أجل علي بن الحسين فحديثه حسن إذا لم يخالف وللحديث شاهدان في كل منهما ضعف يسير عند البيهقي في الدلائل ٥-١١٦ وبقية رجال النسائي ثقات وهو سند حسن لذاته انظر التقريب (٢-٣٥) حيث قال الحافظ صدوق يهم.. من لا يهم.

(٢) انظر ما قبله فهو جزء منه.

كان الصحابة ينظرون إلى ذلك المشهد الفاجعة منهم الرافض له والمتكدر كعبد الله بن عمر وأصحابه.. منهم المندهش الذي فوجئ بما حدث.. والصحابة بشر يخطئون ويصيبون لكن ما هو تقييم الإسلام لهذه المصيبة.. وما هو موقف النبي ﷺ من فعل خالد ومن أطاع خالداً..

دفنت المعشوقة ودفن العاشق وبقية القتلى وعاد الصحابة إلى المدينة مثقلين بالهموم والتساؤل.. ولما وصلوا قال ابن عمر رضي الله عنهما «ذكرنا ذلك للنبي ﷺ فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد مرتين»[1].

لم يكن الدافع لهذه الأحداث هو التعطش للدماء وشهوة السيطرة والتوسع.. لكنها الغيرة على التوحيد والحماس المفرط الذي يطغى على لغة المنتصر غالباً.. وهو أمر لا يمكن تبريره تحت أي عذر.. فهو خطأ من خالد وقد تولى النبي ﷺ تحمل مسؤولية ذلك الخطأ.. ولم يتنصل من تبعاته بل لام أصحابه.. والنبي ﷺ بهذه البراءة من ذلك العمل الفظيع الذي استبيحت فيه دماء بريئة يؤيد احتجاج الشاب عبد الله بن عمر على تلك الحادثة وإنكاره على أميره في ساعة ليست من ساعات السلام والراحة.. بل في ساحة حرب يحتاج فيها القائد إلى الطاعة والامتثال من جنده أكثر من أي شيء آخر.. لكن الإنكار لا يعني الخروج على إمارة خالد والتمرد عليه أبداً بل هو مجرد رد الأمير إلى الوحي والصواب الذي بعث به النبي ﷺ.. فالأمير يظل بشراً مهما بلغت عظمته..

أما موقف النبي ﷺ الرحيم تجاه ذلك العاشق وما حدث له فيحدثنا عنه ذلك الشاب الذي شارك في إيلام النبي ﷺ وتألم هو أيضاً مما اقترف..

---

(١) هو حديث البخاري السابق.

ابن أبي حدرد الذي أحزنه ما حدث منه تجاه ذلك المسكين يقول:

«فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر فقال رسول الله ﷺ: أما كان فيكم رجل رحيم»[1]. أما كان فيكم رجل رحيم فالله غني عن تلك الدماء .. الإسلام غني عنها.. ومحمد بريء مما حدث.. أما فيكم رجل رحيم يمنع حدوث ذلك المشهد المؤلم الذي لم يكن من المفترض حدوثه.. والنبي ﷺ لم يبعث هذه السرية لإرغام الناس على الإسلام.. والقائد المسلم يحتاج إلى إعادة النظر كثيراً والتفكير أكثر قبل اتخاذ قرار بقسوة قرار خالد بن الوليد رضي الله عنه.. فالرحمة هي التي جعلت النبي ﷺ يحجم عن قتل الأسرى في بدر رغم تاريخ بعضهم الأسود ضده وضد أصحابه وأين هؤلاء من أسرى بدر.. والرحمة هي التي جعلت النبي عليه السلام يعفو عن صناديد قريش فما بالك في أناس أبرياء أرادوا أن يقولوا أسلمنا فقالوا صبأنا.. أي صبأنا من دين قومنا.. فما بالك برجل عاشق لا ناقة له ولا جمل فيما يحدث.. كان الأمر شديداً على النبي ﷺ.. لكنه لم يكتف بالحزن فقط.. لقد مضى الأمر وأصبح تاريخاً ولم يعد بالإمكان فعل شيء تجاه ذلك سوى الحزن ومحاولة التعويض ولو مادياً.. حيث اتخذ النبي ﷺ قراراً بدفع تعويضات للمتضررين عن ذلك الذي أحدثه تسرع خالد وحماسه فقد قال ﷺ «أما كان فيكم رجل رحيم.. فداء الإثنين بالواحد»[2].

ودفعت التعويضات من قائد الدولة الكبرى والوحيدة التي تكاد تسيطر على كل الجزيرة العربية لأهل المقتولين خطأً.. فأدرك أولئك

(١) حديث صحيح وهو جزء من حديث النسائي السابق.

(٢) حديث صحيح وهو جزء من حديث النسائي السابق.

عظمة هذا الدين وهذا القائد الذي يدفع تعويضات وهو في مركز القوي الذي لا يخاف إلا من ربه.. ويدفع التعويضات وهو في حالة حرب لكن الحرب الإسلامية لها قواعد لا يجوز اختراقها وقد تم اختراقها خطأ.. فلا بد من الالتزام تجاه العدو في هذه الحالة.. أما المخطئون فقد استغفروا ربهم وواصلوا حياتهم مع نبيهم وإخوانهم.. وفي هذا العام مرت بالمدينة أوقات عصيبة وظروف صعبة رغم وجود النبي ﷺ بين أظهرهم.. ولما اقترب وقت نضج ثمارهم أمرهم النبي ﷺ بالاستعداد للتوجه لمناجزة الروم على أرض تبوك بجيش كان بحاجة إلى كل شيء إلا العزيمة والإيمان.. فقد كان يعاني من قلة المال والطعام والمراكب وكانوا يتطلعون إلى هذه الأوقات ليستريحوا ويتمتعوا بظل المدينة وثمارها التي بدأت في النضوج.. لكن كيف سيتم

تجهيز جيش تبوك في ساعة العسرة

والفاقة والحاجة إلى أي شيء يخفف من معاناة هذا الجيش الكبير الذي يتجاوز عدده عدد جيش الفتح.. لم يكن هناك ميزانية تسلح ولم يكن هناك جيش نظامي.. الكل كانوا جنوداً للإسلام.. الكل كانوا أصحاب مبادئ وأهداف لا أصحاب وظائف ومرتبات.. الكل يساهم حسب طاقته وإمكاناته فلا إكراه ولا ضرائب ولا مكوس ولا قهر.. و:

في مثل هذه الظروف يشرق عثمان بن عفان

يشرق الكرم العثماني ليؤسس نموذجاً راقياً لرجل الأعمال المسلم الذي لا ينظر إلى الدنيا من خلال الأرقام.. بل ينظر إلى الأرقام من خلال الدنيا والآخرة معاً.. وليست هذه هي المرة الأولى التي ينفرد فيها عثمان

بإنجاز فقد قال النبي ﷺ «من يحفر بئر رومة فله الجنة فحفرها عثمان.. وقال من جهز جيش العسرة فله الجنة فجهزه عثمان»[1].

عثمان يتحدث عن ذلك عندما أشرف على الناس من فوق داره ثم «قال أذكركم بالله هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال في جيش العسرة من ينفق نفقة متقبلة والناس مجهدون معسرون فجهزت ذلك الجيش قالوا نعم ثم قال أذكركم بالله هل تعلمون أن بئر رومة لم يكن يشرب منها أحد إلا بثمن فابتعتها فجعلتها للغني والفقير وابن السبيل قالوا اللهم نعم وأشياء عددها»[2]. ومن المؤكد أن هناك من استجاب بسخاء لذلك النداء النبوي لاسيما وأن هذه هي المرة الأولى التي يدعو فيها للتبرع للجيش بينما كان في المعارك السابقة يدعو القادرين وأصحاب الرواحل للاستعداد.. ولعل عمر بن الخطاب كان في سباق.. لكن منافسه لم يكن يشعر به بقدر ما كان يشعر بنداء النبي ﷺ.

عمر يحاول منافسة أبي بكر

يقول رضي الله عنه: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندي فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً فجئت بنصف مالي

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٣٥١.

(٢) سنده رواه الترمذي ٥-٦٢٥ حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أخبرنا عبد الله بن جعفر الرقي حدثنا عبيد الله بن عمر عن زيد هو بن أبي أنيسة عن أبي إسحاق عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: والسلمي تابعي كبير وثقة ثبت من رجال الشيخين: التقريب ١-١٠٨ وتلميذه تابعي ثقة مشهور وزيد ثقة من رجال الشيخين التقريب ١-٢٧٢ وتلميذه عبيد الله بن عمرو ثقة انظر التقريب ١-٥٣٧ (ملاحظة: ذكر الحافظ رحمه الله أنه من الثالثة وترجمته لا توحي بذلك والصواب أنه تابع تابعي لأنه يروي عن صغار التابعين كالأعمش وتلميذه ثقة أيضاً: التقريب ١-٤٠٦ وهو من رجال الشيخين وتلميذه هو الإمام الدارمي.

فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله.. فأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال: يا أبا بكر.. ما أبقيت لأهلك؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله.. فقلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً»[1].

ولعل هؤلاء الثلاثة يجدون منافسة من رجل الأعمال الناجح المجاهد الرائع عبد الرحمن بن عوف الذي يقول: «إن رسول الله ﷺ قال تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً.. فقال عبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله.. إن عندي أربعة آلاف؛ ألفين أقرضهما الله وألفين لعيالي.. فقال رسول الله ﷺ بارك الله لك فيما أعطيت.. وبارك لك فيما أمسكت.. فقال رجل من الأنصار: وإن عندي صاعين من تمر صاعاً لربي وصاعاً لعيالي»[2].

لكن يبدو أن المنافقين لم يعجبهم هذا التسارع الجميل بالنفس والمال نحو تبوك فقاموا بتعويض قصورهم بإطلاق الألفاظ الساخرة من المؤمنين يشفون بها تشوهات نفوسهم ويطفئون بها جمر الحقد في قلوبهم: «فلمز المنافقون وقالوا ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياء وقالوا أو لم يكن الله غنياً عن صاع هذا فأنزل الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»[3].

---

(١) سنده صحيح رواه الدارمي ١-٤٨٠ أخبرنا أبو نعيم ثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه قال سمعت عمر وله طريق آخر عند البزار ١-٢٦٣ حدثنا محمد بن عيسى نا إسحاق بن محمد الفروي نا عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن عمر.

(٢) سنده حسن رواه الطبري ١٠-١٩٥ والبزار من طريق أبي عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه وهو حسن من أجل عمر حفيد ابن عوف وهو حسن الحديث إذا لم يخالف قال الحافظ في التقريب صدوق يخطئ ٢-٥٦ وللحديث شواهد في الصحيح وغيره.

(٣) هو آخر الحديث السابق تفسيره.

المنافقون هم علمانيو ذلك الزمان لا يريدون للدين أي تأثير على حياهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى العسكرية.. ورسالتهم محصورة في محاربة النجاح والدهشة بما عند الأعداء.. وحساباهم للأمور تنطلق من الخواء الذي يملؤهم ويعيشون فيه.. والاستهزاء بالآخرين وإطلاق الكلمات الساخرة على الناجحين هو أسلوبهم.. ولن يجدوا كغزوة تبوك أنسب لهذه السخرية.. فكيف يجابه هؤلاء المسلمون ونبيهم جحافل أقوى دولة في الدنيا بجيش يجمع التبرعات ويحتاج إلى نصف صاع وحبات تمر.. هذه هي حسابات المنافقين وهي حسابات تفتقد إلى الإيمان بالله وتفتقد كذلك إلى الثقة بالنفس وقدراها.. لذلك بدأ:

بعض المنافقين يعتذر عن المشاركة في غزوة تبوك

رغم توفر المال والراحلة والصحة لديهم لكنهم أحسوا بالموت يربض على أرضها ويحدق بالقادمين إليها وقد ذكر الله اعتذارهم فقال سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

وإذا كان المنافقون يبخلون بأموالهم وأنفسهم عن صحبة النبي ﷺ فإن هناك رجالاً يتحرقون للخروج معه عليه السلام.. رغم أهم لا يملكون ولا يملك ما يحملهم عليه.. فكانت لحظات الوداع لحظات من الدموع فـ:

عند الوداع بكى الرجال

فبعد أن رجوا النبي ﷺ أن يحملهم اعتذر من لهفهم وقال لهم:

---

(١) التوبة ٤٩.

لا أجد ما أحملكم عليه.. عندها فاضت محاجرهم بالدموع وعادوا من حيث أتوا مكسوري القلوب وألم الحرمان يملأ صدورهم.. دموع تفيض لأن الفقر يحول بينهم وبين معانقة الموت والشهادة.. دموع خلدت أصحابها وتردد ذكرها على مر الأجيال.. أولم يكفهم فخراً أن يذكر ربهم دموعهم ويتحدث لعباده عنهم.. نزل جبريل بكلام الله الذي يقول: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وهؤلاء هم المنافقون الذين يملكون من الوقاحة والأعذار أرصدة طائلة.. هذا أحدهم جاء يعتذر فقبل رسول الله ﷺ عذره لكن لم يهنأ بالقعود حتى أنزل الله فضيحته آيات ترددها المدينة في الطرقات والمساجد والبيوت وترددها الدنيا.. نزل الوحي يفضح المنافقين ويشد أزر المؤمنين الذين تثاقل بعضهم مفضلاً تأجيل الخروج إلى ما بعد الحصاد.

.. نزل الوحي يسلط الأضواء على زوايا المنافقين المعتمة وأغوارهم المليئة بالأحقاد والكراهية.. فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ

(١) التوبة ٩٣.

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ
إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا
وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ
وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا
قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا
مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ
لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ
ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ
بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ
قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً
وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ
خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ
سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ
ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن
يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ
بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ
يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ
إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ
تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ
بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ
أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا

مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ
أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ
وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ
يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ
يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ
إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا
ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا
ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ
وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ
لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ
رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ
أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ
ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ
مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[1].

ويبدو أن هذه الآيات قد خنقت المنافقين فلم يجدوا هواءً يطيق صدورهم ولا أرضاً تحتمل خطاهم.. لقد تحولت غزوة تبوك إلى مسرح كبير يسخر فيه المنافقين من جرأة المؤمنين على غزو الروم ويتشفون فيه من قلة ما لهم ومتاعهم وضعف حالهم.. فقلب الله عليهم مسرحهم ذلك

(١) سورة التوبة: [٣٨-٦٤].

وحطمه فوق رؤوسهم فأصبحوا خائفين خجلين من أنفسهم ومن الشوارع والأطفال والرجال والنساء وحتى من نخيل المدينة وجدرانها.. أما المؤمنون فيذكرهم إلههم بحال نبيهم عندما كان شريداً طريداً هو وأبو بكر في غار ثور.. وكيف تحقق له نصر الله عليهم.. وها هم الذين كانوا يطاردونه يتأهبون لغزو الروم خلفه جنوداً مخلصين.. وسوف يأتي اليوم الذي يتأهب الروم خلفه عليه الصلاة والسلام أو خلف من يخلفه ولكن حسابات المنافقين لا تتغير أبداً..

نهض الصحابة خلف نبيهم في معركة تمحيص النوايا وتميز الإيمان.. ولإن كانت خيبر تحمل بصمة لعلي رضي الله عنه فإن بصمة عثمان كانت الأبرز على غزوة تبوك.. لكن ما الذي حدث لعلي هذه المرة.. إنه ليس ضمن المسافرين هل هو الرمد مرة أخرى..

علي يتخلف عن تبوك

فقد سار النبي ﷺ مغادراً المدينة «ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد.. واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدواً كثيراً فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان.. فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ما لم يترل فيه وحي الله.. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال.. وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه»[1] ثم خرجوا وقبل خروجهم توقف وتوقف معه علي رضي الله عنه معاتباً ومتوسلاً أن يصحبه في هذا السفر الذي يحتاج إلى

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٦٠٢.

علي وأمثاله رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف علياً.. فقال: أتخلفني والنساء؟ قال: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي»[1].

كان عليه السلام يثمن كل مجهود وكل مجتهد.. وكان لا يغفل أي دور يقوم به أحد من أصحابه فلئن كان بقاء علي في المدينة يعني في نظر علي الغياب عن ساحة الوغى فإنه في نظر النبي ﷺ يقوم بدور هارون عندما توجه موسى نحو جبل الطور وهو دور لا يقل عن دور أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم.. وقد كان عليه السلام يعين في كل غزوة رجلاً من أصحابه خليفة له على المدينة - العاصمة واليوم هو دور علي.. لكن علياً هنا تميز عن سابقيه بقرابته من النبي ﷺ ولذلك استحق أن يكون بمنزلة هارون لأن هارون كان خليفة وأخاً لموسى في الوقت نفسه..

يقوله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «لما خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى تبوك خلَّف علي بن أبي طالب فأتاه بالجرف يحمل سلاحه فقال: يا رسول الله.. أتخلفني بعدك ولم أتخلف عنك في غزاة قط؟ قال: يا علي.. ارجع.. فقال: يا رسول الله.. إن المنافقين يزعمون أنك إنما خلفتني إلا استثقالاً بي.. قال: يا علي.. أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي ارجع فاخلفني في أهلي وأهلك»[2].

وهو تميز يضع لكل فرد من أفراد الأمة مساحة يطلق فيها إبداعاته

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٦٠٢.

(٢) سنده قوي رواه ابن إسحاق ومن طريقه الدورقي في مسند سعد ١-١٣٩: حدثني محمد ابن طلحة بن يزيد بن ركانة عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص أنه سمع أبا سعد بن أبي وقاص يقول وهو سند قوي إبراهيم تابعي ثقة من رجال الشيخين التقريب ١-٣٥ وتلميذه ثقة أيضاً التقريب ٢-١٧٣.

ويجسد فيها إنجازاته.. فالله أنزل آيات كريمات في مترلة أبي بكر.. وحاز عثمان على الجنة بتلك التبرعات السخية.. ومن قبل تميز غيرهم بإبداعات رضي الله عنهم جميعاً.. فمن أراد أن ينظر إلى الصحابة نظرة الإسلام لهم فليسلط أضواء الشمس عليهم جميعاً ليرى كيف حركوا الدنيا وشغلوا العالم بتكاملهم وتنافسه وتميز كل فرد بقدرات وإنجازات وظفها النبي ﷺ أجمل ما يكون التوظيف.. أما أولئك الذين يزوِّرون حياة الصحابة باختزال الأضواء على حدث أو فرد فهم يسيئون للأحداث وللصحابة معاً.. كما يسيء هؤلاء المنافقون الذين يزرعون المدينة بالإرجاف والتخذيل والسخرية من ثقة المسلمين بأنفسهم وجرأتهم على حدود أقوى دولة في الدنيا..

ولم يكن علي وحده يلح في الخروج.. بعض المؤمنين المعدمين الذين تنوء ظروفهم بهممهم يتوجهون نحو:

النبي ﷺ وهو في حالة غضب

ربما من المنافقين.. أحد هؤلاء الفقراء رشحه أصحابه للتحدث وهو أبو موسى الذي يقول: «أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله لهم الحملان إذ هم معه في جيش العسرة وهي غزوة تبوك فقلت: يا نبي الله إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم فقال: والله لا أحملكم على شيء [وما عندي ما أحملكم عليه] ووافقته وهو غضبان ولا أشعر.. فرجعت حزيناً من منع رسول الله ﷺ.. ومن مخافة أن يكون رسول الله ﷺ قد وجد في نفسه علي.. فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم الذي قال رسول الله ﷺ.. فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالاً ينادي:

أي عبد الله بن قيس.. فأجبته.. فقال: أجب رسول الله ﷺ يدعوك..

فلما أتيت رسول الله ﷺ قال: خذ هذين القرينين وهذين القرينين وهذين القرينين لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد فانطلق بهن إلى أصحابك فقل: إن الله -أو قال: إن رسول الله ﷺ- يحملكم على هؤلاء فاركبوهن.

قال أبو موسى: فانطلقت إلى أصحابي بهن فقلت: إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء.. ولكن والله لا أدعكم حتى ينطلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ حين سألته لكم ومنعه في أول مرة ثم إعطاءه إياي بعد ذلك.. لا تظنوا أني حدثتكم شيئاً لم يقله.. فقالوا لي: والله إنك عندنا لمصدق ولنفعلن ما أحببت.. فانطلق أبو موسى بنفر منهم حتى أتوا الذين سمعوا قول رسول الله ﷺ ومنعه إياهم ثم إعطاءهم بعد فحدثوهم بما حدثهم به أبو موسى سواء»[1].. ثم انطلق الجميع خلفه عليه السلام محملين بالمعاناة وشظف العيش وقلة الزاد وكثير من الإيمان وقد «خرج يوم الخميس في غزوة تبوك وكان يحب أن يخرج يوم الخميس»[2].. ولم يبق في المدينة سوى علي وأهل الأعذار و:

ثلاثة رجال من الأغنياء يتخلفون

عن مصاحبة النبي ﷺ رغم أنهم ليسوا من المنافقين.. فأحدهم كان من أهل بيعة العقبة وهو الصحابي الشاعر كعب بن مالك رضي الله عنه الذي لم يتخلف عن غزوة أحد وما بعدها.. بل إنهم كانوا من أهل الاستعداد والإعداد لهذه الغزوة.. لكنه التسويف والثقة المفرطة بالنفس.. والوقت الذي لا يعرف الانتظار.. يقول كعب رضي الله عنه عن ظروف تخلفه: «لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أني كنت

(١) صحيح مسلم ٣-١٢٦٩ والزيادة له ١٢٦٨.

(٢) صحيح البخاري ج: ٣ ص: ١٠٧٨.

تخلفت في غزوة بدر و لم يعاتب أحداً تخلف عنها إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.. ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حيت تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها..

كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة.. و لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدواً كثيراً.. فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان- فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ما لم يترل فيه وحي الله وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال.. وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع و لم أقض شيئاً.. فأقول في نفسي: أنا قادر عليه فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه و لم أقض من جهازي شيئاً.. فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز.. فرجعت و لم أقض شيئاً.. ثم غدوت ثم رجعت و لم أقض شيئاً.. فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت فلم يقدر لي ذلك.. فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء»[1].

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦٠٣.

كان كعب يشعر بغربة داخل مدينته لأنه لم ير فيها إلا الضعفاء والمنافقين.. وهو ليس من هؤلاء ولا من هؤلاء.. هو من أولئك الذين يكابدون خلف النبي ﷺ لمجابهة الروم الذين تأهبوا للقضاء على هذه الدولة الجديدة.. لكنه التسويف الذي يورث الندم ويكدس الوظائف ويصيب الإنسان بالإحباط.. لم يكن كعب وحيداً في معاناته...

هلال بن أمية ومرارة بن الربيع يمران بالتجربة المريرة نفسها.. ولما تحدث الناس عنهما أمام كعب قال: مثنياً عليهما «ذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما إسوة»[1]

ثلاثة من السابقين إلى الإسلام يبحثون عن مخرج مما هم فيه ولا سبيل.. فالنبي عليه السلام الآن في طريقه يشق السراب والعطش والقفار في قيظ محرق ولهيب مشتعل.. وإذا كان هؤلاء الثلاثة قد فقدوا الأمل باللحاق به عليه السلام فإن رجلاً رابعاً لم يتسلل اليأس إلى نفسه.. إنه الرجل الذي تصدق بالصاع وسخر منه المنافقون:

أبو خيثمة يلحق بالنبي

في قصة تفيض بحب الله ورسوله.. يتحدث عنها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فيقول:

«حتى إذا سار رسول الله ﷺ رجع أبو خيثمة ذات يوم إلى أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائط قد رشت كل واحدة منهما عريشها.. وقد بردت له فيها ماء وهيأت له طعاماً فلما دخل قال: رسول الله ﷺ في الضح والريح والحر وأبو خيثمة في ظل بارد وماء بارد

(١) صحيح مسلم ٤-٢١٢٤.

وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم.. ما هـذا بالنصـف.. والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسـول الله ﷺ فهيئـا لي زاداً.. ففعلتا ثم قدم ناضحة فارتحل ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك.. وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهـب الجمحـي يطلب رسول الله ﷺ فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك قال لعمير:

إن لي ذنباً فلا عليك أن تخلف عني حتى أقدم على رسـول الله ﷺ فسار»[1] أبو خيثمة نحو النبي ﷺ الذي كان يعاني وأصحابه من لهيـب القيظ وشدة العطش إلى درجة لا يستطيع التعبير عنها إلا الذي عاناهـا وكابدها.. ومن بين هؤلاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث يقول: «خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننـا أن رقابنا ستنقطع.. حتى أن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجـع حتى يظن أن رقبته ستنقطع.. حتى أن الرجل ينحر بعيره فيعصـر فرثـه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده.. فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله.. إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا.. فقال: أتحب ذلـك؟ قـال: نعم.. فرفع يده فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأظلمت.. ثم سـكبت فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر.. فلم نجدها جازت العسكر»[2]

---

(١) سنده قوي وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق: حدثني محمد بن طلحة بن يزيد بن ركانة عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص أنه سمع أبا سعد بن أبي وقاص وقد مر تخريجـه وله شاهد عند الطبراني ٦-٣١.

(٢) سنده صحيح رواه ابن خزيمة ١-٥٣ من طريق ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن عتبة بن أبي عتبة عن نافع بن جبير عن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب حدثنا من شأن العسرة فقال وهذا السند صحيح ولا يضره ما ذكـره الدارقطني في العلل ٢-٨٣ بقوله وخالفهم يعقوب بن محمد الزهري فرواه عن وهب ولم يذكر في الإسناد عتبة جعله بن أبي هلال عن نافع بن جبير والقول فيه قول من ذكر عتبة =

المطر كان على معسكر المؤمنين فقط..

معاناة شديدة تكشف عن طبيعة هذا الدين.. وأن الله قضى أن لا ينتشر ويحكم في الأرض إلا بجهد البشر وتضحياهم وبدون ذلك لن يتمكن أبداً.. أما المعجزات الحسية فهي أدلة وبراهين تأتي مع الأنبياء وترتحل معهم.. لكن المعجزات تقف أحياناً طويلاً على أبواب موصدة بأقفال صدئة كأبواب المنافقين التي أقفلوها وأقفلوا عقولهم دونها قديماً وحديثاً..

المنافقون لا تنفع معهم حتى المعجزات

في الطريق إلى تبوك مثال كالشمس.. معجزة إلهية فوق السماء وآثارها على الأرض لا تحتاج إلى بيان لكن عقول المنافقين قد تعفنت مع الزمن والعناد.. سأل رجل أحد الصحابة عن النفاق والمنافقين فقال له: «هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم قال: نعم والله إن كان الرجل ليعرفه من أخيه ومن أبيه ومن بني عمه ومن عشيرته ثم يلبس بعضهم بعضاً على ذلك.. لقد أخبرني رجل من قومي عن رجل من ا لمنافقين معروف نفاقه كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار.. فلما كان من أمر الحجر ما كان ودعا رسول الله ﷺ حين دعا فأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس أقبلنا عليه نقول: ويحك أبعد هذا شيء؟ قال: سحابة مارة ثم إن رسول الله ﷺ سار حتى كان ببعض الطريق ضلت ناقته فخرج أصحاب رسول الله ﷺ في طلبها وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه يقال له عمارة بن حزم.. وكان عقبياً بدرياً وهو من بني عمرو بن مخزوم

=

ابن أبي عتبة وهو عتبة بن مسلم.. والسبب فيما أقول هو أن يعقوب سيئ الحفظ. التقريب ٢-٣٧٧.

وكان في رحله يزيد بن نصيب القينقاعي وكان منافقاً فقال يزيد وهو في رحل عمارة وعمارة عند النبي عليه السلام: أليس محمد يزعم أنـــه نـــبي ويخبركم عن خبر السماء ولا يدري أين ناقته؟

فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده: إن رجلاً قال: هـــذا محمـــد يخبركم أنه نبي ويزعم أنه يخبركم بخبر السماء وهو لا يدري أين ناقته.. وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله وقد دلني عليها وهي في هذا الوادي من شعب كذا وكذا وقد حبستها شجرة بزمامها.. فـــانطلقوا حـــتى تأتوني بها فذهبوا فجاءوا بها فرجع عمارة بن حزم إلى رحله فقال: والله لأعجب من شيء حدثناه رسول الله ﷺ آنفاً عن مقالة قائل أخبره الله عنه كذا وكذا للذي قال: يزيد بن نصيب.. فقال رجل ممن كـــان في رحل عمارة و لم يحضر رسول الله ﷺ ابن نصيب والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي.. فأقبل عمارة على يزيد يجافي عنقه ويقول يا آل عباد الله إن في رحلي لداهية وما أشعر أخرج أي عدو والله من رحلـــي فـــلا تصحبني»[1] ولا يلام عمارة بما فعله بيزيد المنافق هذا.. فهؤلاء الذين أغلقوا ضمائرهم وعقولهم وأكل الحسد والعناد قلوبهم واستنفدوا كل طرق الإقناع لا يجدي معهم سوى الترك لأنه لا فائدة ترجى ولا أمل يبقى.. ومصاحبتهم إهدار لوقت يستحقه غيرهم ممن يتلهفون للحقيقة والتوحيد.. الخوف كان يخيم على بعض مراحل الطريق.. يقول المتدلي من حصن الطائف نحو الإسلام.. أبو بكرة رضي الله عنه: «صلى الـــنبي ﷺ في خوف الظهر فصف بعضهم خلفه وبعضهم بإزاء العدو فصلى بهم

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه ابن حزم في المحلى ١١-٢٢٢ والطـــبري في التاريخ ٢-١٨٤: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان الطفري قال: قلت لمحمود ابن لبيد: وعاصم تابعي مر معنا كثيراً ثقة عالم بالمغازي وشيخه صحابي.

ركعتين ثم سلم فانطلق الذين صلوا معه فوقفوا موقف أصحابهم ثم جاء أولئك فصلوا خلفه فصلى بهم ركعتين ثم سلم فكانت لرسول الله ﷺ أربعاً ولأصحابه ركعتين ركعتين»[1] كما كان عليه الصلاة والسلام يجمع في طريق ذلك بالطريقة التي يقول عنها «معاذ بن جبل أن النبي ﷺ كان في غزوة تبوك إذا ارتحل قبل زيغ الشمس أخر الظهر حتى يجمعها إلى العصر فيصليهما جميعاً وإذا ارتحل بعد زيغ الشمس صلى الظهر والعصر جميعاً ثم سار وكان إذا ارتحل قبل المغرب أخر المغرب حتى يصليها مع العشاء وإذا ارتحل بعد المغرب عجل العشاء فصلاها مع المغرب»[2] هذا عن الصلاة وطريقة جمعها وقصرها..

أما عن:

الصيام في السفر الشاق

الصيام في هذا السفر الشاق حدث من بعض الصحابة.. «جابر بن عبد الله قال خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة تبوك وكانت تدعى غزوة العسرة فبينما نسير بعدما أضحى النهار فإذا هو بجماعة تحت ظل شجرة

(١) سنده على شرط البخاري رواه أبو داود وغيره داود ٢-١٧ من طرق عن أبي حرة والأشعث وهما ثقتان عن الحسن عن أبي بكرة قال وقد سمع الحسن من أبي بكرة فتبقى عنعنته ولذلك قلت أنه على شرط الإمام البخاري لأنه رحمه الله روى بهذا السند أربعة أحاديث وربما أكثر في: الركوع دون الصف.. وصلاة الكسوف.. وحديث تولية المرأة.. وحديث أن الحسن سيصلح به الله بين فئتين.. وأبو بكرة لم يسلم إلا بعد حنين.

(٢) سنده صحيح رواه الترمذي ٢-٤٣٨ وابن حبان ٤-٣١٣ والبيهقي في سننه الكبرى ٣-١٦٣ وغيرهم عن قتيبة بن سعيد الثقفي ثنا الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ويزيد تابعي ثقة فقيه و لم ينفرد بل تابعه أبو الزبير وقد عنعن لكن لا يضره ذلك فهو من طريق الليث كذلك صرح أبو الزبير بالسماع عند الدارمي ١-٤٢٦ وأبو الطفيل صحابي.

فقالوا يا رسول الله رجل صام فجهده الصوم فقال ﷺ ليس البر أن تصوموا في السفر»[1]

كان النبي ﷺ وأصحابه قد وصلوا إلى مكان اسمه حجر ثمود وهو ما يسمى بـ (مدائن صالح) وهو المكان الذي كانت تعيش فيه قبيلة ثمود وهم قوم النبي صالح عليه الصلاة والسلام الذي أهلكهم الله بعد كفرهم وقتلهم الناقة التي جعلها الله آية ومعجزة لنبيه.. وبعد:

الوصول إلى ديار ثمود

أسرع بعض الصحابة يروون عطشهم ويستسقون الماء ويعدون الطعام مستخدمين الماء الموجود في هذا المكان.. لكنهم فوجئوا بصوت مرتفع يناديهم:

الصلاة جامعة.. الصلاة جامعة...

وهي لفظة ينادي بها النبي ﷺ أصحابه للاجتماع داخل المسجد أو خارجه.. فما الذي حدث.. يقول أحد الصحابة:

«نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستسقى الناس من الآبار التي كان يشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم»[2] و«لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا

---

(١) سنده قوي رواه ابن حبان ٨-٣٢١ حدثنا عمارة بن غزية عن محمد بن عبد الرحمن بن زرارة عن جابر وهو سند حسن من أجل عمارة وقد أخطأ والصواب هو ما قاله ابن أبي حاتم في العلل ١-٣٣١ قال أبي روى هذا الحديث شعبة عن محمد بن عبد الرحمن عن محمد بن عمرو بن الحسن عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ ومحمد بن عمرو تابعي ثقة وكذلك تلميذه.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري وأحمد واللفظ له وسند أحمد صحيح ٢-١١٧ حدثنا عبد =

من بئرها ولا يستقوا منها فقالوا قد عجنا منـها واستقينا فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء»[(١)] و«قال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم ثم تقنع بردائه وهو على الرحل»[(٢)] «ثم زجر فأسرع حتى خلفها»[(٣)] ونهض الصحابة «فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا قال إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم»[(٤)] «وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة»[(٥)] فامتثلوا أمر نبيهم عليه السلام ثم قام النبي ﷺ في أصحابه خطيباً وحدثهم عن قوم صالح وعن مصير الرجل الشهير أبي رغال. فما هي..

خطبة النبي ﷺ

يقول جابر رضي الله عنه: «لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: لا تسألوا الآيات وقد سألها قوم صالح فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج.. فعتوا عن أمر ربهم فعقروها فكانت تشرب ماءهم يوم ويشربون لبنها يوما.. فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله عز وجل من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله عز وجل قيل:

الصمد حدثنا صخر يعني بن جويرية عن نافع عن بن عمر قال وصخر ثقة من رجال الشيخين: التقريب ١-٣٦٥ وهو عند البخاري بلفظ آخر.. انظر ما بعده.

(١) صحيح البخاري ٣-١٢٣٦.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٢٣٧.

(٣) صحيح مسلم ٤-٢٢٨٦.

(٤) هو جزء من حديث أحمد السابق أحمد ٢-١١٧.

(٥) صحيح البخاري ٣-١٢٣٧.

من هو يا رسول الله؟ قال: هو أبو رغال.. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»(١)

ويبدو أن غزوة تبوك ستكون حافلة بالدروس لكن هل ستكون حافلة بالدماء.. غادر النبي ﷺ وجيشه أرض ثمود:

نحو وادي القرى

وهي مدينة بين تبوك والمدينة وفيها مر النبي ﷺ بحديقة امرأة مسلمة فكان هذا الحوار الذي يذكره أحد الصحابة فيقول «خرجنا مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك فأتينا وادي القرى على حديقة لامرأة فقال رسول الله ﷺ اخرصوها فخرصناها وخرصها رسول الله ﷺ عشرة أوسق وقال أحصيها حتى نرجع إليك إن شاء الله وانطلقنا حتى قدمنا تبوك»(٢)

والخرص هو تقدير ما على النخل من رطب تمهيداً لأخذ زكاته.. وكان تقدير النبي ﷺ لرطب المرأة أنه يبلغ عشرة أوسق أي ستمائة صاع لأن الوسق يساوي ستين صاعاً.

خرص النبي ﷺ الرطب ثم غادر وادي القرى متوجهاً نحو تبوك في:

طريق مفروش بالمعجزات والدروس..

فقد كان عليه السلام يجمع في طريقه ذلك ويقصر كعادته في أسفاره:

---

(١) صحيح رواه أحمد ٣-٢٩٦ ثنا عبد الرزاق ثنا معمر عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير عن جابر وهذا السند على شرط مسلم لكن أبا البير مدلس وقد عنعن لكنه صرح بالسماع عند الفاكهي في أخبار مكة ٢-٢٥١.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٧٨٥.

يقول أنس رضي الله عنه «كان رسول الله ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ صلى ركعتين»[1] وقد سئل عليه السلام عما يضعه المصلي أمامه كي لا يقطع أحد صلاته «سئل في غزوة تبوك عن سترة المصلي فقال كمؤخرة الرحل»[2]

أي العود الموجود في آخر المقعد الموجود في رحل البعير.. ويقول معاذ رضي الله عنه:

«خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك فكان يجمع الصلاة فصلى الظهر والعصر جميعاً والمغرب والعشاء جميعاً.. حتى إذا كان يوماً أخر الصلاة ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعاً ثم دخل ثم خرج بعد ذلك فصلى المغرب والعشاء جميعاً

ثم قال: إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي

فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء

فسألهما رسول الله ﷺ: هل مسستما من مائها شيئاً قالا: نعم فسبهما النبي ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول.. ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر أو غزير حتى استسقى الناس.. ثم قال: يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملئ جناناً»[3].

---

(١) صحيح مسلم ١-٤٨١ وبعد كلمة أميال قال الراوي: شعبة الشاك أي أن الإمام شعبة شك.

(٢) صحيح مسلم ١-٣٥٩.

(٣) صحيح مسلم ٤-١٧٨٤ وقد تحققت المعجزة الأخرى اليوم فتبوك اليوم من أكبر المناطق الزراعية.

نبي تقله المعجزات وتظله ويلهج بها لأجيال لم تخلق أصلاب آبائها بعد..

وحين انتهى عليه السلام إلى تبوك توقف الجيش فلم يجد أحداً..

أين الروم

أين جيشهم الذي لا يقهر

أين دولتهم التي أولها في أقاصي أوروبا وآخرها ليس في تبوك

لا أحد على هذه الأرض سوى النبي وأصحابه والمعجزات.. نزل النبي ﷺ وأقيم معسكر كبير جداً.. وفي أحد مجالس النبي ﷺ بين أصحابه افتقد صاحبه كعب بن مالك وسأل عنه فكانت الإجابة نقداً لاذعاً لكعب تفوه بها أحد الجالسين.. يقول كعب وهو يروي مأساته وأحزانه:

«ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه ونظره في عطفيه.. فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت.. والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً.. فسكت رسول الله ﷺ»(١)

فكعب من أهل العقبة وأحد والخندق وكل الغزوات.. وما فعله معاذ ابن جبل رضي الله عنه من دفاع عن عرض أخيه الغائب هو استيعاب معاذ لمعنى الأخوة.. وامتثال لقوله عليه السلام «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»(٢)

فالغائب له أعذاره ومبررات غيابه ولا مجال للقذف والتكهنات في

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦٠٤.

(٢) سنن الترمذي ٤-٣٢٧ وهو صحيح انظر صحيح السنن للإمام الألباني رحمه الله.

حياة المسلم النقي.. فمن أجمل ما يزين به المرء حياته وقلبه حسن الظن وسلامة الصدر.. كما يزين النبي ﷺ وأصحابه اليوم أرض تبوك..

وبينما كان الصحابة حول نبيهم في مجلسهم الودي هذا لاح بهم بين السراب بياض يموج خلاله.. بعد أن «رأى رجلاً مبيضاً يزول به السراب فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون»(١)

«فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله هذا أبو خيثمة فلما أناخ سلم على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: أولى لك أبا خيثمة فقص عليه خبره فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقال له خيراً»(٢)

وبعد أن مرت أيام على هذا المعسكر وتبين أن الروم قد أصابهم الخوف والرعب من هذا الجيش الجائع الذي يعاني الآن من:

مجاعة على أرض تبوك

«لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة قالوا يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادهنا؟ فقال رسول الله ﷺ: افعلوا.. فجاء عمر فقال: يا رسول الله.. إن فعلت قَلَّ الظَّهر.. ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ثم ادع الله لهم عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك.. فقال رسول الله ﷺ: نعم.. فدعا بنطع فبسطه.. ثم دعا بفضل أزوادهم قال: فجعل الرجل يجيء بكف ذرة قال ويجيء الآخر بكف تمر.. قال: ويجيء

---

(١) صحيح مسلم ٤-٢١٢٢.

(٢) سنده قوي وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق: حدثني محمد بن طلحة بن يزيد بن ركانة عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص أنه سمع أبا سعد بن أبي وقاص وقد مر تخريجه وله شاهد عند الطبراني ٦-٣١.

الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير.. فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة.. ثم قال: خذوا في أوعيتكم فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة.. فقال رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة»[1]

معجزات كثيرة طمأنت قلوب المؤلفة قلوبهم ومسلمي الفتح ومسلمي حنين وغيرهم..

وهي ليست غريبة على عمر الذي طلبها من رسول الله ﷺ.. وبعد فماذا سيفعل عليه السلام ولا حرب ولا روم هنا ولا فائدة من البقاء في مكان لا يرون فيه سوى الجوع والعطش..

لقد قرر النبي ﷺ أن يبقى أياماً جاعلاً أرض تبوك مركزاً لنشاطات عسكرية وسياسية مختلفة.. وأول المستهدفين بتلك النشاطات هم من جاء من أجلهم: الروم.. لقد قرر ﷺ

إرسال رسالة إلى قيصر الروم

«قال رسول الله ﷺ: من ينطلق بصحيفتي هذه إلى قيصر وله الجنة.. فقال رجل من القوم: وإن لم أقتل؟ قال: وإن لم تقتل.. فانطلق الرجل به فوافق قيصر وهو يأتي بيت المقدس قد جعل له بساط لا يمشي عليه غيره فرمى بالكتاب على البساط وتنحى.. فلما انتهى قيصر إلى الكتاب أخذه ثم دعا رأس الجاثليق فأقرأه فقال: ما علمي في هذا الكتاب إلا كعلمك.. فنادى قيصر: مَنْ صاحب الكتاب فهو آمن؟ فجاء الرجل فقال: إذا أنا

(١) صحيح مسلم ١-٥٦.

قدمت فأتني فلما قدم أتاه فأمر قيصر بأبواب قصره فغلقت ثم أمر منادياً ينادي: ألا إن قيصر قد اتبع محمداً ﷺ وترك النصرانية.. فأقبل جنده وقد تسلحوا حتى أطافوا بقصره فقال لرسول رسول الله ﷺ: قد ترى إني خائف على مملكتي ثم أمر منادياً فنادى ألا إن قيصر قد رضي عنكم وإنما خبركم لينظر كيف صبركم على دينكم فارجعوا.. فانصرفوا.. وكتب قيصر إلى رسول الله ﷺ: إني مسلم وبعث إليه بدنانير.. فقال رسول الله ﷺ: حين قرأ الكتاب كذب عدو الله ليس بمسلم وهو على النصرانية وقسم الدنانير»(١)

كانت هذه الإجابة المرتبكة تدل على أن الروم وعلى رأسهم قيصر بدأوا بمطالعة كتبهم المقدسة ومراجعة نبواتها وظهر خوفهم الشديد من هذا النبي التي تشير جميع النبوات في الكتاب المقدس إلى صدقه وصدق ما جاء به.. لكنها السلطة التي تكمم الأفواه وتغلق القلوب وتحرم صاحبها من اتباع الحق.. ففي داخل بئر بدر يتعفن أحد الأدلة.. وعلى أرض بني النضير وقينقاع وخيبر أدلة أخرى من الحسد والعناد لهذا النبي وكأن كونه عربي النسب سبة على بني إسرائيل الذين أهانوا النبوة والأنبياء بما فيه الكفاية..

كان ارتباك قيصر وخوفه دافعاً لملك مدينة تدعى أيلة على ساحل البحر الأحمر أن يأتي بنفسه يحمل هداياه ويقدم الولاء للنبي ﷺ «جاءه

(١) سنده صحيح رواه ابن حبان ١٠-٣٥٧ أخبرنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم مولى ثقيف قال حدثنا أبو يحيى محمد بن عبد الرحيم صاعقة قال حدثنا علي بن بحر قال حدثنا مروان ابن معاوية الفزاري قال حدثنا حميد عن نس بن مالك قال وهذا السند صحيح. حميد الطويل تابعي ثقة سمع من أنس وتلميذه الفزاري ثقة حافظ. التقريب ٢-٢٣٩ وتلميذه علي ثقة فاضل. التقريب ٢-٣٢. وصاعقة ثقة. حافظ التقريب ٢-١٨٥ وابن إسحاق قال عنه الخطيب في تاريخ بغداد ١-٢٤٨: كان من المكثرين الثقات الصادقين الأثبات عَنِيَ بالحديث وصنف كتباً كثيرة وهي معروفة مشهورة.

ملك أيلة وأهدى لرسول الله ﷺ بغلة بيضاء فكساه رسول الله ﷺ بـــرداً وكتب له رسول الله ﷺ»[1] «كتب له ببحرهم»[2] أي أبقاه الـــنبي ﷺ ملكاً على أيلة.. ثم بعث بسرية إلى مكان آخر هو

دومة الجندل

«بعث إلى أكيدر صاحب دومة بعثاً»[3] وأوكل قيادة هذه الســـرية إلى الفارس والقائد الذي لا يهزم: خالد بن الوليد رضي الله عنه.. وريثما يعود خالد من مهمته دعونا نتجول داخل هذا المعسكر الذي حوله النبي ﷺ مـــن معسكر جيش إلى مدرسة يتعلم منها الجميع.. حيث «أقام رســـول الله ﷺ بتبوك عشرين يوماً»[4] وفي إحدى تلك الليالي وبعد أن فرغ من صلاته قام

النبي ﷺ يبشر أصحابه بخمس

خمس هبات من الله لنبيه ولهذه الأمة تفيض رحمة ورأفة بهم.. وعزاء لهذا الجيش الذي عانى الكثير ولم يسعد بلقاء العدو وقطف الشـــهادة.. يقول أحد المشاركين في هذه الغزوة:

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٥٣٩ وابن حبان ١٠-٣٥٥ واللفظ الأول له.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٥٣٩ وابن حبان ١٠-٣٥٥ واللفظ الأول له.

(٣) سنده حسن رواه النسائي ٨-١٩٩ وغيره من طريق محمد بن عمرو عن واقد بن عمـــرو ابن سعد بن معاذ قال دخلت على أنس بن مالك حين قدم المدينة فسلمت عليه فقال ممن أنت قلت أنا واقد بن عمرو بن سعد بن معاذ قال إن سعداً كان أعظم الناس وأطوله ثم بكى فأكثر البكاء ثم قال إن رسول الله ﷺ... وواقد تابعي ثقة من رجال مسلم: التقريب ٢-٣٢٩ وتلميذه حسن الحديث من رجال الشيخين: التقريب ٢-١٩٦.

(٤) سنده صحيح رواه أحمد ٣-٢٩٥ ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن يحيى بن أبي كثير عن محمد ابن عبد الرحمن بن ثوبان عن جابر بن عبد الله قال: وابن ثوبان تابعي ثقة مـــن رجـــال الشيخين: التقريب ٢-١٨٢ وتلميذه مثله والبقية أئمة.

يقول عبد الله بن عمرو بن العاص: «إن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه حتى إذا صلى وانصرف إليهم فقال لهم لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلي:

أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه.

ونصرت على العدو بالرعب ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملئ منه رعباً..

وأحلت لي الغنائم آكلها وكان من قبلي يعظمون أكلها كانوا يحرقونها..

وجعلت لي الأرض مساجد وطهوراً أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت وكان من قبلي يعظمون ذلك إنما كانوا يصلون في كنائسهم وبيعهم..

والخامسة هي ما هي قيل لي سل فإن كل نبي قد سأل فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله»[1] ويقصد بها شفاعته لأمته يوم القيامة حيث يقول «ﷺ لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً»[2]

وقد أعطى الله للنبي ﷺ أربع شفاعات يوم القيامة:

الأولى: هي الكبرى وهي التي يقبلها ﷺ تلبية لنداء البشر جميعاً بعدما

(١) سنده قوي رواه أحمد ٢-٢٢٢ وغيره من طرق عن يزيد بن الهاد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه.. يزيد بن الهاد تابعي صغير وثقة مكثر: التقريب ٢-٣٦٧ وعمرو عن أبيه عن جده إسناد حسن معروف.

(٢) صحيح مسلم ١-١٨٢.

يعتذر الأنبياء للناس عن مخاطبة الجبار يوم القيامة.. يقول ﷺ: «إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون له: اشفع لذريتك فيقول: لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها ولكن عليكم بموسى عليه السلام فإنه كليم الله فيؤتى موسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته فيؤتى عيسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بمحمد ﷺ فأوتى فأقول أنا لها»(١).

الثانية: شفاعته لأهل الكبائر من أمته يقول ﷺ: «فأقول: أنا لها.. فأنطلق فأستأذن على ربي فيؤذن لي فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن يلهمنيه الله ثم أَخِرُّ له ساجداً فيقال لي: يا محمد.. ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع.. فأقول: رب أمتي أمتي.. فيقال: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها فأنطلق فأفعل ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع فأقول أمتي أمتي فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها فأنطلق فأفعل ثم أعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع فأقول: يا رب أمتي أمتي فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار فأنطلق فأفعل»(٢)

---

(١) صحيح مسلم ١-١٨٩.

(٢) صحيح مسلم ١-١٨٣.

الثالثة: شفاعته لإخراج أناس من أهل النار من الذين ارتكبوا ذنوباً كبيرة وكثيرة لكنها لم تصل إلى حد الشرك الأكبر.. وهي الشفاعة التي يختص بها الله سبحانه وتعالى.. يقول ﷺ: «ثم أرجع إلى ربي في الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً فيقال لي: يا محمد.. ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله قال ليس ذاك لك أو قال ليس ذاك إليك ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وكبريائي لأخرجن من قال لا إله إلا الله»(١)

الرابعة: شفاعته لعمه أبي طالب أن يخفف عنه من العذاب فيوضع على جمرتين على شكل نعلين من النار يغلي منهما دماغه يقول «أبو سعيد الخدري: إن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه»(٢)

كان الصحابة ينصتون إلى تلك الهبات الإلهية ويرجون الله شفاعة نبيه ﷺ.. وكان النبي ﷺ يواصل تعليمه وتثقيفه لأتباعه في أي مكان وأي زمان.. هاهو داخل خيمته الصغيرة التي تقصدها خطوات الصحابي عوف بن مالك وبعدما وصل قال رضي الله عنه: «أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك [في آخر السحر وهو في فسطاطه فسلمت عليه وقلت: أأدخل يا رسول الله؟ فقال: ادخل.. فقلت: كلي؟ فقال: كلك].. وهو في قبة من أدم فقال عدد ستاً بين يدي الساعة:

موتى

(١) صحيح مسلم ١-١٨٣.

(٢) صحيح مسلم ١-١٩٥.

ثم فتح بيت المقدس

ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم

ثم استفاضة المال حتى يعطي الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً

ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته

ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً»(1) وهذا الحديث من معجزاته عليه السلام.. وأما دروسه لأمته في هذه الغزوة فلم تنته ها هو يواصل تعليم أصحابه أمراً يتعلق بالنظافة والصلاة يعلمهم..

دروساً في المسح على مقدمة الرأس والعمامة والخفين

وكان رفيقه في تلك الليلة صاحبه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه الذي يقول:

«أنه غزا مع رسول الله ﷺ تبوك»(2):

«فقال: يا مغيرة خذ الإداوة.. فأخذتها ثم خرجت معه.. فانطلق رسول الله ﷺ حتى توارى عني فقضى حاجته ثم جاء وعليه جبة شامية ضيقة الكمين فذهب يخرج يده من كمها فضاقت عليه فأخرج يده من أسفلها فصببت عليه فتوضأ وضوءه للصلاة»(3)

«فحملت معه إداوة قبل صلاة الفجر فلما رجع رسول الله ﷺ إليّ أخذت أهريق على يديه من الإداوة وغسل يديه ثلاث مرات ثم غسل

---

(1) صحيح البخاري ٣-١١٥٩ والزيادة صحيحة وهي عند الحاكم ٣-٦٣٠ وغيره.

(2) حديث صحيح رواه مسلم ١-٣١٧.

(3) حديث صحيح رواه مسلم ١-٢٢٩.

وجهه ثم ذهب يخرج جبته عن ذراعيه فضاق كما جبته فأدخل يديه في الجبة حتى أخرج ذراعيه من أسفل الجبة وغسل ذراعيه إلى المرفقين»(١) «فمسح بناصيته وعلى العمامة»(٢) «مقدم رأسه وعلى عمامته»(٣) عندها أراد المغيرة رضي الله عنه أن يخدم النبي ﷺ بترع الخفين من قدميه الشريفتين لكن ذلك لم يحدث.. يقول المغيرة:

«فأهويت لأنزع خفيه فقال دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين فمسح عليهما»(٤) أي أن النبي ﷺ لبس الخف وهو متوضئ وإلا لما مسح على الخف.. كما بين عليه السلام لصحابته مدة المسح على الخفين التي تبدأ من أول مسحة.. يقول أحد الصحابة واسمه عوف بن مالك: « إن رسول الله ﷺ أمر بالمسح على الخفين في غزوة تبوك ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ويوم وليلة للمقيم»(٥) ولما فرغ النبي ﷺ من وضوءه وطهارته توجه مع صاحبه المغيرة لأداء صلاة الفجر فكان في ذهابهما:

درس آخر في الصلاة

يقول: «المغيرة فأقبلت معه حتى نجد الناس قد قدموا عبد الرحمن بن عوف فصلى لهم.. فأدرك رسول الله ﷺ إحدى الركعتين فصلى مع الناس الركعة الآخرة.. فلما سلم عبد الرحمن بن عوف قام رسول الله ﷺ يتم

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١-٣١٧.

(٢) صحيح مسلم ١-٢٣١.

(٣) صحيح مسلم ١-٢٣١.

(٤) صحيح البخاري ١-٨٥.

(٥) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ١-١٦١ حدثنا هشيم بن بشير قال أخبرنا داود بن عمر عن بسر بن عبد الله الحضرمي عن أبي إدريس الخولاني قال حدثنا عوف بن مالك الأشجعي: هشيم لم يدلس والبقية ثقات وهو متصل.

صلاته فأفزع ذلك المسلمين.. فأكثروا التسبيح فلما قضى النبي ﷺ صلاته أقبل عليهم ثم قال: أحسنتم.. أو قال: قد أصبتم.. يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها»[1].

لم يستفد الصحابة من دروس العبادة فقط كان هناك

درس في الأحكام الجنائية

فقد حدث بين بعض الرجال ما يحدث بين البشر من نزاع وسوء تفاهم قد يصل إلى الاشتباك بالأيدي أحياناً.. وقد وصلت الأمور هذه المرة إلى الاشتباك فتضرر أحد الطرفين فذهب مشتكياً للنبي ﷺ الذي كان يؤدي دور القائد والأخ والقاضي والمعلم وقبل ذلك النبي.. صحابي اسمه: يعلى بن منية «رضي الله عنه قال: غزوت مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك فحملت على بكر فهو أوثق أعمالي في نفسي.. فاستأجرت أجيراً فقاتل رجلاً فعض أحدهما الآخر فانتزع يده من فيه ونزع ثنيته.. فأتى النبي ﷺ فأهدرها[2] فقال: أيدفع يده إليك فتقضمها كما يقضم الفحل»[3] فتعلم الصحابة أن خسائر المعتدي لا تعوض لاعتدائه ولأنه هو السبب فيها لا خصمه.. وإذا كان أحد الصحابة قد خسر أحد أسنانه فإن آخراً كاد أن يفقد حياته عندما حذر عليه السلام أصحابه:

أمراً مرعباً سيحدث على أرض تبوك

ومعجزة أخرى ستحدث على أرض المعجزات - تبوك.. يقول أحد

---

(١) صحيح مسلم ١-٣١٧.

(٢) أي لم يعوضه.

(٣) صحيح البخاري ٣-١٠٨٦.

الذين شاهدوا تلك الحادثة: «قدمنا تبوك فقال رسول الله ﷺ ستهب عليكم الليلة ريح شديدة فلا يقم فيها أحد منكم فمن كان له بعير فليشد عقاله فهبت ريح شديدة فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلي طيء»(١) أما كيف عرف هذا الصحابي بمكان أخيه فهذا ما سنعرفه بعد العودة للمدينة التي يبدو أنها قد اقتربت.. فبعد أن «أقام رسول الله ﷺ بتبوك عشرين يوماً»(٢) قال أبو هريرة رضي الله عنه: « إن رسول الله ﷺ قام فينا يوم تبوك فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: إن الله أذن لكم بهذا المسير وقد أذن لكم بالرجوع [والذي نفس محمد بيده لولا أنه ليس عندي سعة فأعطيكم ولا تطيب أنفسكم أن تقعدوا خلفي ما قعدت خلف سرية ولا بعث من المسلمين فلوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيى ثم أقتل ثم أحيى بعدها مراراً.. جرح الرجل.. جرح في سبيل الله والله أعلم بمن يجرح في سبيله يأتي يوم القيامة كلون الدم وريح المسك»(٣) فتأهب الجميع للعودة إلى المدينة ثم تحركوا.. وبعد أن انطلق الجيش وخلال الطريق وجد معاذ بن جبل رضي الله عنه نفسه أقرب الناس إلى

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٨٥.

(٢) سنده صحيح رواه أحمد ٣-٢٩٥ ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن يحيى بن أبي كثير عن محمد ابن عبد الرحمن بن ثوبان عن جابر بن عبد الله قال: وابن ثوبان تابعي ثقة من رجال الشيخين: التقريب ٢-١٨٢ وتلميذه مثله والبقية أئمة.

(٣) سنده حسن رواه ابن أبي عاصم في السنة ١-١٧٧ حدثنا ابن مصفى حدثنا بقية بن الوليد ثنا الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني عن أبي مريم عن أبي هريرة.. قال الإمام الألباني رحمه الله: إسناده حسن وفي ابن مصفى كلام يسير وبقية من جهة تدليسه ولكنه صرح بالتحديث وأبو مريم هو الأنصاري الشامي وهو ثقة وهو كما قال رحمه الله.. وفي ترجمة محمد بن مصفى أنه مدلس لكنه صرح بالسماع هنا والزيادة عند الطبراني في مسند الشاميين ٢-٣٣ وهي صحيحة لأنها زيادة الثقة يزيد بن عبد ربه الجرجسي وقد تابع محمد بن مصفى في روايته.

النبي ﷺ ووجدها فرصة لا يمكن تفويتها.. لذلك قدم استفساراً يلح على مشاعره بشدة.. فقال رضي الله عنه:

«أقبلنا مع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك فلما رأيته»[1] و«وقد أصاب الحر فتفرق القوم حتى نظرت فإذا رسول الله ﷺ أقربهم مني فدنوت منه

فقلت: يا رسول الله أنبئني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار

قال: لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤتي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان

قال: وإن شئت أنبأتك بأبواب الجنة.. قلت أجل يا رسول الله

قال: الصوم جنة والصدقة تكفر الخطيئة وقيام الرجل في جوف الليل يبتغي وجه الله.. ثم قرأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ قال: وإن شئت أنبأتك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه.. قلت: أجل يا رسول الله..

قال: أما رأس الأمر فالإسلام.. وأما عموده فالصلاة.. وأما ذروة سنامه فالجهاد في سبيل الله

وإن شئت أنبأتك بملاك ذلك كله.. فسكت.. فإذا راكبان يوضعان قبلنا فخشيت أن يشغلاه عن حاجتي قال: فقلت: ما هو يا رسول الله؟

(١) حديث حسن رواه ابن أبي شيبة ٦-١٥٨ أحمد ٥-٢٣٧ عن شعبة عن الحكم قال سمعت عروة بن النزال يحدث عن معاذ بن جبل وسنده فيه ضعف من أجل الراوي عن معاذ لكن يشهد له ما بعده ففيه متابعة قوية له.

فأهوى بإصبعه إلى فيه قال: فقلت: يا رسول الله.. وإنا لنؤاخذ بما نقول بألسنتنا قال:

ثكلتك أمك ابن جبل.. هل يُكبُّ الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم»[1] لقد تحولت حياة هؤلاء العرب الأجلاف بهذا النبي إلى حياة أخرى.. نظافة وعبادة نقية وعلم وثقافة.. بل أصبح العلم والثقافة في مقدمة اهتماماتهم.. وأصبح رضى الله هو هدف الحصول على هذا العلم.. وبذلك ولدت أمة جديدة تجعل العلم نوعاً العبادات.. والنظافة نوعاً من العبادات.. والحركة نوعاً من العبادات حتى حركة اللسان وسكونه حوَّلَها الإسلام إلى عبادة..

كان ﷺ يحدث أصحابه عن اللسان وخطورته وكأنه يستشعر تلك الأفاعي التي يخفيها المنافقون داخل أفواههم والتي تتلمظ لنهش أعراض الصحابة وتشويه صورهم.. وقد حدث ذلك في أحد المجالس التي شملت بعض المنافقين.. حيث قام هؤلاء

المنافقون يسخرون من النبي ﷺ وصحابته

فقد «قال رجل في غزوة تبوك في مجلس ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء فقال رجل في المسجد كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ

---

(١) سنده قوي رواه الحاكم ٢-٤٤٧ من طريقين عن الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت والحكم بن عتيبة عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ بن جبل رضي الله عن: وميمون تابعي صدوق: التقريب ٢-٢٩١ والحكم وحبيب تابعيان ثقتان وله شاهد حسن الإسناد عند أحمد ٥-٢٣١ ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ بن جبل.

ونزل القرآن فقال عبد الله بن عمرو: أن رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾»(1)

فالسخرية من الله أو رسوله ﷺ أو القرآن والسنة لا تعني سوى الازدراء والاحتقار ولا يمكن تغليفها بأي غلاف آخر يخفي حقيقة الغيض والتبرم.. وهو أسلوب منحط وسافل لا ينتهجه سوى العاجزين عن مطاولته والنيل منه.. فالسخرية ديدن الفاشلين والوضعاء من البشر.. لكن كما يقال القافلة تسير والكلاب تنبح.. لكن نباح الكلاب هنا مرير بعد أن أنزل الله آيات تفضح هؤلاء الناس الذين عادوا النجاح والحقيقة فأصبحوا أعداء لكل شيء حتى أنفسهم..

سارت القافلة عائدة إلى المدينة حتى وصلوا إلى وادي القرى.. وهناك مروا على المرأة صاحبة النخل «فلما أتى وادي القرى قال للمرأة كم جاءت حديقتك قالت: عشرة أوسق خرص رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: إني متعجل إلى المدينة فمن أراد منكم أن يتعجل معي فليتعجل»(2) لكن يبدو أن الظروف لم تكن تساعد على العجلة فطريق العودة لم يخل بعد من المنغصات التي يقذفها المنافقون الطافحون بالكراهية والحقد بعد هذه الغزوة التي تعتبر رصيداً من النجاح للدولة المسلمة رغم عدم وجود قتال فيها.. إلا أنها كشفت عن هيبة المسلمين عند إمبراطورية الروم وعن حقد

---

(1) سنده صحيح رواه الطبري في ٢-٣٦٨ وابن كثير في تفسيره ٢-٣٦٨ حيث قال رحمه الله قال عبد الله بن وهب أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر فذكره إلى قوله تستهزئون وقد توبع ابن وهب تابعه الليث عن هشام بن سعد.

(2) صحيح البخاري ٢-٥٣٩.

المنافقين على هذه النجاحات التي صارت تحققها دولة الإسلام في فترة قياسية من أعمار الأمم.. وقد حدث بين أحد المهاجرين والأنصار خلاف حاول المنافقون استثماره لإشعال سعير الفتنة داخل هذا الجيش المسلح عل هذه الأسلحة تجد أغماداً لها داخل أجساد المؤمنين وذلك بعدما تعالى

صراخ الجاهلية داخل معسكر المؤمنين

وكانت بداية هذا التراع مزاحاً ثقيلاً من أحد المهاجرين المرحين حيث قام بضرب أخيه الأنصاري برجله أو بيده في مؤخرته فلم يتحمل الأنصاري هذا المزاح الثقيل.. يقول جابر رضي الله عنه: «غزونا مع النبي ﷺ وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا وكان من المهاجرين رجل لعاب فكسع أنصارياً فغضب الأنصاري غضباً شديداً حتى تداعوا وقال الأنصاري يا للأنصار وقال المهاجري يا للمهاجرين»[1] ويقول أيضاً: «اقتتل غلامان.. غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار فنادى المهاجر أو المهاجرون يال المهاجرين.. ونادى الأنصار يال الأنصار فخرج رسول الله ﷺ فقال ما هذا دعوى أهل الجاهلية قالوا: لا يا رسول الله إلا أن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخر قال: فلا بأس ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً إن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصر وإن كان مظلوماً فلينصره»[2].

بهذه العدالة والحكمة تقتل الفتنة مهما كانت كبيرة.. انصر أخاك ظالماً بمنعه من الظلم وانصره مظلوماً بالدفاع عنه.. لكن عبد الله بن أبي ابن سلول لم تعجبه تلك الحكمة ولا تلك العدالة فقرر أن يثير مزابل

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٢٩٦.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٩٩٨.

النفاق التي طال ركودها في وجه المؤمنين لعل وعسى أن تقوم حرب أهلية داخل المدينة يتم فيها طرد النبي ﷺ ومن معه من المهاجرين لتعود الأصنام والجاهلية والخرافة فيتوج ابن سلول ملكاً عليها.. يقول جابر رضي الله عنه: «سمع ذاك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى جاهلية قالوا: يا رسول الله.. كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال: دعوها فإنها منتنة.. فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال فعلوها أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.. فبلغ النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله.. دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال النبي ﷺ: دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.. وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ثم إن المهاجرين كثروا بعد»[1]

فأغاضت كثرتهم صدور المنافقين وتبنى زعيمهم مشروعاً لطردهم من المدينة وهو لا يستطيع ذلك مهما فعل والدولة الإسلامية أقوى من أن تتأثر بقول منافق.. لكن هذا القول يخلق نوعاً من العصبية المقيتة التي قد تستشري في المستقبل وتفسد قلوب كثير من الناس وتنحرف بنواياهم وجهودهم نحو زوايا ضيقة وحفر صغيرة جرها العرب آلاف السنوات قبل محمد ﷺ فما تقدموا شبراً واحداً..

وقد وصل هذا التهديد لمسامع النبي ﷺ فقدم لأصحابه ولخلفائه وللزعماء من بعده درساً في التعامل مع أقوال الخصوم من رعاياهم مهما كانوا.. وحطم عليه السلام أي حجة تبرر فيها السلطة التنكيل بمن تشاء لمجرد أنهم قالوا كلاماً يصادم سياستها أو يحتج على ممارسة من ممارساتها.. فها هي السلطة ممثلة بالنبي ﷺ تكذب مؤمناً وهي تعلم أنه صدوق لأنه لم

(١) صحيح البخاري ٤-١٨٦١.

يحضر شهوداً أو أدلة على ما يقول.. وبرأت رأس المنافقين وهـي تجـزم بكفره ونفاقه وكذبه لأن الأصل في أي إنسان يعيش في الدولة الإسلامية أنه بريء حتى تثبت التهمة عليه.. حدث ذلك رغم أن ذلك القول يحمل أشد أنواع الخروج على السلطة بل يدعو صراحة إلى تغيير نظام الحكـم بالقوة.. بل إن هذا المنافق لم يكتف بالتهديد فقط بل قدم لأهل المدينـة مشروعاً خطيراً جداً يأمرهم فيه بـ:

حصار المهاجرين اقتصادياً

فقال لمن حوله: «لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا من حوله»(١) وكان الذي سمع هذه المقولة من فم ذلك المنافق مباشـرة صحابي جليل اسمه زيد بن أرقم وهو من الأنصار أنفسهم ومن المعنـيين مباشرة بكل حرف بصقه ابن سلول.. فنقل ذلك للنبي ﷺ لكـن زيـداً تأذى كثيراً بعد نقله لذلك القول.. وذلك لأن النبي ﷺ لم يعره اهتماماً.. فقد أراد قطع كل طرقات المنافقين في التسلل نحو وحدة المسلمين بعد أن نجحوا في التسلل في صفوفهم.. تلك الوحدة التي بدأ المؤمنـون بقطـف ثمارها وبدأت البشرية تتمتع بشمسها وهوائها.. يقول زيد رضي الله عنه وهو يتحدث عن معاناته: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في سـفر أصـاب الناس في شدة [في غزوة تبوك]»(٢) «كنت مع عمي فسمعت عبد الله بن

---

(١) صحيح مسلم ٤-٢١٤٠.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٤٠ وأما بين المعقوفين فعند الترمذي ٥-٤١٧ بسند صحيح حدثنا محمد بن بشار حدثنا بن أبي عدي أنبأنا شعبة عن الحكم بن عتيبة قال سمعت محمد بـن كعب القرظي منذ أربعين سنة يحدث عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن عبد الله بن أبي قال في غزوة تبوك.. وشيخ الترمذي ثقة يلقب - بندار وهو من رجال الشيخين التقريب ٢-١٤٧ وكذلك شيخه واسمه محمد بن إبراهيم بن أبي عدي وقد ينسب لجـده ثقـة =

أبي بن سلول يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا.. وقال أيضاً: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل

فذكرت ذلك لعمي فذكر عمي لرسول الله ﷺ فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا.. فصدقهم رسول الله ﷺ وكذبني.. فأصابني هم لم يصبني مثله»[1] لأن المتحدث صادق والحالف كاذب والكل يعرف الطرفين.. وكان مما زاد حزن زيد ومعاناته ذلك العتاب القاسي الذي صدر من عمه وقومه.. يقول رضي الله عنه: «وقال عمي: ما أردت إلى أن كذبك النبي ﷺ ومقتك»[2]

التحف زيد آلامه وأحزانه وأكمل مسيراً ثقيلاً إلى المدينة.. فقد عكر المنافقون صفو غزوته وجهاده مع النبي ﷺ.. وعكروا على المؤمنين ذلك أيضاً..

وابتهج المنافقون بتصديق النبي ﷺ ونجحوا في التملص من عواقب تلك الكلمات الخطيرة.. لكن المنافقين لم يكتفوا بتلك النتيجة المفرحة ولا بتلك البلبلة التي أثاروها.. فقد خيل لهم أن هذا الجيش وقائده من السذاجة لدرجة أنه يمكن توجيه ضربة أخرى لكنها هذه المرة عسكرية.. لقد قرر المنافقون

= التقريب ٢-١٤١ والبقية أئمة ثقات معروفون أما ما جاء عن علاقة هذا القول بغزوة بني المصطلق فهو ضعيف وإن كان في صحيح مسلم لأنه من بلاغات سفيان رحمه الله.

(١) صحيح البخاري ٤-١٨٥٩.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٨٦١.

محاولة اغتيال النبي ﷺ

«رجع رسول الله ﷺ قافلاً من تبوك إلى المدينة حتى إذا كان ببعض الطريق مكر برسول الله ﷺ ناس من أصحابه فتآمروا عليه أن يطرحوه في عقبة في الطريق.. فلما بلغوا العقبة أرادوا أن يسلكوها معه.. فلما غشيهم رسول الله ﷺ لما سمعوا بذلك واستعدوا وتلثموا وقد هموا بأمر عظيم.. وأمر رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر فمشيا معه مشياً وأمر عمار أن يأخذ بزمام الناقة وأمر حذيفة أن يسوقها فبينا هم يسيرون إذ سمعوا بالقوم من ورائهم قد غشوهم.. فغضب رسول الله ﷺ وأمر حذيفة أن يردهم وأبصر حذيفة غضب رسول الله ﷺ فرجع ومعه محجن فاستقبل وجوه رواحلهم فضربها ضرباً بالمحجن.. وأبصر القوم وهم متلثمون.. فرعبهم الله عز وجل حين أبصروا حذيفة وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليه.. فأسرعوا حتى خالطوا الناس. وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله ﷺ فلما أدركه.. قال: اضرب الراحلة يا حذيفة وامش أنت يا عمار فأسرعوا حتى استوى بأعلاها فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس فقال النبي ﷺ لحذيفة: هل عرفت يا حذيفة من هؤلاء الرهط أو الركب أو أحداً منهم قال حذيفة: عرفت راحلة فلان وفلان وقال: كانت ظلمة الليل وغشيتهم وهم متلثمون فقال ﷺ: هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا؟ قالوا: لا والله يا رسول الله قال: فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا أظلمت في العقبة طرحوني منها.

قالوا: أفلا تأمر بهم يا رسول الله إذا جاءك الناس فتضرب أعناقهم؟ قال: أكره أن يتحدث الناس ويقولوا إن محمداً قد وضع يده على أصحابه فسماهم لهم وقال: اكتماهم»[1]

---

(١) حديث حسن رواه البيهقي في الدلائل ٥-٢٥٦ والفظ له عن عروة مرسلاً لكن رواه =

مرة أخرى يقدم النبي ﷺ درساً في السلوك السلطوي الإسلامي الرائع في تعامله مع الآخر.. وتتضح سعة الأفق التي كان يتميز بها النبي ﷺ في تعامله مع الأحداث الخطيرة التي يمكن السيطرة عليها وتحجيمها وتجاوزها بهدوء وتعقل ودون تعريض المجتمع والأمة إلى هزة مؤثرة.. رغم قول حذيفة رضي الله عنه في الموضع نفسه: «قال النبي ﷺ في أصحابي اثنا عشر منافقاً فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة»[1] وهي عبارة عن دمل كبيرة قاتلة.. تجاوز النبي ﷺ تلك الأزمة بنجاح وقاد جيشه باقتدار ولما أقبل الجيش على المدينة هش لها النبي ﷺ وطاب له الحديث عنها وعن أهلها.. فلهج بكلمات من القلب عندما اقترب منها فقال «رسول الله ﷺ: إني مسرع فمن شاء منكم فليسرع معي ومن شاء فليمكث فخرجنا حتى أشرفنا على المدينة فقال: هذه طابة وهذا أحد وهو جبل يحبنا ونحبه.. ثم [قال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بخير دور الأنصار قالوا: بلى يا رسول الله].. قال: إن خير دور الأنصار دار بني النجار ثم دار بني عبد الأشهل ثم دار بني عبد الحارث بن الخزرج ثم دار بني ساعدة وفي كل دور الأنصار خير فلحقنا سعد بن عبادة فقال أبو أسيد: ألم تر أن رسول الله ﷺ خير دور الأنصار فجعلنا آخراً.. فأدرك سعد رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله.. خيرت دور الأنصار فجعلتنا أخراً.. فقال: أوليس بحسبكم أن تكونوا من

=

البيهقي أيضاً في كتاب دلائل النبوة من طريق محمد بن إسحاق عن الأعمش عن عمرو ابن مرة عن أبي البختري عن حذيفة بن اليمان وهو سند قوي لولا عنعنة ابن إسحاق لكنه لم ينفرد فقد تابعه عند البزار ٧-٣٥٠ أبو بكر بن عياش عن الأعمش وكذلك شاهد عند أحمد ٥-٤٥٣ من طريق يزيد أنا الوليد يعني ابن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل.

(١) صحيح مسلم ٤-٢١٤٣.

الخيار.. [ثم قال بيده فقبض أصابعه ثم بسطهن كالرامي بيده ثم قال وفي كل دور الأنصار خير]»(١) ثم بشر الفقراء والمعذورين داخل المدينة بحديث يرويه أنس بن مالك فيقول رضي الله عنه: « إن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم قالوا يا رسول الله وهم بالمدينة قال وهم بالمدينة حبسهم العذر»(٢) وكان شوقه عليه السلام للمدينة يعرف بحركة تفيض بالمشاعر.. يقول عنها «أنس رضي الله عنه إن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر فنظر إلى جدران المدينة أوضع راحلته وإن كان على دابة حركها من حبها»(٣) وتحرك الجيش من خلفه.. ثم أقبلوا على مشارف المدينة وبعض القلوب محطمة من كلام عبد الله بن أبي بن سلول الشنيعة.. أما داخل المدينة فالمشاعر مختلفة كاختلاف الألوان.. هناك المشتاقون لرسول الله ﷺ وهم المؤمنون وهناك المنافقون الذين انتهوا من إعداد أعذارهم وأسفهم ليقدموها كالأفخاخ للنبي عليه السلام.. وهناك

الصبيان الذين تسابقوا نحو ثنية الوداع

انطلقوا كالعصافير نحو مدخل المدينة من جهة تبوك يقال لها ثنيات الوداع يتلقون النبي ﷺ هاهو أحدهم يقول: «خرجت مع الصبيان نتلقى النبي ﷺ مقدمه من تبوك إلى ثنية الوداع»(٤) و«خرج الناس يتلقونه فخرج النساء والصبيان.. فكنت فيمن تلقاه مع الصبيان حتى لقينا رسول

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٨٥ والزيادة للبخاري ٥-٢٠٣١.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦١٠.

(٣) صحيح البخاري ٢-٦٦٦.

(٤) صحيح البخاري ٣-١١٢١ وابن حبان ١١-١١٣ والطبراني في الكبير ٧-١٥٨ وأحمد ٣-٤٤٩ وغيرهم واللفظ لابن حبان والطبراني على الترتيب.

الله ﷺ بثنية الوداع»[1]. يقول أحد هؤلاء الأطفال وهو ابن الشهيد جعفر الطائر قائد مؤتة: «كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته.. قال: وإنه قدم من سفر فسبق بي إليه فحملني بين يديه ثم جيء بأحد ابني فاطمة فأردفه خلفه قال فأدخلنا المدينة ثلاثة على دابة»[2] وبعد أن حيى الأطفال والنساء توجه نحو المسجد لـ «أن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر ضحى دخل المسجد فصلى ركعتين قبل أن يجلس»[3] ثم جلس للناس وأثناء جلوسه تهادى نحوه رجل محطم القلب له قصة مؤثرة جداً سنعرفها بعد قليل بعد أن نصاحبه عليه السلام إلى بيت فاطمة حيث «كان رسول الله ﷺ إذا خرج في سفر فآخر ما يكون عهده به من أهل بيته فاطمة رضي الله عنها وإذا قدم فأول ما يدخل عليه فاطمة رضي الله عنها»[4] ثم توجه إلى أحد أبياته وبعد دخوله في ذلك البيت بزمن سمع:

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٢١ وابن حبان ١١-١١٣ والطبراني في الكبير ٧-١٥٨ وأحمد ٣-٤٤٩ وغيرهم واللفظ لابن حبان والطبراني على الترتيب.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٨٨٥.

(٣) صحيح البخاري ٣-١١٢٣.

(٤) حديث حسن رواه في الآحاد والمثاني ٥-٣٥٩ وغيره من طريق سليمان المنبهي عن ثوبان وسليمان تابعي مجهول لكن للحديث شاهد عنده أيضاً لكنه ضعيف من طريق إبراهيم قعيس عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنه إبراهيم ضعفه أبو حاتم وله شاهد ثالث في المستدرك على الصحيحين ١-٦٦٤ من طريق يزيد بن سنان وهو أبو فروة الرهاوي عن عروة بن رويم اللخمي قال سمعت أبا ثعلبة الخشني يقول وأبو فروة ضعيف وشاهد رابع بسند جيد لولا أخطاء أحد الرواة وهو الأسود بن حفص المروزي حدثنا حسين بن واقد عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر قبَّل ابنته فاطمة.

بل وتحت سمعه وبصره ورضاه وفي يوم ليس من أيام العيد فقد «جاءت جارية سوداء فقالت يا رسول الله إني نذرت إن ردك الله سالماً أن أضرب على رأسك بالدف فقال رسول الله ﷺ: إن نذرت فافعلي وإلا فلا قالت إني كنت نذرت فقعد رسول الله ﷺ وضربت بالدف وقالت:

أشرق البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع»[1]

كان ﷺ يقر هذه الجارية على نذرها ولو كان نذر معصية لما وافقها عليه لأن النبي ﷺ يقول «لا وفاء لنذر في معصية ولا فيما لا يملك العبد»[2] «لا نذر في معصية الله»[3] وقد حدث من الجارية ما يؤكد ذلك في اليوم نفسه فقد: «قالت: يا رسول الله.. إني نذرت أن أضرب على رأسك بالدف قال: أوفي بنذرك.

قالت: إني نذرت أن أذبح بمكان كذا وكذا؛ مكان كان يذبح فيه أهل

(١) سنده صحيح رواه ابن حبان (موارد الظمآن (١-٤٩٣) أخبرنا محمد بن إسحاق بن خزيمة حدثنا زياد بن أيوب حدثنا أبو تميلة يحيى بن واضح حدثني الحسين بن واقد حدثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه قال رجع رسول الله ﷺ من بعض مغازيه.. وهذا سند صحيح فشيخه هو الإمام ابن خزيمة وزياد بن أيوب ثقة حافظ لقبه أحمد بشعبة الصغير: التقريب ١-٢٦٥ وأبو تميلة ثقة من رجال الشيخين ١-٣٥٩ وشيخه وشيخ شيخه ثقتان. لكنني لم أجد الأبيات في صحيح ابن حبان ١٠-٢٣١ مما يعني أنها مدرجة أو أن الهيثمي وجدها في بعض نسخ ابن حبان لذلك وضعها في هامش الموارد وقد وضعت هذا الحديث هنا لمقدمه ﷺ من ثنيات الوداع وهي الغزوة الأنسب لهذا الحدث.

(٢) صحيح مسلم ج: ٣ ص: ١٢٦٢.

(٣) صحيح مسلم ج: ٣ ص: ١٢٦٢.

الجاهلية، قال: لصنم؟ قالت: لا.. قال: لوثن؟ قالت: لا، قال: أوفي بنذرك»[1] وصدر منها بعد ذلك تصرف مضحك لكنه في الوقت نفسه شهادة لأحد عظماء الصحابة من النبي ﷺ وذلك بعدما قال عليه السلام لها: «إن كنت نذرت فاضربي فجعلت تضرب فدخل أبو بكر رضي الله عنه وهي تضرب، ثم دخل عمر رضي الله عنه فألقت الدف تحتها وقعدت عليه فقال رسول الله ﷺ إن الشيطان يخاف منك يا عمر»[2]

ويبدو أن شدة عمر رضي الله عنه قد تصاعدت بعد أقوال المنافقين وأعمالهم الخطيرة.. وسوف تكشف الأيام عن مواقف هذا الرجل العظيم تجاههم..

أما النبي ﷺ فقد كان سنة من السماحة واللين والرفق.. هاهو يرى

صوراً مجسمة في بيت عائشة

تقول رضي الله عنها: «قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك وقد نصبت على باب حجرتي عباءة وعلى عرض بيتي ستر أرمني فدخل البيت.. فلما رآه قال: ما لي يا عائشة والدنيا، فهتك الستر حتى وقع بالأرض وفي سهوتها ستر، فهبت ريح فكشف ناحية الستر عن بنات لعائشة لعب فقال: ما هذا يا عائشة؟

---

(١) سنده حسن رواه أبو داود ٣-٢٣٧ حدثنا مسدد ثنا الحرث بن عبيد أبو قدامة عن عبيد الله بن الأخنس عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده سند حسن معروف وعبيد الله ثقة وليس كما قال الحافظ رحمه الله أنه صدوق يخطئ - انظر تعليقي على التقريب ١-٥٣٠ تلميذه الحارث حسن الحديث إذا لم يخالف وهو من رجال مسلم: التقريب ١-١٤٢.

(٢) سنده صحيح رواه البيهقي في الكبرى ١٠-٧٧ وغيره من الحسين بن واقد ثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه وهو سند صحيح مر تخريجه في الحديث قبل السابق.

قالت: بناتي. قالت: ورأى بين طوبها فرساً له جناحان من رقع

قال: فما هذا الذي ارى في وسطهن؟ قالت: فرس

قال: ما هذا الذي عليه؟ قالت: جناحان

قال: فرس له جناحان؟ قالت: أوما سمعت أن لسليمان بن داود خيلاً له أجنحة؟ فضحك حتى بدت نواجذه»(١) من قول عائشة التي تتمتع بدلال هذا الزوج الرائع ورفقته ورفقه.. كانت عائشة تتلقى منه الذوق الراقي والمستوى الرفيع في التعامل حتى مع أعدائه.. ذات مرة كان في بيتها فدخل عليه بعض اليهود فألقوا عليه تحية كالسم.. تقول عائشة رضي الله عنها «دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا السام عليكم.. قالت عائشة: ففهمتها.. فقلت: وعليكم السام واللعنة.. فقال رسول الله ﷺ: مهلاً يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله.. فقلت: يا رسول الله.. أولم تسمع ما قالوا قال رسول الله ﷺ: قد قلت وعليكم»(٢) وإذا كان هذا هو رفقه ﷺ بأعدائه فكيف سيكون موقفه من رجال ثلاثة لا يدرون ما يقولون.. بل ولا ما يفعلون وقد رجع ﷺ من تبوك.. لنعد بالأحداث إلى حيث المسجد النبوي لحظة وصول النبي ﷺ وجلوسه فيه.. هناك بدأت المعاناة لـ:

---

(١) سنده حسن رواه البيهقي في السنن الكبرى ١٠-٢١٩ واللفظ له والنسائي في السنن الكبرى ٥-٣٠٦ وأبو داود ٤-٢٨٣ عن يحيى بن أيوب حدثني عمارة بن غزية أن محمد ابن إبراهيم التيمي حدثه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها والسند حسن من أجل يحيى الغافقي وهو من رجال الشيخين وشيخه لا بأس به من رجال مسلم والبقية ثقات وقد جاء في أبي داود الشك بين خيبر وتبوك.

(٢) صحيح البخاري ٥-٢٢٤٢.

الصحابة الثلاثة الذين غابوا عن تبوك

والذين ضاقت بهم الدنيا واسودت بوجوههم وضاقوا بأنفسهم.. ها هو: أحدهم الشاعر المؤمن كعب بن مالك الذي بايع النبي ﷺ بيعة العقبة والذي انشغل وتردد حتى فاتته الغزوة وهو في المدينة الآن يصف شعوره طوال تلك الأيام التي أمضاها بين جدران يشعر بأنها تحاول خنقه.. وهواء يشعر بأنه لا يريد الدخول إلى رئتيه.. وأرض تضيق به.. وأعذار لا قيمة لها ولا رصيد..

كعب بن مالك يروي قصته الطويلة الدامية في تلك الأيام السوداء فيقول: «غزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع و لم أقض شيئاً، فأقول في نفسي أنا قادرٌ عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه و لم أقض من جهازي شيئاً.. فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت و لم أقض شيئاً ثم غدوت ثم رجعت و لم أقض شيئاً فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت فلم يقدر لي ذلك.. فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء.. و لم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك ما فعل كعب؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله.. حبسه برداه ونظره في عطفيه.. فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت.. والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً فسكت رسول الله ﷺ قال كعب بن مالك فلما بلغني أنه توجه قافلاً

حضرني همي.. وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي.. فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل.. وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب.. فأجمعت صدقه وأصبح رسول الله ﷺ قادماً وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس.. فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله.. فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال: تعال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك فقلت: بلى إني والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي.. ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله.. لا والله ما كان لي من عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.. فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون.. قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك فوالله مازالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي

ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟

قالوا: نعم.. رجلان.. قالا مثل ما قلت.. فقيل لهما مثل ما قيل لك.

فقلت: من هما قالوا مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي

فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لي.. ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه.. فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف.. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان.. وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة.. فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي.. وإذا التفت نحوه أعرض عني.. حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام فقلت يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت.. فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم ففاضت عيناه. وتوليت حتى تسورت الجدار فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إلي كتاباً من ملك غسان فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك.. فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته بها حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت أطلقها أم ماذا أفعل قال: لا

بل اعتزلها ولا تقربها وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله.. إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا.. ولكن لا يقربك.. قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء والله ما زال يبكي منذ كان أمره ما كان إلى يومه هذا.. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال ابن أمية أن تخدمه.. فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ما يقول رسول الله إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب. فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا.. فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا.. فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت.. سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر.. قال: فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء فرج.. وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا.. وذهب قبل صاحبي مبشرون وركض إلي رجل فرساً[1] وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس.. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيَّ فكسوته إياهما ببشراه.. والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما.. وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنونني بالتوبة يقولون: لتهنك توبة الله عليك.. قال كعب: حتى دخلت

(١) جاء على فرسه مبشراً.

المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة.. فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك.. قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه.. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله.. إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله.. قال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك.. قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر.. فقلت: يا رسول الله.. إن الله إنما نجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما لقيت.. فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني.. ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا.. فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ

لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٌۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾»[1].

هذه هي قصة كعب ومعاناته التي لا تطاق والتي استمرت لأكثر من شهرين.. لكنها تصفية المؤمنين وتربيتهم وامتحانهم.. ولو كانوا من المنافقين لتم تجاهلهم كأن لم يكونوا و لم يكن تخلفهم.. ولو مر مشرك بتلك الظروف التي مرت بكعب ورفاقه لكان الانتحار أفضل خيار في نظره.. لكنه الإيمان الذي يؤهل المسلم للتفوق على كل ما يمر به من أزمات.. الإيمان الذي يقول النبي ﷺ عن صاحبه وعن قدرته على تجاوز الأزمات مهما بلغت شدتها وعن الفرق بينه وبين المنافق: «مثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر كشجر الأرز»[2] «الزرع لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد»[3]

وإذا كانت أحزان كعب قد انتهت فماذا عن أحزان زيد بن أرقم سنتوجه إليه فهو الآن في بيته محزون لا يخرج منه.. خجلاً من صدقه الذي حولته أيمان المنافقين ووقاحتهم إلى كذب.. هاهو غارق في الحزن يقول: «أرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا: فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه فأصابني هم لم يصبني مثله قط فجلست في البيت فقال لي عمي ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك فأنزل الله تعالى إذا جاءك المنافقون: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ

(١) صحيح البخاري ٤-١٦٠٣ وقد أكملت الآية بين المعقوفين وليست في البخاري.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٦٣.

(٣) صحيح مسلم ٤-٢١٦٣.

إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾
ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ
أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ
هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ
رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ
أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ
يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن
رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ
أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ
لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا
إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ فبعث إلي النبي ﷺ فقرأ.. فقال
إن الله قد صدقك يا زيد»(١) ولم يعد لكذب النفاق من أرض تقله أو سماء تظله.. طاشت ضربة عبد الله بن أبي بن سلول الأخيرة.. لكن هذه المرة ليست في الهواء بل في صدره.. وبدأ حقده الأسود يفتك به كالسرطان.. فقد عرته الآيات الأخيرات التي نزلت تصدق زيد بن أرقم وتكذب أيمانه وأيمان من معه من المنافقين.. فضحته تلك الآيات و لم تبق له عيب مستور بعد اليوم.. تحول إلى خرائب من الإحباط.. ومما زاد في إحباطه مشاهد الجموع والوفود التي بدأت تتدافع نحو المدينة لتعلن دخولها

(١) صحيح البخاري ٤-١٨٥٩ وقد أكملت الآيات وهي ليست ضمن النص.

في الإسلام ومبايعتها للنبي ﷺ.. وكان من بين الواصلين إلى المدينة القائد المظفر:

خالد بن الوليد يعود مصحوباً بأكيدر

خرجت خيل لرسول الله ﷺ وسمع بها أكيدر دومة الجندل فانطلق إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله بلغني أن خيلك انطلقت وإني خفت على أرضي ومالي فاكتب لي كتاباً لا تعرض له ولا لشيء هو لي فإني مقر بالحق الذي هو عليّ فكتب له رسول الله ﷺ كتاباً وأخرج أكيدر قباء منسوجاً بالذهب مما كان كسرى يكسوهم فقال: يا رسول الله اقبل عني هذا»[1].

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «رأيت قباء أكيدر حين قدم به على رسول الله ﷺ فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه.. فقال رسول الله ﷺ: أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد ابن معاذ في الجنة أحسن من هذا»[2] وتحدث أنس رضي الله عنه عن سعد ابن معاذ فانهمرت دموعه لذكراه وقال: «إن سعداً كان أعظم الناس

(١) سنده صحيح رواه في معجم الصحابة ٢-٣٥١ حدثنا محمد بن بشر أخو خطاب نا جعفر بن حميد نا عبيد الله ابن إياد عن أبيه عن قيس بن النعمان قال الخطيب في تاريخ بغداد ج: ٢ ص: ٩٠ قال الدارقطني محمد بن بشر بن مطر ثقة وشيخه ثقة من رجال مسلم: التقريب ١-١٣٠ وعبيد الله بن إياد صدوق من رجال مسلم ووالده ثقة انظر التقريب ١-٥٣١/٨٦ لكن هناك وهم في المتن بلفظ: فإني أهديته لك فقال النبي ﷺ ارجع بقبائك فإنه ليس أحد يلبس هذا في الدنيا إلا حرمه في الآخرة فالصحيح أنه قبلها كما سيأتي في الصحيح وغيره.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق: السيرة النبوية ٥-٢٠٨ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أنس. وشيخ ابن إسحاق تابعي ثقة وإمام في المغازي مر معنا كثيراً.

وأطوله.. ثم بكى فأكثر البكاء ثم قال: إن رسول الله ﷺ بعث إلى أكيدر صاحب دومة بقباء فأرسل إليه جبة ديباج منسوجة فيها الذهب فلبسها رسول الله ﷺ ثم قام على المنبر وقعد فلم يتكلم ونزل فجعل الناس يلمسوها بأيديهم فقال أتعجبون من هذه لمناديل سعد في الجنة أحسن مما ترون»[1] «ثم أوشك أن نزعه فأرسل به إلى عمر فقيل له: قد أوشكت ما نزعته يا رسول الله قال نهاني عنه جبريل عليه السلام فجاء عمر يبكي فقال يا رسول الله كرهت أمراً وأعطيتنيه قال: إني لم أعطكه لتلبسه إنما أعطيتكه تبيعه.. فباعه عمر بألفي درهم»[2]

ثم إن أكيدر بعث هدية ثانية فيما بعد فاستدعى النبي ﷺ علياً ثم أمره بأمر قال عنه علي رضي الله عنه: « إن أكيدر دومة أهدى إلى النبي ﷺ ثوب حرير فأعطاه علياً.. فقال: شققه خمراً بين الفواطم»[3] والفواطم: فاطمة بنت رسول الله ﷺ وفاطمة بن أسد وهي أم علي وفاطمة بنت عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهم جميعاً.. لكن مهلاً لماذا قال المصطفى شققه بين الفواطم..

أين زينب.. أين أم كلثوم

لماذا لم يذكرهما النبي ﷺ؟ لماذا لم ينلهما شيء من هذا الحرير الثمين والجميل؟ سألنا وسألنا وتوجهنا نحو بابيهما وانتظرنا طويلاً على تلك

---

(١) سنده قوي وقد مر معنا تحت عنوان: دومة الجندل وانظر السنن الكبرى ٥-٤٧٢.

(٢) سنده قوي وقد مر معنا تحت عنوان: دومة الجندل وانظر السنن الكبرى ٥-٤٧٢ حدثنا يوسف بن سعيد بن مسلم المصيصي قال حدثنا حجاج بن محمد عن بن جريج قال أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر وشيخه ثقة حافظ: التقريب ٢-٣٨١ وشيخه حجاج ثقة ثبت: التقريب ١-١٥٤.

(٣) صحيح مسلم ٣-١٦٤٥.

الأبواب فلم تعد زينب و لم ترجع أم كلثوم.. وأمامة الصغيرة تبحث مثلنا فلا تجد أمها ولا خالتها في طرقات المدينة ولا عند الجيران.. لقد رحلت الأم زينب رضي الله عنها والخالة أم كلثوم و لم يبق إلا فاطمة الزهراء.

لم نجد من يحدثنا عنهما سوى إحدى نساء الأنصار العظيمات وتدعى أم عطية.. أم عطية المجاهدة التي تقول: «غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات أخلفهم في رحالهم فأصنع لهم الطعام وأداوي الجرحى وأقوم على المرضى»[1] حدثتنا أم عطية عن زينب.. فقط عن غسلها لأنها شاركت فيه.. تقول رضي الله عنها: «لما ماتت زينب بنت رسول الله ﷺ قال لنا رسول الله ﷺ: اغسلنها وتراً»[2] «اغسلنها ثلاثاً أو خمساً أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك بماء وسدر.. واجعلن في الآخرة كافوراً أو شيئاً من كافور فإذا فرغتن فآذنني»[3] وقال لهن: «ابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها»[4] فنفذت أم عطية ومن معها ما قاله ﷺ وقالت: «فضفرنا شعرها ثلاثة أثلاث قرنيها وناصيتها»[5] «ومشطناها ثلاثة قرون»[6] «فلما فرغنا آذناه فألقى إلينا حقوه فقال: أشعرنها إياه»[7] أي أعطاهن إزاره الذي يشد على الخصر وأمرهن أن يجعلوه يلاصق جسدها الطاهر مباشرة ثم حملوها على الأعناق أمام حزن ابنتها الصغيرة أمامة.. ثم واروها في مثواها الأخير رضي الله عنها.. وبعد فترة أو قبل ذلك فجع النبي ﷺ

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٤٧.
(٢) صحيح مسلم ٢-٦٤٨.
(٣) صحيح مسلم ٢-٦٤٦.
(٤) صحيح مسلم ٢-٦٤٨.
(٥) صحيح مسلم ٢-٦٤٨.
(٦) صحيح مسلم ٢-٦٤٧.
(٧) صحيح مسلم ٢-٦٤٦.

مرة ثالثة بفقد ابنته الصغرى الطاهرة أم كلثوم رضي الله عنها.. سألنا أنساً رضي الله عنه عن قصة موت أم كلثوم فأوحت روايته أنها مات دون مرض.. فقد كانت تقضي مع زوجها يوماً ودوداً ثم ماتت.. يقول أنس رضي الله عنه: «شهدنا بنت رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ جالس على القبر فرأيت عينيه تدمعان فقال: هل فيكم من أحد لم يقارف الليلة؟ فقال أبو طلحة: أنا.. قال: فانزل في قبرها.. فنزل في قبرها فقبرها»[1]..

«فلم يدخل عثمان بن عفان رضي الله عنه القبر»[2].. كان الأحبة والأصحاب يرحلون أمام عينيه ويسقطون بين يديه وهو صابر محتسب تدمع عينه ويحزن قلبه ولا يقول إلا ما يرضي الرب سبحانه.. فإن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل عنده بأجل مسمى.

أما أمامة فكانت تنافس الحسن والحسين في التسلل داخل مشاعره عليه السلام وداخل المسجد.. أما خارج المسجد فكانت أمامة دلالاً يتبختر عبر رياض النبي ﷺ.. تقول عائشة رضي الله عنها:

«قدمت على النبي ﷺ حلية من عند النجاشي أهداها له فيها خاتم من ذهب فيه فص حبشي فأخذه رسول الله ﷺ بعود معرضاً عنه أو ببعض أصابعه ثم دعا أمامة ابنة أبي العاص ابنة ابنته زينب فقال: تحلي بهذا يا بنية»[3] فتحلت به كما تحلت بعطف جدها ورعايته.. جدها الذي لم تصفُ له الحياة من الكدر والهموم والتعب.. ومع ذلك يتجدد نشاطه كل يوم في نشر رسالة ربه والتبشير بها..

---

(١) صحيح البخاري ١-٤٥٠.

(٢) سنده صحيح رواه أحمد ٣-٢٢٩ وغيره من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس وهو سند صحيح متصل على شرط الشيخين.

(٣) صحيح البخاري ١-٤٣١.

فكما كانت تلك الأيام مليئة بالفراق المرير فهي كذلك تفيض بمشاهد العناق والمصافحة واللقاءات التي تسر كل مسلم مخلص.. فقد سالت الوفود في هذا العام من كل الجهات تبايع النبي ﷺ وتدخل في دولة الإسلام طائعة مختارة.. لقد رحلت أم كلثوم ورحلت زينب.. رحلتا من طيبة في قافلة لا تمهل أحداً كي ينهي أعماله أو يودع الجميع.. قافلة لا يعرف جدول رحلاتها التأجيل أبداً ولم تتأخر مواعيد وصولها أو مغادرتها يوماً من الأيام.. لا أدري من غادرت قبل الأخرى.. رحلن فلم يبق للنبي ﷺ من بناته سوى فاطمة الزهراء التي تحتل قلبه.. والتي تصفها عائشة رضي الله عنها وتصف مشاعرها ومشاعر أبيها بالكثير عندما تقول: «ما رأيت أحداً من الناس أشبه كلاماً برسول الله ﷺ ولا حديثاً ولا جلسة من فاطمة.. كان رسول الله ﷺ إذا رآها قد أقبلت رحب بها ثم قام إليها فقبلها ثم أخذ بيدها فجاء يجلسها في مكانه وكانت إذا رأت النبي ﷺ رحبت به ثم قامت إليه قبلته»[1] تعاظم هذا الحب لدرجة «أن رسول الله ﷺ قال فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني»[2] أما فاطمة عليها السلام فتريد أكثر من ذلك..

فاطمة تريد أن تثبت ذلك لزوجها

فقد تقدم علي رضي الله عنه لخطبة صحابية هي ابنة أبي جهل.. فوصل الخبر إلى فاطمة فانطلقت إلى أبيها فحدث ما يرويه أحد الصحابة:

---

(١) سنده قوي رواه إسحاق بن راهويه ١-٨ وغيره من طريق إسرائيل أنا ميسرة بن حبيب النهدي أخبرني المنهل بن عمرو قال حدثتني عائشة ابنة طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت.. وعائشة بنت طلحة تابعية ثقة مشهورة وتلميذها المنهال بن عمرو صدوق من رجال البخاري: التقريب ٢-٢٧٨ وتلميذه ميسرة صدوق من رجال التقريب ٢-٢٩١.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٣٦١.

«إن علياً خطب بنت أبي جهل فسمعت بذلك فاطمة فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك.. وهذا علي ناكح بنت أبي جهل فقام رسول الله ﷺ فسمعته حين تشهد يقول: أما بعد أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثني وصدقني.. وإن فاطمة بضعة مني وإني أكره أن يسوؤها [أتخوف أن تفتن في دينها] [وأني لست أحرم حلالاً ولا أحل حراماً ولكن] والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله عند رجل واحد.. فترك علي الخطبة»[1] فلم يبق لدى النبي ﷺ سواها وهي على وشك الرحيل أيضاً.. أما كلمة بنت عدو الله فليس فيها شتم لتلك الصحابية الجليلة بقدر ما هو توظيف للفظ من أجل إيصال هذه الفكرة بصوت أقوى. هذا بعض ما كان يحدث في بيت النبوة.. أما خارج ذلك البيت الكريم فقد:

قرر النبي ﷺ وضع نهاية لمشكلة النفاق التي أزفت على الزوال وبدأت بالتلاشي بموت أصحابها.. وتضاءل نشاطها بعد أن انسابت الجزيرة للنبي ﷺ ودولته وسالت الوفود من كل فج تنضو عنها عباءة الشرك والظلام وتدخل في دين الله أفواجاً أفواجاً..

ملفات النفاق وأهله

كلها اليوم مسجلة في ذاكرة أحد الصحابة.. فقد استدعى النبي ﷺ حذيفة بن اليمان وسلم لذاكرته قائمة بأسماء المنافقين حيث يقول رضي الله عنه:

«في أصحابي اثنا عشر منافقاً فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج

(١) صحيح البخاري ٣-١٣٦٤ والزيادة لمسلم ٤-١٩٠٣.

الجمل في سم الخياط»[1] أي حتى يدخل الجمل في فتحة الإبرة.. وهم أولئك الذين حاولوا اغتيال النبي ﷺ عندما «خرجوا من العقبة ينتظرون الناس فقال النبي ﷺ لحذيفة: هل عرفت يا حذيفة من هؤلاء الرهط أو الركب أو أحداً منهم؟ قال حذيفة: عرفت راحلة فلان وفلان كانت ظلمة الليل وغشيتهم وهم متلثمون فقال ﷺ: هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا؟ قالوا: لا والله يا رسول الله قال: فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا أظلمت في العقبة طرحوني منها

قالوا: أفلا تأمر بهم يا رسول الله إذا جاء الناس فتضرب أعناقهم؟ قال: أكره أن يتحدث الناس ويقولوا إن محمد قد وضع يده في أصحابه. فسماهم لهما وقال: اكتماهم»[2] فامتثل حذيفة وعمار رضي الله عنهما وكتما السر ولم يخبرا أحداً بهويته إلا بعد موته حتى لا يصلى عليه.. وكان مما جعل مشكلة النفاق تتلاشى ويتلاشى أثرها ما يحدث في هذا العام المبهج:

عام الوفد

ففي هذا العام توافد زعماء القبائل نحو النبي ﷺ حتى تحولت المدينة إلى عاصمة مزدانة ومزدحمة بالمبايعة والالتزام السياسي والديني بالإسلام.. كان كل يوم يمر يدني الجاهلية من نهاياتها.. حيث يعود كل وفد إلى دياره محطماً داخل أعماقه كل رموز الجاهلية.. وعندما تطأ أقدامه دياره تبدأ الأيادي التي تعلمت الطهارة في المدينة بتحطيم الأصنام والأوثان التي كانت تعبد من دون الله الواحد الأحد.. ولعل من أول الوافدين

(١) صحيح مسلم ٤-٢١٤٣.

(٢) حديث حسن مر معنا عند الحديث عن العودة من تبوك.

وفد الطائف (ثقيف)

الذين انحدروا من جبال العناد والطائف نحو المدينة مبايعين.. وكان بصحبتهم رجل شريد أعياه التعب والخوف من النبي ﷺ وضاق به الطائف بل ضاقت به الأرض.. ضاقت الدنيا بوحشي بن حرب قاتل حمزة لكن رجلاً حكيماً نصحه بالانحدار معهم والتوجه نحو أبواب الحرية الحقيقة التي أشرعها النبي ﷺ.. يقول وحشي: «لما قدمت مكة أعتقت ثم أقمت حتى إذا افتتح رسول الله ﷺ مكة هربت إلى الطائف.. فمكثت بها فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ ليسلموا تعيت علي المذاهب فقلت ألحق بالشام أو باليمن أو ببعض البلاد.. فوالله إني لفي ذلك من همي إذ قال لي رجل: ويحك إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل في دينه وتشهد شهادته.. فلما قال لي ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة»(١) مع وفد ثقيف الذين فرضوا على النبي عليه السلام شروطاً غريبة تمنحهم -كما يظنون- تميزاً بين القبائل.. لكن أفق النبي ﷺ كان كالمدى ونظرته كانت أبعد بكثير.. فما هي قصة وفد ثقيف المملوءة بالكثير والجميل..

اقتربنا من المدينة فإذا رواحل ثقيف تقف خارجها حيث يقوم بحراستها شاب يقال له عثمان بن العاص.. سألناه ما شأنك يا عثمان و لم لم تذهب مع أصحابك لمبايعة النبي ﷺ؟ فهم هناك منذ أيام وأنت هنا.. أو لم تسلم بعد..؟ أجابنا عثمان عن كل تساؤلاتنا فقال:

«قدمت في وفد ثقيف حين وفدوا على رسول الله ﷺ فلبسنا حللنا بباب النبي ﷺ فقالوا: من يمسك لنا رواحلنا؟ وكل القوم أحب الدخول

---

(١) جزء من الحديث الصحيح الذي مر معنا حول شهادة حمزة وهذا لفظ ابن إسحاق.

على النبي ﷺ وكره التخلف عنه.. قال عثمان: وكنت أصغر القوم.. فقلت: إن شئتم أمسكت لكم على أن عليكم عهد الله لتمسكن لي إذا خرجتم.قالوا: فذلك لك. فدخلوا عليه»[1]

تركنا عثمان لفترة ولحقنا بالوفد الذي يصحبهم الآن رجل مصاب .بمرض معدي فأحب النبي ﷺ أن يقدم لأمته وللدنيا درساً في الوقاية من الأمراض المعدية.. يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: «كان في وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه النبي ﷺ إنا قد بايعناك فارجع»[2] فرجع وهو في ذلك يؤكد عملياً ما قاله من قبل: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وفر من المجذوم كما تفر من الأسد»[3] فهو في هذا الحديث يسقط خرافة العقيدة الجاهلية حول العدوى والتشاؤم والبومة وشهر صفر.. وأن هذه الأشياء وإن كانت موجودة حقيقة لكنها لا تقدم ولا تؤخر ولا تضر ولا تنفع ولا تؤثر بنفسها وأن الأمر بيد الله وحده.. أما عن انتقال المرض فقد خلق الله له أسباباً وطرقاً حث النبي ﷺ على قطعها والسلامة منها.. فالجذام قد ينتقل عن طريق اللمس أو استخدام أدوات المريض ولذلك أمر ﷺ بالفرار من المجذوم.. وأما الطاعون وهو مرض معدي وفتاك فقد شدد ﷺ في أمره حتى أوجب أن يكون هناك حجر

---

(١) سنده صحيح رواه الطبراني في الكبير ٩-٥٠ حدثنا يحى بن أيوب العلاف المصري ثنا سعيد بن أبي مريم ثنا محمد بن جعفر عن سهيل بن أبي صالح عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف عن عثمان بن أبي العاص قال فحكيم قال الحافظ في التقريب: صدوق ١-١٩٤ وتلميذه من رجال الشيخين وهو صدوق: التقريب ١-٣٣٨ ومحمد بن جعفر ابن أبي كثير ثقة: التقريب ٢-١٥٠ وسعيد بن أبي مريم ثقة ثبت فقيه التقريب ١-٢٩٣ وشيخ الطبراني صدوق من رجال التقريب ٢-٣٤٣.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٧٥٢.

(٣) صحيح البخاري ٥-٢١٥٨.

صحي على المريض والمرض معاً حتى في حالة عدم وجود دولة أو نظام أو أطباء فقال: «إن هذا الطاعون رجز سلط على من كان قبلكم أو على بني إسرائيل فإذا كان بأرض فلا تخرجوا منها فراراً منه وإذا كان بأرض فلا تدخلوها»[1]

إذاً فقد رجع المريض من حيث أتى أما بقية وفد ثقيف فبايعوا واشترطوا شروطهم.. ولما سألنا «جابراً عن شأن ثقيف إذ بايعت قال اشترطت على النبي ﷺ أن لا صدقة عليها ولا جهاد وأنه سمع النبي ﷺ بعد ذلك يقول سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا»[2]

تلك هي نظرة النبي الحكيم الذي يبحث عن القلوب لا عن الجيوب..

كان ﷺ يدرك أن هؤلاء القوم الباحثين عن تميز إيجابي لن يرضوا بالنقيصة مستقبلاً فهم وإن امتنعوا عن الجهاد ودفع الزكاة فسيأتي اليوم الذي يشعرون فيه أن امتيازهم هذا تحول إلى نقص في الحقيقة وعيب عندما يرون الأمة كلها تدفع زكاة رها وتهب كلها للجهاد في سبيل الله..

ولم يكن النبي يستخدم هذا الأسلوب مع الجماعة فقط بل مع الأفراد أيضاً فقد قدم إلى المدينة رجل يريد الإسلام ولكن بشرط أعجب من شرط ثقيف: «أتى النبي ﷺ على أن يصلي صلاتين فقبل منه»[3] لأن المشكلة هنا

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٣٨.

(٢) حديث صحيح رواه أبو داود ٣-١٦٣ حدثنا الحسن بن الصباح ثنا إسماعيل يعني ابن عبد الكريم حدثني إبراهيم يعني ابن عقيل بن منبه عن أبيه عن وهب قال سألت... وله طريق آخر عند أحمد ٣-٣٤١ وفي الآحاد والمثاني ٣-١٨٨ من طريق ابن لهيعة وموسى بن عقبة عن أبي الزبير سألت جابر وهما طريقان الأول قوي والثاني صحيح.

(٣) سنده صحيح رواه أحمد ٥-٣٦٣ ثنا وكيع ثنا شعبة عن قتادة عن نصر بن عاصم الليثي

هي الشرك ووحشته.. فإذا خرج من ضيق الشرك إلى فضـــاءات الإســـلام الرحبة فإنه سوف يرف مع غيره في تلك الأجواء الجميلة والرائعة ولن يرضى لنفسه البقاء في القاع.. لا سميا وأن من يشترطون تلـــك الشـــروط يـــرون لأنفسهم ما لا يرون لغيرهم قبل دخول الإسلام فإذا دخلـــوه أدركـــوا أن غيرهم قد تجاوزهم بمسافات من الوعي والإنجاز..

لنعد إلى ثقيف التي دخلت الإسلام فضرب لهم النبي ﷺ قبة وأقـــام معهم فيها ترقيقاً لقلوبهم ولمنحهم مزيداً من الجرعات الإيمانية والعلميـــة حتى بدأوا يسألون عن فروع الإسلام.. فتحت تلك القبة تلقت ثقيـــف دروساً واشترطت شروطاً.. يقول أحد الأنصار رضي الله عنـــهم وهـــو «جابر بن عبد الله إن وفد ثقيف سألوا النبي ﷺ فقالوا: إن أرضـــنا أرض باردة فكيف بالغسل؟ فقال: أمَّا أنا فأفرغ على رأسي ثلاثاً»(١)

.. يقول أحدهم واسمه أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه:

«أتيت رسول الله ﷺ في وفد ثقيف فكنا في قبة فقام من كان فيهـــا غيري وغير رسول الله ﷺ فجاء رجل فساره فقال اذهب فاقتله ثم قـــال: أليس يشهد أن لا إله إلا الله قال: بلى ولكنه يقولها تعوذاً

فقال رده. ثم قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلـــه إلا الله فإذا قالوها حرمت علي دماؤهم وأموالهم إلا بحقها»(٢)

عن رجل منهم أتى.. ووكيع وشعبة وقتادة أئمة معروفون ونصر تابعي ثقة من رجـــال مسلم وقتادة عن نصر على شرط مسلم.. انظر صحيح مسلم ١-٢٩٣ حدثني أبو كامل الجحدري حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن نصر بن عاصم عن مالك بن الحويرث.

(١) صحيح مسلم ١-٢٥٩.

(٢) سنده صحيح رواه أحمد ٤-٨ والدارمي ٢-٢٨٧ والطـــبراني ١-٢١٧ والنســـائي في الكبرى ٢-٢٨٣ من طرق عن شعبة عن النعمان قال سمعت أوساً.. وشعبة بن الحجاج =

درس في الوقاية من الأمراض ودرس في النظافة وثالث في وقاية النفس وحفظ الدماء.. يقدمه النبي ﷺ للمتهورين الذين سمحوا لأنفسهم بالقفز فوق أسوار المظاهر لاقتحام النوايا والبواطن..

وخلال تلك الدروس تسلل من تلك الخيمة رجل قد تلفع بالخجل والعار والخوف والرجاء أيضاً.. تسلل وحشي فجأة رامياً بحربة الشرك وحريته ودماء حمزة وكل ذنوبه بين يدي الله ورسوله راضياً بحكم الله في مصيره.. وحشي يكمل قصته فيقول بعد مقتل حمزة: «فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ ليسلموا تعيت علي المذاهب فقلت ألحق بالشام أو باليمن أو ببعض البلاد فوالله إني لفي ذلك من همي إذ قال لي رجل: ويحك إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل في دينه وتشهد شهادته فلما قال لي ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة فلم يرعه إلا بي قائماً على رأسه أتشهد بشهادة الحق فلما رآني قال: أوحشي؟ قلت: نعم يا رسول الله.. قال: اقعد فحدثني كيف قتلت حمزة.. قال: فحدثته كما حدثتكما.. فلما فرغت من حديثي قال: ويحك غيب عني وجهك فلا أرينك.. قال: فكنت أتنكب رسول الله ﷺ كان لئلا يراني حتى قبضه الله ﷺ»[1]

مع بقائه رضي الله عنه في المدينة وسكناه فيها ومشاركته للنبي عليه السلام في غزواته وحضوره لمجالسه وروايته لحديثه.. لكن حجم حمزة رضي

إمام لقب بأمير المؤمنين في الحديث وشيخه تابعي ثقة من رجال مسلم: التقريب ٢-٣٠٤.

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق - السيرة النبوية ج: ٤ ص: ١٧.
حدثني عبد الله بن الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث عن سليمان بن يسار عن جعفر ابن عمرو بن أمية الضمري قال: خرجت أنا وعبيد الله بن عدي بن الخيار... وقد مر معنا تخريجه، فشيخ ابن اسحاق وشيخ شيخه ثقتان.

الله عنه وطريقة قتله في ميزان محمد الإنسان لا النبي جعلته لا يطيق النظر إلى وجه قاتل حمزة ذلك الوجه الذي سيجدد أحزانه وينشط أوجاعه..

وبعد إسلام ثقيف ووحشي..

بعد تلك الدروس وغيرها وبعد أيام ودعوا نبيهم ﷺ متجهين نحو الطائف.. ولما وصلوا إلى حيث رواحلهم التي يحرسها الشاب عثمان بن العاص طلبوا منه التحرك وعدم الدخول إلى المدينة.. لكن ذلك الشاب كان يحمل في قلبه أشياء لا يستطيع أحد أن يحملها أو يترجمها عنه.. يقول رضي الله عنه: إن قومه ثقيف «خرجوا فقالوا: انطلق بنا قلت: أين؟ فقالوا: إلى أهلك.. فقلت. ضربت من أهلي حتى إذا حللت بباب النبي ﷺ أرجع ولا أدخل عليه وقد أعطيتموني من العهد ما قد علمتم قالوا: فاعجل فإنا قد كفيناك المسألة لم ندع شيئاً إلا سألناه عنه.. فدخلت.. فقلت: يا رسول الله: ادع الله يفقهني في الدين ويعلمني.. قال: ماذا قلت فأعدت عليه القول فقال: لقد سألتني شيئاً ما سألني عنه أحد من أصحابك اذهب فأنت أمير عليهم وعلى من تقدم عليه من قومك وأُمَّ الناس بأضعفهم»[1] ثم أوصاه النبي ﷺ بوصية هامة:

تحريم اتخاذ مؤذن يطلب أجراً على أذانه

قال ﷺ لعثمان «أنت إمامهم فاقتد بأضعفهم واتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً»[2]

---

(١) حديث صحيح مر معنا أوله عند قدوم وفد ثقيف.

(٢) سنده صحيح أحمد ٤-٢١ وغيره من طريق سعيد الجريري عن أبي العلاء عن مطرف عن عثمان بن أبي العاص.. فسعيد بن إياس ثقة التقريب ١-٢٩١ وأبو العلاء كان ثقة فاضلاً =

فالتطويل على الناس في الصلاة ليس دليل علم بل دليل جهل إذا كان فيهم الضعيف والمريض.. واتخاذ الأجر على الأذان ينقل الأذان من قائمة العبادات إلى قائمة الحرف والمهن والوظائف الدنيوية.. وقد يفقد صاحبها ذلك الحلم الرائع الذي بشر به النبي ﷺ يوم القيامة عندما يكون «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»[1] وهذا ما يبحث عنه عثمان الذي يواصل حديثه الممتع فيقول «فخرجت حتى قدمت عليه مرة أخرى فقلت يا رسول الله اشتكيت بعدك»[2]

فـ «شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم فقال له رسول الله ﷺ: ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل باسم الله ثلاثاً.. وقل سبع مرات أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وحاذر»[3] وشكا له أمراً آخر يجده في صلاته «فقال يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي.. فقال: رسول الله ﷺ: ذاك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثاً.. قال: ففعلت ذلك.. فأذهبه الله عني»[4]

ومثل هذا الشيطان الذي عرض لعثمان في صلاته شياطين آخرون يعرضون لكل مسلم يصلي وبطريقة غاية في الخبث.. فهم يشغلون المصلي بالطريقة التي يحبها المصلي نفسه.. فهو يأتي التاجر أثناء صلاته بقائمة من

= كبير القدر سير أعلام ٤-٤٩٤ أما مطرف بن عبد الله فتابعي كبير ثقة التقريب ٢-٢٥٣.

(١) صحيح مسلم ١-٢٩٠.

(٢) هو آخر حديث عثمان السابق.

(٣) صحيح مسلم ٤-١٧٢٨.

(٤) صحيح مسلم ٤-١٧٢٨.

المشاريع الاقتصادية الناجحة ويذكره بما له وما عليه ويثير خوفه على ماله.. ويقدم لمن تستهويه النساء ألبوماً بالصور والأساليب الجديدة للقنص.. أما العلماء فهو يحاورهم في بحوثهم ومراجعهم وآخر ما توصلوا إليه بل يناقش بعضهم بأمور الصلاة نفسها ويشغلهم بصلاة من حولهم وكيف يرتكبون أخطاء فيها.. أما العباد والزهاد الذين لا يحتمل أن الشيطان يستطيع التغلغل إلى صلاتهم فهو يقدم لهم النصح والإرشاد والوعظ أيضاً أثناء صلاتهم ويحثهم على القيام بأداء النوافل بعد الصلاة والتصدق وبر الوالدين وصلة الرحم بل ويذكرهم بعناوين الأقارب الذين لم يروهم منذ فترة وفي النهاية يسلم المصلي وقد أدرك أنه كان في رحلة مثيرة مع الشيطان..

أما قصة عثمان مع الشيطان فيقول عنها: «قلت: يا رسول الله إني أجد في نفسي شيئاً قال: أدنه فجلسني بين يديه ثم وضع كفه في صدري بين ثديي ثم قال تحول فوضعها في ظهري بين كتفي ثم قال: أم قومك فمن أم قوماً فليخفف فإن فيهم الكبير وإن فيهم المريض وإن فيهم الضعيف وإن فيهم ذا الحاجة وإذا صلى أحدكم وحده فليصل كيف شاء»[1] وكان «آخر ما عهد إلي رسول الله ﷺ: إذا أممت قوماً فأخف بهم الصلاة»[2] فـ «آخر ما فارقه رسول الله ﷺ قال إذا صليت بقوم فخفف بهم حتى وقت لي اقرأ باسم ربك الذي خلق» «وأشباهها من القرآن»[3] وهي سنة النبي ﷺ التي يقول عنها أنس

(١) صحيح مسلم ١-٣٤١.

(٢) صحيح مسلم ١-٣٤٢.

(٣) سنده قوي رواه أحمد ٤-٢١٨ واللفظ له والآخر لـ ابن سعد ٥-٥٠٨ عن عبد الله بن عثمان بن خثيم قال حدثني داود بن أبي عاصم عن عثمان بن أبي العاص وداود تابعي ثقة: التقريب ١-٢٣٢ وتلميذه عبد الله صدوق من رجال مسلم: التقريب ١-٤٣٢.

رضي الله عنه «ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة ولا أتم صلاة من رسول الله ﷺ»[1].

انطلق وفد ثقيف وجاءت وفود أخرى وكان أفضلها وفد قبائل: عبد القيس وأسلم وغفار ومزينة وجهينة، وقدمت بعدها وفود أخرى

وفد جميل من المشرق

هذا الوفد القادم من المشرق قد تميز بأشياء جميلة عطر بها النبي ﷺ أجواءهم وأشجى بها أسماعهم.. وكأنها مكافأة لهم على تجشمهم الصعاب في الوصول إليه.. حيث إنهم لا يستطيعون السفر للمدينة إلا في الأشهر الحرم نظراً لأن أعداءهم يحولون بينهم وبين ذلك.. ذلك الوفد هو:

وفد البحرين

يقول أحد الصحابة: «إن وفد عبد القيس لما أتوا رسول الله ﷺ قال: مَنِ الوفدُ؟ قالوا ربيعة قال مرحباً بالوفد أو القوم غير خزايا ولا ندامى قالوا: يا رسول الله إن بيننا وبينك كفار مضر فمرنا بأمر ندخل به الجنة ونخبر به من وراءنا فسألوا عن الأشربة فنهاهم عن أربع وأمرهم بأربع أمرهم بالإيمان بالله قال: هل تدرون ما الإيمان بالله قالوا: الله ورسوله أعلم قال: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأظن فيه صيام رمضان وتؤتوا من المغانم الخمس ونهاهم عن الدباء والحنتم والمزفت والنقير»[2] «احفظوهن

(١) صحيح مسلم ١-٣٤٢.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٦٥٢.

وأبلغوهن من وراءكم»[1] «قالوا: يا نبي الله ما علمك بالنقير؟ قال: بلى جذع تنقرونه فتقذفون فيه من القطيعاء أو من التمر ثم تصبون فيه من الماء حتى إذا سكن غليانه شربتموه حتى إن أحدكم أو إن أحدهم ليضرب ابن عمه بالسيف قال وفي القوم رجل أصابته جراحة كذلك قال: وكنت أخبئها حياء من رسول الله ﷺ فقلت: ففيمَ نشرب يا رسول الله قال: في أسقية الأدم التي يلاث على أفواهها قالوا: يا رسول الله إن أرضنا كثيرة الجرذان ولا تبقى بها أسقية الأدم فقال نبي الله ﷺ: وإن أكلتها الجرذان وإن أكلتها الجرذان.. وإن أكلتها الجرذان»[2]

أي وإن قلت تلك الجلود وأصبحت نادرة لأكل الجرذان لها..

لكن هذا الحكم لم يدم فقد أنزل الله على نبيه حكماً بالسماح بالشرب في الدباء وهو وعاء مصنوع من القرع بعد تفريغه.. والحنتم وهي جرة الخمر الخضراء.. والمزفت وهو وعاء مطلي بالزفت.. وكذلك النقير وهو خشبة منحوتة على شكل إناء لشرب الخمر.. وكأن الحكم السابق نزل لترع كل ما يذكر الإنسان بالخمر من أواني تفنن في صنعها لإضفاء أجواء معينة على مجالس الشرب.. كما نزلت أحكام جديدة.. قال «بريدة قال رسول الله ﷺ: نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها.. ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث فأمسكوا ما بدا لكم.. ونهيتكم عن النبيذ إلا في سقاء فاشربوا في الأسقية كلها ولا تشربوا مسكراً»[3]

ثم توجه النبي ﷺ إلى أحد أبرز هذا الوفد الكريم وأثنى على صفتين

---

(١) صحيح البخاري ٦-٢٦٥٢.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ١-٤٨.

(٣) صحيح مسلم ١-٤٨.

من صفاته حيث «قال نبي الله ﷺ لأشج عبد القيس إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»[1]

وقد طال مجلس عبد القيس مع النبي ﷺ من صلاة الظهر إلى صلاة العصر.. ولما انصرفوا حدث من النبي ﷺ شيء لم يكن يصنعه.. فقد كان ﷺ لا يصلي بعد العصر بل قد «نهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس وبعد العصر حتى تغرب الشمس»[2]

«قالت أم سلمة سمعت رسول الله ﷺ ينهى عنهما ثم رأيته يصليهما أما حين صلاهما فإنه صلى العصر ثم دخل وعندي نسوة من بني حرام من الأنصار فصلاهما فأرسلت إليه الجارية فقلت قومي بجنبه فقولي له تقول أم سلمة يا رسول الله: إني أسمعك تنهى عن هاتين الركعتين وأراك تصليهما فإن أشار بيده فاستأخري عنه قال ففعلت الجارية فأشار بيده فاستأخرت عنه فلما انصرف قال يا بنت أبي أمية سألت عن الركعتين بعد العصر إنه أتاني ناس من عبد القيس بالإسلام من قومهم فشغلوني عن الركعتين اللتين بعد الظهر فهما هاتان»[3]

انصرف وفد عبد القيس ليبني مسجداً في البحرين وليكون هذا الوفد قد حقق سبقاً قال عنه ابن عباس «إن أول جمعة جمعة بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبد القيس بجواثي من البحرين»[4]

وجاءت وفود أخرى ولم يكن متوقعاً من كل تلك الوفود أن تكون على مستوى واحد من حسن التعامل والثقافة، فهي وفود ضاربة الجذور

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٥٦٣.

(٢) صحيح البخاري ١-٢١٢.

(٣) صحيح مسلم ١-٥٧١.

(٤) صحيح البخاري ١-٣٠٤.

في الجاهلية.. كما أن تلك الوفود لم تكن تمثل قبائلها إلا رسمياً لكنها لا تمثل أخلاقيات وسلوك كل فرد فيها.. فعند:

قدوم وفد تميم ووفد من اليمن

كان هناك تنافس بين سيدي كهول أهل الجنة حول من يتكلم من بني تميم أولاً فقد «قدم ركب من بين تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد.. وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس.. فقال أبو بكر: ما أردت إلى أو إلا خلافي.. فقال عمر: ما أردت خلافك.. فتماريا حتى ارتفعت أصواهما فنزل في ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)﴾ حتى انقضت الآية»(١)

وكان لخلاف الشيخين العظيمين ورفع أصواهما عقوبة آنية عندما خيب المحتفى هما آمال الشيخين.. أحد المحتفى هما يقول عن نفسه « إنه أتى النبي ﷺ فناداه [فلم يجبه] فقال: يا محمد إن مدحي زين وإن شتمي شين فخرج إليه النبي ﷺ فقال: ويلك ذلك الله فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ [أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾]»(٢)

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٨٣٤ وقد أكملت الآية للفائدة.

(٢) سنده صحيح روه الطبري في التفسير ٢٦-١٢٢ وأحمد والزيادة له أحمد ٣-٤٨٨ وغيرهما من رواية عفان قال ثنا وهيب قال ثنا موسى بن عقبة عن أبي سلمة قال ثنا الأقرع بن حابس التميمي.

لكن هذا الرجل الذي غلبته أعرابيته تمادى ليفخر على من سبقه بالبيعة فقال: «إنما بايعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة.. وجهينة بن أبي يعقوب»[1] فكان رد النبي ﷺ عليه قاسياً جداً..

ثم التفت عليه السلام إلى من جاء معه من قومه مبشراً فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم قالوا: قد بشرتنا فأعطنا، فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم قالوا: قد بشرتنا فأعطنا مرتين.

ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم.. قالوا: قد قبلنا يا رسول الله.. قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر.. قال: كان الله و لم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض فنادى مناد ذهبت ناقتك يا ابن الحصين فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب فوالله لوددت أني كنت تركتها»[2]

وبعد أن عاد الأقرع ومن معه إلى ديارهم بشر النبي ﷺ أمته بخروج جيل من أصلاب هؤلاء الأجلاف يعز الله بهم الإسلام كما تنبأ لثقيف من قبل بذلك.. فقال عليه السلام: «هم أشد أمتي على الدجال»[3]

أما أهل اليمن الذين قبلوا البشرى فالمدينة تستقبل كل فترة وافداً منهم.. فمن أرض اليمن انطلق رجل يقال له جرير بن عبد الله البجلي نحو المدينة.. ولما وصلها غير ملابسه ودخلها وعندما دخلها وجد النبي ﷺ يخطب في أصحابه ولكن أصحابه كانوا لا ينظرون إلى النبي بل ينظرون إلى جرير وهو يمشي نحوهم..

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٢٩٤.

(٢) صيح البخاري ٣-١١٦٦ وابن الحصين هو راوي الحدث وكان حاضراً.

(٣) صحيح البخاري ٢-٨٩٨.

لماذا.. أوليس من هدي الصحابة الإنصات للنبي عليه السلام.. بلى ولكن لدى جرير ما يثير.. ولديه ما يخبرنا عنه فيقول رضي الله عنه:

«لما دنوت من المدينة أنخت راحلتي ثم حللت عيبتي ثم لبست حلتي ثم دخلت فإذا رسول الله ﷺ يخطب فرماني الناس بالحدق فقلت لجليسي: يا عبد الله ذكرني رسول الله ﷺ قال: نعم ذكرك آنفاً بأحسن ذكر.. فبينا هو يخطب إذ عرض له في خطبته وقال: يدخل عليكم من هذا الباب أو من هذا الفج من خير ذي يمن ألا إن على وجهه مسحة ملك قال: جرير فحمدت الله عز وجل على ما أبلاني»[1]

وبعد أن التقى جرير بالنبي ﷺ وجده كالنسمة الباردة لهجيره.. كالماء البارد لعطشه يقول رضي الله عنه: «ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمت ولا رآني إلا تبسم في وجهي»[2]

هذا هو سلوك ا لنبي ﷺ مع الصحابة فليبحث المتجهمون عن قدوة غيره ليبرروا تجهمهم وضيقهم بالناس وبأنفسهم..

أما عبارات بيعة جرير فتغير أعماق الأرض وأعماق البشر.. يقول رضي الله عنه: «بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة

---

(١) سنده قوي رواه أحمد ٤-٣٥٩ مسند الحارث - زوائد ٢-٩٣٥ من طريق يونس بن أبي إسحاق ثنا المغيرة بن شبل الأحمسي قال سمعت جرير بن عبد الله البجلي... المغيرة تابعي ثقة: التقريب ٢-٢٦٩ وتلميذه صدوق من رجال مسلم التقريب ٢-٣٨٤.

(٢) صحيح البخاري ٥-٢٢٦٠.

والنصح لكل مسلم»[1] و«على السمع والطاعة فلقنني: فيما استطعت.. والنصح لكل مسلم»[2]

وجاء وافد آخر من أهل اليمن وزعيم من زعمائهم.. بل ورجل سبق الأنصار في دعوة النبي ﷺ للهجرة لكنه لم يكن واثقاً من ردة فعل قومه إزاء قراره استقبال هذا النبي المضطهد: «الطفيل بن عمرو الدوسي أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله هل لك في حصن حصين ومنعة.. - حصن كان لدوس في الجاهلية قال ﷺ: [أمعك من وراءك قال لا أدري] فأبى ذلك النبي ﷺ للذي ذخر الله للأنصار فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هاجر إليه الطفيل بن عمرو وهاجر معه رجل من قومه فاجتووا المدينة فمرض فجزع فأخذ مشاقص له فقطع بها براجمه فشخبت يداه حتى مات.. فرآه الطفيل بن عمرو في منامه فرآه وهيئته حسنة ورآه مغطياً يديه فقال له: ما صنع بك ربك فقال: غفر لي بهجرتي إلى نبيه ﷺ فقال: ما لي أراك مغطياً يديك قال: قيل لي لن نصلح منك ما أفسدت فقصها الطفيل على رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ اللهم وليديه فاغفر»[3]

وقد شكا الطفيل رضي الله عنه تأخر إسلام قومه وعصيانهم فبعد أن «قدم طفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه على النبي ﷺ فقالوا يا رسول الله إن دوساً عصت وأبت فادع الله عليها فقيل هلكت دوس قال اللهم اهد دوسا وأت بهم»[4]

وعاد أبو موسى الأشعري إلى اليمن ليأتي بقومه فقال ﷺ و

(١) صحيح مسلم ١-٧٥ والزيادة من صحيح ابن حبان ٧-٢٨٧ وهي صحيحة السند.

(٢) صحيح مسلم ١-٧٥ والزيادة من صحيح ابن حبان ٧-٢٨٧ وهي صحيحة السند.

(٣) صحيح مسلم ١-١٠٨.

(٤) صحيح البخاري ٣-١٠٧٣.

الأشعريون في طريقهم إلى المدينة

«يقدم عليكم أقوام هم أرق منكم قلوباً قال فقدم الأشعريون فيهم أبو موسى الأشعري فلما دنوا من المدينة كانوا يرتجزون يقولونً:

غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه»[1]

النبي يثني على أهل اليمن

فيقول: «أتاكم أهل اليمن هم ألين قلوباً وأرق أفئدة، الإيمان يمان والحكمة يمانية رأس الكفر قبل المشرق»[2] «أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً الإيمان يمان والحكمة يمانية والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل والسكينة والوقار في أهل الغنم»[3] والذي يبدو من سياق الأحاديث أن سر الوهج اليماني وعلو مترلتهم يكمن في تواضعهم وابتعادهم عن مظاهر الفخر والسلوك الجاهلي القائم على الاعتداد بالنفس وازدراء الآخرين..

فالنبي ﷺ يقول: «أهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره.. وأهل النار كل جواظ عتل مستكبر»[4]

وإذا كانت القلوب اليمنية بهذه الرقة والصفاء فلا بد أن يوازيها صفاء على أرض اليمن نفسها.. فهي مازالت تئن تحت أكداس من ركام

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣-١٠٥ وابن حبان ١٦-١٦٤ من طريق ابن أبي عدي ويزيد ابن هارون عن حميد عن أنس قال.. فحميد الطويل تابعي ثقة من رجال الشيخين سمع من أنس: التقريب ١-٢٠٢.

(٢) صحيح مسلم ١-٧٣.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٩٤.

(٤) صحيح البخاري ٦-٢٤٥٢.

الجاهلية وأوثانها وأصنامها.. بل لقد بنى المشركون هناك كعبة لهم.. فمن هو المرشح لـــ:

هدم كعبة اليمانية

لم يجد النبي ﷺ أنسب من صاحب المسحة الملائكية جرير بن عبد الله.. لكن جريراً كان يفقد توازنه عند ركوبه الخيل ويتمنى لو يثبت على ظهرها لاسيما وهو يقول: «رأيت رسول الله ﷺ يلوي ناصية فرس بإصبعه وهو يقول الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة»[1] لكن النبي ﷺ قال لجرير: «يا جرير ألا تريحني من ذي الخلصة -بيت لخثعم كان يدعى كعبة اليمانية- قال: فنفرت في خمسين ومائة فارس وكنت لا أثبت على الخيل فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فضرب يده في صدري فقال: اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً.. فانطلق فحرقها بالنار ثم بعث جرير إلى رسول الله ﷺ رجلاً يبشره يكنى أبا أرطأة منا فأتى رسول الله ﷺ فقال له: ما جئتك حتى تركناها كأنها جمل أجرب.. فبرك رسول الله ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات»[2] أي دعا لهم بالبركة..

أما اليمن فقد أصبحت أكثر استعداداً لتقبل الدعاة والأمراء إلى هذا الدين الجديد بعد تلك الإرهاصات وبعد انتشار التوحيد على أرضها..

فمن سيبعث إلى اليمن للتعليم ومن سيعين أميراً عليها لاسيما وأن هناك اثنين من أهل اليمن تقدموا بطلب تلك الوظيفة..

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٩٣.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٩٢٦.

قصة الرجلين اللذين طلبا إمارة اليمن

هما رجلان من أهل اليمن قدما إلى المدينة بصحبة أبي موسى الأشعري دون أن يشعر أبو موسى بما يضمران في نفسيهما.. ولما وقفا أمام النبي ﷺ قدما طلبيهما.. فماذا كانت إجابة النبي ﷺ على من يطلب الإمارة..

أبو موسى حضر تلك المحادثة وروى تلك القصة فقال: «أقبلت إلى النبي ﷺ ومعي رجلان [من بني عمي] من الأشعريين أحدهما عن يميني والآخر عن يساري فكلاهما سأل العمل والنبي ﷺ يستاك.. فقال: ما تقول يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس؟ فقلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما وما شعرت أنهما يطلبان العمل.. وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته وقد قلصت فقال: لن أو لا نستعمل على عملنا من أراده [ولا أحداً حرص عليه] ولكن اذهب أنت يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس فبعثه على اليمن ثم أتبعه معاذ بن جبل»[١]

فـ «قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.. فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم.. أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة.. فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم.. أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم.. فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم.. واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»[٢] فـ «لما قدم اليمن صلى

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٥٦ والزوائد له أيضاً.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٨٠.

بهم الصبح فقرأ ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ فقال رجل من القوم: لقد قرت عين أم إبراهيم»[1]

وبعد أن «بعث رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن وبعث كل واحد منهما على مخلاف -واليمن مخلافان- ثم قال يَسِّرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا [وتطاوعا فقال أبو موسى يا نبي الله إن أرضنا بها شراب من الشعير المزر وشراب من العسل البتع فقال كل مسكر حرام.. فانطلقا فقال معاذ لأبي موسى: كيف تقرأ القرآن؟ قال قائماً وقاعداً وعلى راحلتي وأتفوقه تفوقاً.. قال: أما أنا فأنام وأقوم فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي وضرب فسطاطاً فجعلا يتزاوران] فانطلق كل واحد منهما إلى عمله.. وكان كل واحد منهما إذا سار في أرضه وكان قريباً من صاحبه أحدث به عهداً فسلم عليه.. فسار معاذ في أرضه قريباً من صاحبه أبي موسى فجاء يسير على بغلته حتى انتهى إليه وإذا هو جالس وقد اجتمع إليه الناس وإذا رجل عنده قد جمعت يداه إلى عنقه..

فقال له معاذ: يا عبد الله بن قيس أيم هذا[2]؟ قال: هذا رجل كفر بعد إسلامه.. قال: لا أنزل حتى يقتل قال: إنما جيء به لذلك فانزل.. قال: ما أنزل حتى يقتل فأمر به فقتل ثم نزل»[3]

.. ولا يعني قول النبي ﷺ: يسرا وبشرا أن يتخليا عن تنفيذ الحدود الموحى بها.. لأن التيسير مساحة لا نهاية لها.. أما تطبيق الحدود فهو وإن كان في مخالفات قليلة بعدد أصابع اليد الواحدة: إلا أن هذه الحدود تحفظ

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٨٠.

(٢) إيش هذا أو ما هذا؟

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٧٨ والزيادة له ٤-١٥٧٩.

أساسات الحياة وهي: العرض والمال والدم والعقل والدين.. فإذا تم العبث بهذه الأشياء وانعدمت حمايتها تحول العالم إلى بقعة شرسة يعتبر ما يحدث في الغابة الحيوانية أرقى بكثير مما يحدث فيها.. فما يجري في الغاب هو صراع من أجل البقاء لا أكثر.. أما على الأرض فسيتحول الصراع إلى هدف لإفناء الآخر وسحقه.. فإذا غابت الحدود يوماً عن الأرض فستغيب أشياء كثيرة أولها التسامح وآخرها الإنسان.. وما وصل الإسلام إلى اليمن إلا من أجل الإنسان.. هكذا جرت الأحداث في اليمن.. أما في المدينة فقد كانت الوفود تسيل إليها ومنها في الوقت الذي قرر النبي ﷺ إرسال أكبر بعث لا للغزو بل إلى مكة لأداء الحج.. وقد اختار لإمارة هذا البعث صاحبه أبا بكر الصديق وقد سميت هذه الحجة:

حجة أبي بكر رضي الله عنه

وقبل أن ينطلق رضي الله عنه أمره النبي ﷺ بإعلان بيانات نبوية خلال مواسم الحج القادمة تحمل توحيداً نقياً يقطع آخر الطرق بين الشرك والأجيال الجديدة المفعمة بالفطرة..

القرار الأول: منع أي مشرك يعلن شركه من الحج بعد هذا العام.

الثاني: منع التعري داخل البيت الحرام وأثناء الطواف وهي من عادات الشرك البالية المتخلفة.

يقول أبو هريرة: «بعثني أبو بكر الصديق في الحجة التي أمره عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان»[1]

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٨٢.

وهذا يعني أن أبا بكر حج بالعرب كافة مسلمهم ومشركهم.. أما في المدينة فقد نزلت سورة براءة على النبي ﷺ.. وقد أمر جبريل النبي ﷺ بإعلانها بنفسه على الحجاج أو يكلف رجلاً من أهل بيته بذلك.. فأمر علياً رضي الله عنه أن يحملها إلى مكة وأن يعلنها بنفسه على أولئك الحجاج.. مما خلق تساؤلاً لدى أبي بكر الصديق بصفته أميراً على الحجاج وأميراً على علي رضي الله عنه.. ولم يكن يعلم وقتها أن علياً كان مكلفاً فقط بإعلان براءة مع بقائه تحت إمرة أبي بكر رضي الله عنهما: يقول أبو هريرة: « فأذن معنا علي يوم النحر في أهل منى ببراءة وأن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان»(١)

أحد الصحابة يقص ما حدث بتفصيل أكثر فيقول:

«بعث النبي ﷺ أبا بكر وأمره أن ينادي هؤلاء الكلمات ثم أتبعه علياً فبينا أبو بكر في بعض الطريق إذ سمع رغاء ناقة رسول الله ﷺ القصواء.. فخرج أبو بكر فزعاً فظن أنه رسول الله ﷺ.. فإذا هو علي فدفع إليه كتاب رسول الله ﷺ وأمر علياً أن ينادي هؤلاء الكلمات.. فانطلقا فحجا فقام علي أيام التشريق فنادى: ذمة الله ورسوله بريئة من كل مشرك، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ولا يحجن بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان.. ولا يدخل الجنة إلا مؤمن.. وكان علي ينادي فإذا عيي قام أبو بكر فنادى بها»(٢) ولما سئل علي رضي الله عنه «بأي شيء

---

(١) صحيح البخاري ٤-٩-١٧٠٩.

(٢) حديث صحيح رواه البيهقي ٩-٢٢٤ والترمذي ٥-٢٧٥ واللفظ له حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عباد بن العوام حدثنا سفيان بن حسين عن الحكم ابن عتيبة عن مقسم عن ابن عباس وهذا سند قوي وله شاهد عند النسائي في الكبرى ٢-٤١٦ سنن الدارمي ٢-٩٢ وغيرهما من طريق موسى بن طارق عن ابن جريج قال =

بعثت قال بأربع؛ أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ولا يطوف بالبيت عريان ولا يجتمع مسلم ومشرك بعد عامهم هذا في الحج ومن كان له عهد فعهده إلى مدته ومن لم يكن له عهد فأربعة أشهر»(١)

وبذلك تم تحرير مكة من كل علاقة بالشرك والمشركين وقطعت كل صلة لها بالخرافة والوثنية..

أتم الجميع مناسك حجهم وعادوا إلى ديارهم وتوجه أبو بكر رضي الله عنه إلى المدينة.. وعند وصوله سلم على النبي ﷺ وسأله عن ذلك الأمر «فلما رجع أبو بكر قال: هل نزل في شيء؟ قال: لا ولكني أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي»(٢) ولم يكن في الأمر سوى تكريم لعلي بالإضافة إلى تكريم أبي بكر وخصه بقيادة المسلمين كافة إلى الحج.. ولو كان في الأمر مساس بأبي بكر وإمارة أبي بكر لعزله النبي ﷺ من الأمارة وسلمها لأحد الصحابة لكن الأمر غير ذلك فقد بقي علي وغيره رضي الله عنهم تحت إمرة أبي بكر رضي الله عنه طوال مدة الحج..

= حدثني عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير عن جابر وهذا سند صحيح لولا عنعنة أبي الزبير عن جابر وهو على شرط مسلم.

(١) سنده صحيح رواه الترمذي ٣-٢٢٢ والحميدي ١-٢٦ سنن سعيد بن منصور ٥-٢٣٣ واللفظ له من طريق سفيان عن أبي إسحاق الهمداني عن زيد بن يثيع قال سألنا علياً.. انظر ما بعده.

(٢) تفسير الطبري ١٠-٦٤ والنسائي في السنن الكبرى ٥-١٢٨ وأحمد ١-٣ من طريق يونس بن أبي إسحاق وإسرائيل عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع قال وهو سند صحيح قال في الدارقطني في العلل ١-٢٧٤ بعد أن ذكر طرق الحديث: وقال ابن عيينة عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع قال سألنا علي بن أبي طالب بأي شيء بعثني النبي ﷺ بأربع وقول بن عيينة أشبه بالصواب والله أعلم وكذلك قال أبو بكر بن عياش وأبو شيبة إبراهيم بن عثمان عن أبي إسحاق.

وخلال تلك الأيام لم تنقطع الوفود عن القدوم إلى المدينة لمبايعة النبي ﷺ.. كانوا يتدفقون موجات من الحب والشوق نحو المدينة.. فهذا وفد لم يمنعه الفقر والعوز من الرحيل إلى المدينة:

وفد مزينة

يقول أحدهم وهو النعمان بن مقرن رضي الله عنه «قدمنا على رسول الله ﷺ في أربعمائة من مزينة فأمرنا رسول الله ﷺ بأمره فقال بعض القوم يا رسول الله ما لنا طعام نتزوده فقال النبي ﷺ لعمر: زودهم فقال ما عندي إلا فاضلة من تمر وما أراها تغني عنهم شيئاً فقال انطلق فزودهم فانطلق بنا إلى علية له فإذا فيها تمر مثل البكر الأورق فقال خذوا فأخذ القوم حاجتهم.. وكنت أنا في آخر القوم فالتفت وما أفقد موضع تمرة وقد احتمل منه أربعمائة رجل»[1] ثم عادوا إلى بلادهم مزودين بالتمر والإيمان.. وجاء:

وفد بني أسد

وتميز هذا الوفد بلغة بليغة لكنهم أفسدوها ببعض الفخر والمنة في وقت لا مكان فيه للفخر ولا للمنة.. لاسيما وهم قد قدموا لتقديم الولاء والبيعة والطاعة.. «ابن عباس قال: قدم على النبي ﷺ وفد بني أسد فتكلموا فأبانوا فقالوا: يا رسول الله قاتلتك مضر كلها و لم نقاتلك..

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٥-٤٤٥ ثنا عبد الصمد ثنا حرب يعني بن شداد ثنا حصين عن سالم بن أبي الجعد عن النعمان بن مقرن وسالم تابعي ثقة يرسل كثيراً لكنه سمع من النعمان هذا الحديث كما في التدوين في أخبار قزوين ١-٨٢ وحصين السلمي تابعي صغير وثقة من رجال الشيخين التقريب ١-١٨٢ وتلميذه حرب ثقة أيضاً وكذلك عبد الصم بن عبد الوارث.

ولسنا بأقلهم عدداً ولا أكلهم شوكة وصلنا رحمك فقال رسـول الله ﷺ لأبي بكر وعمر حيث سمع كلامهم: أيتكلمون هكذا؟

قال: يا رسول الله؟س إن فقههم لقليل وإن الشيطان لينطـق علـى لسانهم»[1]

أما الوفد القادم فكانت تحملهم الذكريات وتنطق المشـاعر علـى لسانهم إنهم

وفد بني محارب

وأحدهم يحمل ذكريات أليمة عن مكة وبدايات الـدعوة في مكـة المكرمة واسمه طارق بن عبد الله المحاربي حيث يقول رضـي الله عنـه: «رأيت رسول الله ﷺ مر بسوق ذي المجاز وأنا في بياعة لي.. فمر وعليه حلة حمراء فسمعته يقول: يا أيها الناس.. قولوا لا إلـه إلا الله تفلحـوا ورجل يتبعه يرميه بالحجارة قد أدمى كعبه.. وهو يقول: يا أيها الناس.. لا تطيعوا هذا فإنه كذاب.. فقلت: من هذا؟ فقيل: غلام من بني عبـد المطلب.. فلما أظهر الله الإسلام خرجنا من الربذة ومعنا ظعينة لنا حـتى نزلنا قريباً من المدينة فبينا نحن قعوداً إذ أتانا رجل عليه ثوبان فسلم علينا.. فقال: من أين القوم؟ فقلنا: من الربذة.. ومعنا جمل أحمر فقال: تبيعـوني

(١) سنده صحيح رواه النسائي في الكبرى ٦-٤٦٧ أبو يعلى ٤-٢٥٠ ومن طريقه الضـياء ١٠-٣٤٥ حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي حدثنا أبي حدثنا محمـد بـن قـيس الأسدي عن محمد بن عبيد الله الثقفي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: محمد بن عبيـد الله أبو عون تابعي ثقة من رجال الشيخين: التقريب ٢-١٨٧ وتلميذه ثقة من رجـال مسلم التقريب ٢-٢٠٢ ويحيى صدوق من رجال الشيخين: التقريب ٢-٣٤٨ وابنه ثقة من رجالهما انظر التقريب: ١-٣٠٨.

هذا الجمل؟ فقلنا: نعم.. فقال: بكم؟ فقلنا: بكذا وكذا صاعاً من تمـــر.. قال: أخذته وما استقصي.. فأخذ بخطام الجمل فذهب به حتى توارى في حيطان المدينة.. فقال بعضنا لبعض: تعرفون الرجل؟ فلم يكن من أحـــد يعرفه.. فلام القوم بعضهم بعضاً فقالوا: تعطون جملكم من لا تعرفون.. فقالت الظعينة: فلا تلاوموا.. فلقد رأينا رجلاً لا يغدر بكم ما رأيت شيئاً أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه.. فلما كان العشي أتانا رجـــل فقـــال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. أأنتم الذين جئتم من الربذة؟ قلنـــا: نعم.. قال: أنا رسول الله ﷺ إليكم.. وهو يأمركم أن تأكلوا من هـــذا التمر حتى تشبعوا وتكتالوا حتى تستوفوا.. فأكلنا من التمر حتى شـــبعنا واكتلنا حتى استوفينا.. ثم قدمنا المدينة من الغد فإذا رسول الله ﷺ قـــائم يخطب الناس على المنبر.. فسمعته يقول: يد المعطي العليا وابدأ بمن تعول أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك أدناك وثَمَّ رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله.. هؤلاء بنو ثعلبة بن يربوع الذين قتلوا فلاناً في الجاهلية فخذ لنا بثأرنا.. فرفع رسول الله ﷺ يديه حتى رأيت بياض إبطيه فقال: لا تجني أمّ على ولد.. لا تجني أمّ على ولد»(١)

إذا كان طارق المحاربي مسافر تحمله الذكريات إلى حيث النبي عليـــه السلام فإن هذا المسافر يجعل الذكريات تحمل النبي ﷺ إلى عالم الطفولـــة ومضارب بني سعد حيث الغنيمات وإخوته الصغار وأمه حليمة السعدية إنه:

---

(١) سنده صحيح رواه الحكم ٢-٦٦٨ وابن حبان ١٤-٥١٨ وغيرهما من طرق عن يزيد بن زياد ابن أبي الجعد عن جامع بن شداد عن طارق بن عبد الله المحاربي: وجامع تابعي ثقة: التقريب ١-١٢٤ وتلميذه ثقة أيضاً: التقريب ٢-٣٦٤.

أفضل وافد: ضمام بن ثعلبة

أما لماذا صار هذا الأعرابي أفضل وافد على النبي ﷺ فله قصة يرويها أنس بن مالك رضي الله عنه فيقول: «بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال لهم: أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم.. فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ.. فقال له الرجل: ابن عبد المطلب.. فقال له النبي ﷺ: قد أجبتك.. فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك.. فقال: سل عما بدا لك.. فقال: أسألك بربك ورب من قبلك آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: اللهم نعم.. قال أنشدك بالله آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؛ قال: اللهم نعم.. قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: اللهم نعم.. قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: اللهم نعم. فقال الرجل: آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورائي من قومي وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر»[1] «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص ثم انصرف إلى بعيره راجعاً قال.. فقال رسول الله ﷺ: إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة فأتى بعيره فأطلق عقاله ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى.. قالوا: مه يا ضمام.. اتق البرص اتق الجنون.. قال: ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان.. إن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً

---

(١) صحيح البخاري ١-٣٥.

استنقذكم به مما كنتم فيه.. وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه.... فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً.. قال عبد الله بن عباس فما سمعنا بوافد قدم كان أفضل من ضمام ابن ثعلبة»[1]

الوفد تأتي وتذهب.. والأمراء يذهبون ويأتون.. ها هو:

النبي ﷺ يرسل خالداً إلى اليمن

يرسله أميراً وداعية لأرض الإيمان والحكمة.. وبعد فترة بعث إليه علي بن أبي طالب كي يخلفه ويقبض منه خمس الغنائم التي كانت تحت إدارة سيف الله.. يقول أحد الصحابة وهو البراء: «بعثنا رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد إلى اليمن.. ثم بعث علياً بعد ذلك مكانه فقال مر أصحاب خالد من شاء منهم أن يعقب معك فليعقب ومن شاء فليقبل فكنت فيمن عقب معه فغنمت أواقي ذوات عدد»[2]

وقد حدثت خلال تلك الفترة الانتقالية بعض القصص مثل هذه القصة التي أضافت لعلي رضي الله عنه الجديد من الفضائل..

يقول «بريدة رضي الله عنه: بعث النبي ﷺ علياً إلى خالد ليقبض الخمس وكنت أبغض علياً وقد اغتسل فقلت لخالد ألا ترى إلى هذا؟ فلما

---

(١) سنده قوي رواه ابن إسحاق السيرة النبوية ٥-٢٦٧ حدثني محمد بن الوليد بن نويفع عن كريب مولى ابن عباس عن ابن عباس وابن الوليد قال عنه الدارقطني يعتبر به و لم ينفرد فقد تابعه سلمة بن كهيل عند أبي داود ١-١٣٢ وغيره وسلمة وكريب تابعيان ثقتان من رجالهما: التقريب ١-٣١٨.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٨٠.

قدمنا على النبي ﷺ ذكرت ذلك له.. فقال: يا بريدة.. أتبغض علياً؟ فقلت؛ نعم.. قال: لا تبغضه فإن له في الخمس أكثر من ذلك»[1] ويقصد النبي ﷺ تلك الجارية التي اغتسل علي من أجلها.. بعد أن أخذها من الخمس.. فغضب بريدة من صنعه واستكثرها عليه.. أما علي رضي الله عنه فقد استلم مهمته الجديدة وبدأ بإدارة الأمور بكفاءة.. وحصل المسلمون على بعض الغنائم فأرسل علي منها للنبي ﷺ.. فقسمها بين بعض أصحابه وحضر تلك القسمة متطرف من:

جذور الخوارج

يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذهيبة في أديم مقروظ لم تحصل من ترابها.. فقسمها بين أربعة نفر بين عيينة بن بدر وأقرع بن حابس وزيد الخيل والرابع إما علقمة وإما عامر بن الطفيل فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء.. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً.. فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناشز الجبهة كث اللحية محلوق الرأس مشمر الإزار فقال: يا رسول الله اتق الله قال: ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله؛ ثم ولى الرجل قال خالد ابن الوليد: يا رسول الله.. ألا أضرب عنقه؟ قال: لا لعله أن يكون يصلي.. فقال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه؟ قال رسول الله ﷺ: إني لم أومر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم.. ثم نظر إليه وهو مقف فقال: إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٨١.

يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية.. لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود»[1] فقتال هؤلاء الخوارج من واجبات إمام المسلمين حتى تنكسر شوكتهم وينعدم تأثيرهم على أمن دولة الإسلام.. عندما يتحولون إلى مجرد أفكار متطرفة تعرض على الكتاب والسنة.. لكنها لا تعرض على السيف إلا في حالة تحولها إلى سرايا أو قوة تتحرك على وجه الأرض لشق جماعة المسلمين وزعزعة أمنهم وأمن دولتهم.. وهذا ما فعله النبي ﷺ وخطه لأمته.. فهو لم يكفره ولم يقتله بل ولم يمسه بأذى لأنه لا يمثل تهديداً في ظل توجه الدولة بكليتها بكتاب الله وسنة رسوله.. إنما بين انحرافه وانحراف أمثاله.. وهذا الصنف من المسلمين قد لا ينقصهم الإخلاص وحسن النية لكنهما لا يكفيان لتبرير أقوالهم وأفعالهم المتطرفة..

وإذا كان علي أرسل للنبي ﷺ بذهب (تبر) من اليمن.. فإن أحد الصحابة الذين رافقوا علياً إلى اليمن لم يبعث هدية لزوجته بل بعث لها بطلقتها الثالثة ثم استشهد رضي الله عنه هناك.. وأثناء تأيمها حدثت بعض المشاكل حول حقها في الحصول على مصروفها من دخل زوجها الذي طلقها.. وهل للمطلقة ثلاث طلقات حق في الحصول على النفقة والسكن من مال زوجها المتوفى أم لا؟ «فاطمة بنت قيس تقول: أرسل إليّ زوجي أبو عمرو بن حفص بن المغيرة عياش بن أبي ربيعة بطلاقي وأرسل معه بخمسة آصع تمر وخمسة آصع شعير.. فقلت: أما لي نفقة إلا هذا ولا أعتد في منزلكم قال: لا.. فشددت عليّ ثيابي وأتيت رسول الله ﷺ فقال: كم طلقك؟ قلت: ثلاثاً قال: صدق ليس لك نفقة [فانطلق خالد بن الوليد في نفر فأتوا رسول الله ﷺ في بيت ميمونة فقالوا: إن أبا حفص طلق امرأته

---

(١) البخاري ٤-١٥٨١.

ثلاثاً فهل لها من نفقة؟ فقال رسول الله ﷺ: ليست لها نفقة وعليها العدة.. وأرسل إليها أن لا تسبقيني بنفسك وأمرها أن تنتقل إلى أم شريك.. ثم أرسل إليها أن أم شريك يأتيها المهاجرون الأولون فانطلقي إلى ابن أم مكتوم الأعمى فإنك إذا وضعت خمارك لم يرك] اعتدي في بيت ابن عمك ابن أم مكتوم فإنه ضرير البصر تلقي ثوبك عنده فإذا انقضت عدتك فآذنيني»[1]

«قالت قال لي رسول الله ﷺ: إذا حللت فآذنيني فآذنته فخطبها معاوية وأبو جهم وأسامة بن زيد فقال رسول الله ﷺ: أما معاوية فرجل ترب لا مال له.. وأما أبو جهم فرجل ضراب للنساء.. ولكن أسامة بن زيد فقالت بيدها هكذا أسامة أسامة فقال لها رسول الله ﷺ: طاعة الله وطاعة رسوله خير لك قالت: فتزوجته فاغتبطت»[2]

لكن قبل حفل الزفاف وأثناء فترة العدة سمعت فاطمة أشياء خطيرة حملها وافد قدم على النبي ﷺ..

هذا الوافد المحمل بالأخبار وغرائب الأسفار التي لا يصدقها أحد لولا إقرار النبي ﷺ له.. وقد كان في قدوم هذا المسافر نسفاً لشكوك تدور في أذهان بعض الصحابة حول رجل مخيف وغريب وغامض.. كان بعض الصحابة يعتقد أن هذا الرجل هو المسيح الدجال الذي حذر النبي ﷺ أمته منه..

ذلك الدجال اليهودي الذي أخبر عنه الأنبياء وحذروا منه أممهم.. ذلك الدجال الذي سيعيث يوماً من الأيام فساداً في الأرض وسيخوض

---

(١) صحيح مسلم ٢-١١١٩ والزيادة لمسلم ٢-١١١٥.

(٢) صحيح مسلم ٢-١١١٩.

حروباً طاحنة ضد المؤمنين وهو يقود يهود العالم للسيطرة على الأرض محاولاً إقامة دولة لليهود.. الشبهات اليوم تدور حول رجل من اليهود يعيش في المدينة يعتقد البعض أنه الدجال.. أما النبي ﷺ فلم يتزل عليه شيء حول هذا الرجل.. لكن النبي ﷺ كان حريصاً على اكتشاف أمره وكشف حقيقته..

دعونا نتجول في شوارع المدينة وبين نخيلها لنتعرف إلى هذا الرجل الذي يشك بعض المؤمنين أنه المسيح الدجال تعالوا نتعرف على

ابن صياد وهل هو المسيح الدجال

كان في المدينة رجل يهودي مخيف الشكل مريب الحركات والأصوات والتصرفات.. وقد شك الرسول ﷺ وبعض الصحابة أنه المسيح الدجال وكان يدعى (ابن صياد)..

فعندما كان ذلك اليهودي طفلاً يلعب مع الصبيان قرب حصن أناس يقال لهم بني مغالة حدث شيء غريب يرويه عبد الله بن عمر فيقول:

« إن عمر بن الخطاب انطلق مع رسول الله ﷺ في رهط قِبَلَ ابن صياد حتى وجده يلعب مع الصبيان عند أطم بن مغالة وقد قارب ابن صياد يومئذ الحلم.. فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ﷺ ظهره بيده ثم قال رسول الله ﷺ لابن صياد: أتشهد أني رسول الله؟ فنظر إليه ابن صياد فقال: أشهد أنك رسول الأميين.. فقال ابن صياد: لرسول الله ﷺ أتشهد أني رسول الله فرفضه رسول الله ﷺ وقال: آمنت بالله وبرسله.. ثم قال له رسول الله ﷺ: ماذا ترى؟ قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب.. فقال له رسول الله ﷺ: خلط عليك الأمر ثم قال له رسول الله ﷺ: إني قد خبأت لك خبيئاً

قال ابن صياد: هو الدخ.. فقال له رسول الله ﷺ: اخسأ فلن تعدو قدرك.. فقال عمر بن الخطاب: ذرني يا رسول الله أضرب عنقه.. فقال له رسول الله ﷺ: إن يكنه فلن تسلط عليه وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله»(١)

في ذلك الحوار بين النبي ﷺ وابن صياد اتضح تعاطي ابن صياد لنوع من السحر والكهانة وذلك عندما قال: الدخ ويعني بذلك سورة الدخان التي نزلت على النبي ﷺ لكنه قال الدخ فقط لأن النبي عليه السلام قاطعه فوراً قبل أن يكمل اسم السورة وقال له: اخسأ..

أما عن تلك الأشياء التي يراها ابن صياد فيقول:

«جابر بن عبد الله إن رسول الله ﷺ لقي ابن صياد ومعه أبو بكر وعمر أو قال رجلان فقال له رسول الله ﷺ: أتشهد أني رسول الله؟ فقال ابن صياد أتشهد أني رسول الله ﷺ؟ فقال رسول الله ﷺ: آمنت بالله ورسوله.. فقال رسول الله ﷺ: ما ترى؟ فقال ابن صياد: أرى عرشاً على الماء.. فقال له رسول الله ﷺ: ترى عرش إبليس على البحر.. قال: ما ترى؟ قال: أرى صادقين أو كاذبين فقال رسول الله ﷺ لبس عليه فدعوه»(٢)

وقد وصل الشك ببعض الصحابة إلى درجة اليقين أنه الدجال.. ومنهم جابر رضي الله عنه يقول أحد من صحب جابراً: «رأيت جابر بن

---

(١) صحيح مسلم ٤-٢٢٤٤.

(٢) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٤٩٥ حدثنا يزيد بن هارون قال أخبرنا سليمان التيمي عن أبي نضرة عن جابر. أبو نضرة تابعي ثقة من رجال مسلم. انظر التقريب. وتلميذه سليمان بن طرخان التيمي تابعي مشهور من صغار تابعي أهل البصرة وهو ثقة من رجال الشيخين ١-٣٢٦ وتلميذه ثقة معروف مر معنا كثيراً.

عبد الله يحلف بالله أن ابن صائد الدجال.. فقلت: أتحلف بالله؟ قال: إني سمعت عمر يحلف على ذلك عند النبي ﷺ فلم ينكره النبي ﷺ»[١] وذلك للشبه الكبير بين الاثنين: الدجال وابن صياد..

ولتصرفات ابن صياد المريبة وما يصدر عنه من أفعال لا تصدر عن إنسان طبيعي أبداً.. ويبدو أنه كان يتعاطى السحر والشعوذة ويتعامل مع شياطين الجن ولا أدل على ذلك من هذه القصة التي حدثت أمام عيني ابن عمر رضي الله عنه وذلك عندما «لقي ابن عمر ابن صائد في بعض طرق المدينة فقال له قولاً أغضبه فانتفخ حتى ملأ السكة[٢].. فدخل ابن عمر على حفصة وقد بلغها فقالت له: رحمك الله ما أردت من ابن صائد أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: إنما يخرج من غضبة»[٣]

ويقول «ابن عمر لقيته مرتين.. فلقيته فقلت: لبعضهم هل تحدثون أنه هو؟ قال: لا والله قلت: كذبتني والله لقد أخبرني بعضكم أنه لن يموت حتى يكون أكثركم مالاً وولداً فكذلك هو زعموا اليوم.. فتحدثنا.. ثم فارقته.. فلقيته لقية أخرى وقد نفرت عينه.. فقلت: متى فعلت عينك ما أرى؟ قال: لا أدري.. قلت: لا تدري وهي في رأسك؟ قال: إن شاء الله خلقها في عصاك هذه.. فنخر كأشد نخير حمار سمعت.. فزعم بعض أصحابي أني ضربته بعصا كانت معي حتى تكسرت.. وأما أنا فوالله ما شعرت.. وجاء حتى دخل على أم المؤمنين فحدثها فقالت ما تريد إليه: ألم تعلم أنه قد قال: إن أول ما يبعثه على الناس غضب يغضبه؟»[٤]

---

(١) صحيح مسلم ٤-٢٢٤٣ عن محمد بن المنكدر قال رأيت..

(٢) الطريق الضيقة جداً.

(٣) صحيح مسلم ٤-٢٢٤٦.

(٤) صحيح مسلم ٤-٢٢٤٦.

وقد حاول النبي ﷺ -بعد أن سمع كلامه وهو يلعب مع الصبيان- التسلل ليسمع زمزمته والأصوات الغريبة الصادرة عنه علّه يكتشف هويته لكن ذلك لم يتم.. يقول ابن عمر: «انطلق بعد ذلك رسول الله ﷺ وأبي بن كعب إلى النخل التي فيها ابن صياد وهو يختل أن يسمع من ابن صياد شيئاً قبل أن يراه ابن صياد.. فرآه النبي ﷺ وهو مضطجع يعني في قطيفة له فيها رمزة.. أو زمرة فرأت أم ابن صياد رسول الله ﷺ وهو يتقي بجذوع النخل فقالت لابن صياد: يا صاف -وهو اسم ابن صياد- هذا محمد ﷺ فثار ابن صياد فقال النبي ﷺ: لو تركته بين»[1] واتضح أمره.. كل تلك الأمور كانت قبل أن يأتي تميم الداري رضي الله عنه إلى المدينة ويسلم ويقص على النبي ﷺ قصته العجيبة المخيفة:

قصة الدجال الحقيقي والجساسة

هذه القصة ترويها الصحابية الجليلة المطلقة المدعوة: فاطمة بنت قيس وكانت من المهاجرات الأول فتقول: «خطبني رسول الله ﷺ على مولاه أسامة بن زيد وكنت قد حدثت أن رسول الله ﷺ قال: من أحبني فليحب أسامة.. فلما كلمني رسول الله ﷺ قلت: أمري بيدك فأنكحني من شئت.. فقال: انتقلي إلى أم شريك وأم شريك امرأة غنية من الأنصار عظيمة النفقة في سبيل الله ينزل عليها الضيفان.. فقلت: سأفعل.. فقال: لا تفعلي إن أم شريك امرأة كثيرة الضيفان فإني أكره أن يسقط عنك خمارك أو ينكشف الثوب عن ساقيك فيرى القوم منك بعض ما تكرهين.. ولكن انتقلي إلى ابن عمك عبدالله ابن عمرو بن أم مكتوم..

فانتقلت إليه فلما انقضت عدتي سمعت نداء المنادي.. منادي رسول

(١) صحيح البخاري ١-٤٥٤.

الله ﷺ ينادي الصلاة جامعة فخرجت إلى المسجد.. فصليت مع رسـول الله ﷺ فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم.. فلما قضى رسـول الله ﷺ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك.. فقال: ليلزم كل إنسـان مصلاه ثم قال: أتدرون لم جمعتكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.. قـال: إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة ولكن جمعتكم لأن تميماً الداري كـان رجلاً نصرانياً فجاء فبايع وأسلم.. وحدثني حديثاً وافق الـذي كنـت أحدثكم عن مسيح الدجال.. حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام فلعب بهم الموج شهراً في البحر ثم أرفؤا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس.. فجلسوا في أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة فلقيتهم دابة أهلب كثير الشعر لا يدرون ما قبله من دبـره مـن كثـرة الشعر.. فقالوا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسـة.. قـالوا: ومـا الجساسة؟ قالت: أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل في الـدير فإنـه إلى خبركم بالأشواق.. قال: لما سمت لنا رجلاً فرقنا منها أن تكون شيطانة.. فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قـط خلقـاً وأشده وثاقاً مجموعة يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديـد.. قلنا: ويلك ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن أناس من العرب ركبنا في سفينة بحرية فصادفنا البحر حين اغـتلم.. فلعب بنا الموج شهراً ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه فجلسـنا في أقربهـا.. فدخلنا الجزيرة فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر لا يدري ما قبله من دبره من كثرة الشعر فقلنا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسـة.. قلنـا: ومـا الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الـدير فإنـه إلى خـبركم بالأشواق.. فأقبلنا إليك سراعاً وفزعنا منها ولم نأمن أن تكون شـيطانة فقال: أخبروني عن نخل بيسان.. قلنا: عن أي شـأنها تسـتخبر؟ قـال:

أسألكم عن نخلها هل يثمر؟ قلنا له: نعم.. قال: أما إنـــه يوشـــك أن لا تثمر.. قال: أخبروني عن بحيرة الطبرية.. قلنا: عن أي شـــأنها تســـتخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرة الماء.. قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب.. قال: أخبروني عن عين زغر.. قالوا: عن أي شـــأنها تســـتخبر؟ قال: هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعـــم هـــي كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها.. قال: أخبروني عن نبي الأميين مـــا فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب.. قال: أقاتَله العرب؟ قلنـــا: نعم.. قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه.. قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم.. قال: أما إن ذاك خير لهم أن يطيعوه.. وإني مخبركم عني.. إني أنا المسيح.. وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج.. فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة.. فهما محرمتان علي كلتاهما.. كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحداً منهما استقبلني ملك بيده السيف صلتاً يصدني عنـــها.. وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها.. قال رسول الله ﷺ وطعـــن بمخصرته(١) في المنبر: هذه طيبة هذه طيبة هذه طيبة.. يعني المدينـــة.. ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟ فقال الناس: نعم.. فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة.. ألا أنه في بحر الشام.. أو بحر اليمن.. لا بل من قبل المشرق ما هو.. من قبل المشرق ما هـــو.. من قبل المشرق ما هو وأومأ بيده إلى المشرق قالت: فحفظت هذا مـــن رسول الله ﷺ»(٢)

وقد حث النبي ﷺ أصحابه وأمته على الاستعاذة من هذا اليهـــودي

---

(١) بعصاه.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢٢٦٣.

الدجال.. بل كان يستعيذ منه كل صلاة.. تقول عائشة زوج النبي ﷺ «إن رسول الله ﷺ كان يدعو في الصلاة: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم فقال له قائل ما أكثر ما تستعيذ من المغرم فقال إن الرجل إذا غرم حدث فكذب ووعد فأخلف»[١]

إذاً فالدجال مأسور في تلك الجزيرة.. أما ابن صياد فهو شخص آخر يحاول استغلال الشبه بينه وبين الدجال في إخافة من حوله وبث الرعب فيهم محاولاً إشباع غروره.. مع أنه من المحتمل أن يكون بينه وبين الدجال صلة ما لكن ما هي.. الله أعلم..

تبين ذلك في حوار جرى بين ابن صياد وأبي سعيد الخدري وهما في سفر متجهين نحو مكة.. حيث بث ابن صياد شكواه وبعض أسراره لأبي سعيد وبث فيها مرارة كذبه وانتحاله لتلك الشخصية ونتائج تلك الأشياء التي ارتكبها من أجل لفت الأنظار إليه.. قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «أقلنا في جيش من المدينة قبل هذا المشرق.. فكان في الجيش عبد الله بن صياد وكان لا يسايره أحد ولا يرافقه ولا يؤاكله ولا يشاربه ويسمونه الدجال.. فبينا أنا ذات يوم نازل في مترل لي إذ رآني عبد الله بن صياد جالساً فجاء حتى جلس إلي.. فقال: يا أبا سعيد.. ألا ترى إلى ما يصنع الناس لا يسايرني أحد ولا يرافقني أحد ولا يشاربني أحد ولا يؤاكلني أحد ويدعوني الدجال؛ وقد علمت أنت يا أبا سعيد أن رسول الله ﷺ قال: إن الدجال لا يدخل المدينة وأني ولدت بالمدينة.. وقد سمعت

---

(١) صحيح البخاري ١-٢٨٦.

رسول الله ﷺ: يقول إن الدجال لا يولد له وقد ولد لي.. فوالله لقد هممت مما يصنع بي هؤلاء الناس أن آخذ حبلاً فأخلو فأجعله في عنقي فأختنق فأستريح من هؤلاء الناس.. والله ما أنا بالدجال.. ولكن والله لو شئت لأخبرتك باسمه واسم أبيه واسم أمه واسم القرية التي يخرج منها»[1]

تلك هي قصة ابن صياد الدجال.. لكن ذلك الدجال المنتظر ليس هو الدجال الوحيد الذي سيظهر في أمة محمد عليه الصلاة والسلام.. لقد حذر عليه السلام من ثلاثين دجالاً سيظهرون قبله لكنه أشدهم خطراً على هذه الأمة.. أما أسرعهم ظهوراً فكان كذاب حنيفة الذي يقود الآن:

وفد اليمامة

لبيعة النبي ﷺ وكان يدعى مسيلمة.. وقد رأى عليه السلام رؤيا قصها على أصحابه «قال رسول الله ﷺ: بينا أنا نائم أتيت خزائن الأرض فوضع في يدي إسوارين من ذهب فكبرا علي وأهماني فأوحى إلي أن انفخهما فنفختهما فذهبا فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة»[2]

ولما وصل وفد اليمامة «قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله ﷺ.. فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته، وقدمها في بشر كثير من قومه.. فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفي يد

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣-٧٩ ثنا محمد بن جعفر ثنا عوف عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري أبو نضرة تابعي ثقة من رجال مسلم التقريب ٢-٢٧٥ وعوف بن أبي جميلة وغندر ثقتان من رجال الشيخين: التقريب ٢-٨٩ و١-١٥١.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٧٨١.

رسول الله ﷺ قطعة جريد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه.. فقال: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها ولن تعدو أمر الله فيك.. ولئن أدبرت ليعقرنك الله.. وإني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت وهذا ثابت يجيبك عني ثم انصرف عنه.. قال ابن عباس فسألت عن قول رسول الله ﷺ إنك أرى الذي أريت فيه ما رأيت فأخبرني أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأنهما فأوحي إلي في المنام أن انفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما كذابين يخرجان بعدي أحدهما العنسي والآخر مسيلمة»[1] كذاب اليمامة الذي يعود خائباً محتقناً من الغيظ إلى بلاده بعد أن حوله النبي ﷺ إلى حاوية للسخرية بين الوفود.. هذا الأفاك الذي لا يعي ما يخرج من رأسه يريد أن يكون نبياً.. يريد كما يريد تلاميذه من بعده أن يستبدلوا شريعة الله بتخاريفهم.. إنهم لا يقدمون بدائل صناعية أو زراعية أو حتى عسكرية فيها من الإبداع ما يفيد فهم أعجز من ذلك.. وبدلاً من ذلك يسخرون ثرثرتهم في محاولة استبدال الوحي بالخرافة والحقيقة بالوهم فقط لا أكثر..

لذلك رفض النبي ﷺ تقديم أي تنازل لأستاذهم مسيلمة حتى ولو كان مجرد قطعة من جريد النخل لا تنفع ولا تضر ولا تقدم ولا تؤخر.. أما:

كذاب اليمن الأسود العنسي

فقد كان يضمر في نفسه الخروج على النبي ﷺ في أقرب فرصة أما الآن فهو لا يستطيع الجهر بما في نفسه خوفاً من علي بن أبي طالب الأسد الهصور القادم من المدينة إلى اليمن.. ولم يكن الأسود وحده الذي

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٩٠.

سيدعي النبوة فقد قال أحد الصحابة: «أكثر الناس في مسيلمة قبل أن يقول رسول الله ﷺ فيه شيئاً فقام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: أما بعد ففي شأن هذا الدجال الذي قد أكثرتم فيه وإنه كذاب من ثلاثين كذاباً يخرجون بين يدي المسيح»(١)

أولهم مسيلمة الذي عاد إلى دياره ثم أفرز ما كان محتقناً به من أكاذيب وأعلن أنه نبي جديد لهذه الأمة.. ولم يكتف بذلك بلغت به الوقاحة أن يبعث إلى النبي ﷺ برسولين يخبرانه بما فعل.. يقول الصحابي نعيم بن مسعود:

«سمعت رسول الله ﷺ يقول حين جاءه رسولا مسيلمة الكذاب بكتابه ورسول الله ﷺ يقول لهما وأنتما تقولان بمثل ما يقول؟ قالا: نعم فقال رسول الله ﷺ لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما»(٢) وهو مبدأ إسلامي رفيع زاد من رصيد الاحترام للدولة الإسلامية وقائدها.. إلا أن الجاهلية أعمت الكثيرين عن رؤية الحقيقة.. هذا أحدهم يعترف بذلك:

أبو رجاء العطاردي يعترف

يقول رضي الله عنه: (كنا نعبد الحجر فإذا وجدنا حجراً هو خير منه

---

(١) سنده صحيح رواه معمر بن راشد في الجامع ١١-٣٩٢ عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن طلحة بن عبيد الله بن عوف عن أبي بكرة قال وهذا السند صحيح. الزهري وشيخه طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري تابعيان ثقتان تهذيب التهذيب ٥-١٨.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٥٤: حدثني سعد بن طارق عن سلمة بن نعيم بن مسعود عن أبيه قال.. وسعد بن طارق تابعي ثقة من رجال مسلم أبو مالك الأشجعي انظر التقريب ١-٢٨٧.

ألقيناه وأخذنا الآخر فإذا لم نجد حجراً جمعنا جثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبناه ثم طفنا به فإذا دخل شهر رجب قلنا منصل الأسنة فلا ندع رمحاً فيه حديدة ولا سهماً فيه حديدة إلا نزعناه وألقيناه شهر رجب ..

كنت يوم بعث النبي ﷺ غلاماً أرعى الإبل على أهلي فلما سمعنا بخروجه فررنا إلى النار إلى مسيلمة الكذاب)[1]

وإذا كان وفد مسيلمة قد تميز بالوقاحة والكذب فإن الحقيقة التي جاء بها الإسلام كفيلة بإحراق كذابهم وإحراق من صدقه واحداً واحداً.. الحقيقة التي لا يصمد أمامها أي منتحل أو معاند لها.. وكان من بين الوفود القادمة رجل من النصارى يدعى عدي بن حاتم الطائي.. هذا الرجل الذي هرب من بلاده خوفاً من جيش الإسلام وتوجه نحو الشام حيث الكنائس.. لكن تلك الكنائس زادت غربته فعاد إلى رشده وطرح على نفسه أسئلة تغنيه عن الهرب لو طرحها في وقت أبكر.. أسئلة محرجة أخجلته خاصة وهو ابن رمز الكرم العربي في الجاهلية..

قدوم عدي بن حاتم

دعونا نستمع إلى عدي وهو يقص حكايته وحكاية هروبه وعودته للحق.. فيقول:

«بعث رسول الله ﷺ حيث بعث فكرهته أشد ما كرهت شيئاً قط فانطلقت حتى كنت في أقصى الأرض مما يلي الروم.. فقلت: لو أتيت هذا الرجل فإن كان كاذباً لم يخف علي وإن كان صادقاً اتبعته.. فأقبلت فلما قدمت المدينة استشرف لي الناس وقالوا: جاء عدي بن حاتم.. جاء

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٩١.

عدي بن حاتم فقال النبي ﷺ لي: يا عدي بن حاتم أسلم تسلم قلت: إن لي ديناً قال: أنا أعلم بدينك منك، أنا أعلم بدينك منك.. مرتين أو ثلاثاً.. ألست ترأس قومك؟ قلت: بلى.. قال: ألست تأكل المرباع[1]؟ قال: قلت: بلى.. قال: فإن ذلك لا يحل لك في دينك.. قال عدي: فتضعضعتُ[2] لذلك.. ثم قال: يا عدي بن حاتم.. أسلم تسلم فإني قد أظن.. أنه ما يمنعك أن تسلم خصاصة تراها من حولي وتوشك الظعينة أن ترحل من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالبيت.. ولتفتحن علينا كنوز كسرى بن هرمز وليفيضن المال.. حتى يهم الرجل من يقبل منه ماله صدقة[3] قال عدي بن حاتم: فقد رأيت الظعينة ترحل من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالبيت.. وكنتُ في أول خيل أغارت على المدائن على كنوز كسرى بن هرمز وأحلف بالله لتجيئن الثالثة إنه لقول رسول الله ﷺ لي»[4] هكذا حولت الحقيقة هذا الرجل النصراني المتشائم المغتصب حق غيره إلى ثقة بالله ورسوله بعد أن كان مزيجاً من الشكوك والتساؤل المحير.. يحلف ثقة ويتحرك ثقة ويعد من حوله ثقة.. فإذا لم يثق بالحقيقة فبم تكون ثقته.. لاسيما وقد اعتنق النصرانية كخلاص من الوثنية و لم

---

(١) أي أنه كان يغتصب من قومه ربع أرباحهم وغنائمهم دون حق.

(٢) ضعفت.

(٣) أي إن الرجل لا يجد من يأخذ الصدقة منه.

(٤) سنده قوي رواه الحاكم ٤-٥٦٤ من طريق هشام بن حسان عن محمد بن سيرين وابن أبي شيبة ٧-٣٤٢ من جرير بن حازم عن محمد بن سيرين ابن حبان ١٥-٧١ من طريق أيوب عن محمد عن أبي عبيدة بن حذيفة قال كنت أسأل عن حديث عدي بن حاتم وهو إلى جنبي لا آتيه فأسأله فأتيته فسألته فقال وأبو حذيفة ثقة.. روى عنه محمد بن سيرين ويوسف بن ميمون وخالد بن أبي أمية الكوفي وحصين بن عبد الرحمن السلمي ويزيد أبو خالد الواسطي تهذيب التهذيب ١٢-١٧٧ ووثقه العجلي توثيقاً لفظياً فقال في: معرفة الثقات ٢-٤١٣ أبو عبيدة بن حذيفة كوفي تابعي ثقة وابن سيرين غني عن التعريف.

يرثها عن والديه وراثة.. فمن الصعوبة التخلص من الموروث حتى ولو كان غير مقنع.. ولعل في هذا الوفد القادم من نجران:

وفد نصارى نجران

دليل على صعوبة التخلص من الموروث.. حيث جاءوا من بلادهم بعد أن وصلتهم بعوث الإسلام وأخبار انتصاراته.. وكانوا في بلادهم يحاولون إحراج هؤلاء المسلمين بالتنقيب عن أي خطأ في تعاليم هذا الدين الجديد.. وقد حدث هذا مع الصحابي الداهية المغيرة بن شعبة الذي كل دهاؤه عن إجابة تساؤلهم فقال رضي الله عنه:

«لما قدمت نجران سألوني فقالوا إنكم تقرؤون يا أخت هارون وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»[1]

ولعل تلك التساؤلات خلقت لدى هؤلاء شعوراً بالجرأة والتفوق فبحثوا عن مزيد من الإحراج.. فأحبوا أن يفجروه على أرض المدينة معقل الإسلام وعاصمته.. وقد تصدى لهذا رجلان من رجال الدين.. حيث إن الدين النصراني يقسم الناس إلى طبقتين لا وجود لهما في الدين الإسلامي إطلاقاً.. هاتان الطبقتان هما: طبقة رجال الدين وطبقة أخرى لبقية الرجال.. أما النساء فلا دور لهن على الإطلاق ولا طبقات سوى الخطيئة..

وكان اسم رجلي الدين هذين: العاقب والسيد وقد بلغت بهما الجرأة أن يطالبا النبي ﷺ بالملاعنة على الحقيقة.. والملاعنة هي المباهلة

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٦٨٥.

وهي أن يدعو كل من الخصمين على نفسه باللعنة إن كان كاذباً في دعواه.. كانت نتيجة المباهلة اكتشاف هذه الأمة لأمينها في قصة يرويها لنا حذيفة بن اليمان أمين سر النبي ﷺ الذي يقول: «جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه.. فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا.. قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً ولا تبعث معنا إلا أميناً..

فقال: لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح فلما قام قال رسول الله ﷺ هذا أمين هذه الأمة»(١) الذي فاز بلقب كما فاز غيره بألقاب.. أما نصارى نجران فعادوا مثقلين بالشك والجزية والهزيمة.. الهزيمة التي لحقت بكل من أعمى قلبه عن رؤية الشمس التي يحملها ﷺ خارج المدينة وداخلها.. ففي داخل المدينة تطحن أقدام هذه الوفود في ذهابها وإيابها رجلاً كالحجارة عناداً وحسداً.. عبد الله بن أبي بن سلول يتجرع اليوم سموماً كثيرة ويتلقى طعنات لا تعد ولا تحصى.. لم يصنعها أحد له هو الذي صنعها بحقده وعناده..

عبد الله بن سلول مريض

ويبدو من تقاسيمه أنه راحل عن هذه الدنيا.. ورغم كل ما فعله وما خطط له وما جرى منه ضد النبي ﷺ وضد المسلمين ودولتهم.. رغم ذلك كله ينهض النبي ﷺ لزيارته عله يجد في قلبه مكاناً لله ورسوله.. عبد الله بن أبي بن سلول تاريخ أسود من التآمر والخيانة والنفاق ومع

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٩٢.

ذلك فلا يأس في حياة الداعية.. استأذن النبي ﷺ في الدخول عليه ولما دخل عرف فيه الموت..

«دخل رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي يعوده في مرضه الذي مات فيه فلما عرف فيه الموت قال رسول الله ﷺ أما والله إن كنت لأنهاك عن حب يهود فقال: أبغضهم أسعد بن زرارة فمه»[1] أي فماذا أفاد أسعد بن زرارة كرهه لليهود حيث مات في أول أيام الهجرة.. هذه الإجابة تكشف عن ضيق أفق هذا المنافق ونظرته المحدودة بين جدران الدنيا الفانية.. فالنبي ﷺ لم يكن يعني أن حب اليهود هو الذي يجلب لك الموت فاليهود قد غادروا غير مأسوف عليهم.. بل كان يعني أنني كنت أنهاك عن موالاتهم التي لا تفيدك في مثل هذه الساعة التي تكون فيها أحوج ما تكون لله ولرسوله وللحقيقة - الإسلام.. لكنه الحسد والحقد الذي يتفنن في إحراق أصحابه.. كان ابن سلول مغروراً متكبراً حتى في أيام احتضاره.. لم يقل للنبي عليه السلام أي كلمة تشير إلى أسفه وندمه وتوبته.. ولكن بعد أن خرج النبي ﷺ من عنده استدعى ابنه وطلب منه أمراً غريباً

ابن سلول يطلب ثوب النبي ﷺ

فبعد خروجه عليه السلام استدعى عبد الله بن سلول ابنه وقال له: «أي بني.. اطلب ثوباً من ثياب رسول الله ﷺ فكفني فيه ومره فليُصلّ عليّ»[2]

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق البداية والنهاية (السيرة) ٥-٣٤ ومن طريقه أبو داود ٣-١٨٤ حدثني الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد الزهري تابعي ثقة رأس طبقته وعروة ابن الزبير بن العوام تابعي كبير وإمام ثقة معروف.

(٢) سنده صحيح رواه الطبراني في الكبير ١١-٤٣٨ والأوسط ٦-١٦ من طرق عن بشر بن السري قال نا رباح بن أبي معروف المكي عن سالم بن عجلان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن ابن عبد الله بن أبي قال له أبوه: سعيد بن جبير من أئمة التابعين الثقات =

ويبدو أن الابن شعر بالإحراج أو نسي ذلك حتى وضع أبوه في قبره فتوجه نحو النبي ﷺ: «فقال: يا رسول الله.. أعطني قميصك أكفنه فيه وصل عليه واستغفر له»[(١)] يقول جابر رضي الله عنه: «أتى النبي ﷺ عبد الله بن أبي بعد ما دفن فأخرجه فنفث فيه من ريقه وألبسه قميصه»[(٢)]

وعندما أراد النبي ﷺ الصلاة على ابن أبي سلول وقف عمر بن الخطاب في وجهه بل جذبه من ثوبه معترضاً على الصلاة عليه.. شاهد عبد الله بن عمر ما حدث فقال:

« إن عبد الله بن أبي لما توفي جاء ابنه إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله.. أعطني قميصك أكفنه فيه وصل عليه واستغفر له.. فأعطاه النبي ﷺ قميصه، فقال: آذني أصلي عليه فآذنه.. فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر رضي الله عنه فقال: أليس نهاك أن تصلي على المنافقين.. فقال: أنا بين خيرتين.. قال: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم.. فصلى عليه.. فنزلت ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾»[(٣)] والآية التي نهت عن الصلاة المنافقين بعد اليوم هي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾[(٤)].

شاهد جابر ما حدث فقال مفسراً ما حدث حول قميص النبي ﷺ:

=

وسالم بن عجلان الأفطس ثقة من رجال البخاري: التقريب ١-٢٨١ ورباح حسن الحديث من رجال مسلم ١-٢٤٢ وبشر بن السري ثقة متقن: التقريب ١-٩٩.

(١) حديث صحيح رواه البخاري ١-٤٢٧.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ١-٤٢٧.

(٣) صحيح البخاري ١-٤٢٧.

(٤) سورة التوبة: ٨٤.

«لما كان يوم بدر أتى بأسارى وأتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب.. فنظر النبي ﷺ له قميصاً فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه.. فكساه النبي ﷺ إياه.. فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه»[1] مكافأة له.. هذه هي وجهة نظر جابر رضي الله عنه فربما لم تبلغه قصة طلب ابن أبي.. هناك سؤال يطرح نفسه على الصحابة هو أنهم سيتمكنون من معرفة المنافقين بعدم صلاة النبي ﷺ عليهم عند وفاتهم.. لكن كيف سيعرفون المنافقين بعد وفاة النبي ﷺ.. لم يغب ذلك عن النبي ﷺ فقد قام ﷺ باستدعاء أحد الصحابة ليقدم له:

قائمة بأسماء المنافقين

يقول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه:

«كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق الناقة أو أنا أسوقه وعمار يقوده.. حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها فانبهت رسول الله ﷺ بهم فصرخ بهم فولوا مدبرين

فقال لنا رسول الله ﷺ: هل عرفتم القوم؟ قلنا: لا يا رسول الله قد كانوا متلثمين ولكنا قد عرفنا الركاب. قال: هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة وهل تدرون ما أرادوا؟ قلنا لا.. قال: أرادوا أن يزاحموا رسول الله ﷺ في العقبة فيلقوه منها.. قلنا: يا رسول الله.. أفلا نبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: لا، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم

(١) صحيح البخاري ٣-١٠٩٥.

يقتلهم.. ثم قال: اللهم أرمهم بالدبيلة»[1] ولما سئل عمار حول قيام النبي ﷺ بتقديم توصية خاصة له قال: (ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس كافة، ولكن حذيفة أخبرني عن النبي ﷺ قال: قال النبي ﷺ: في أصحابي اثنا عشر منافقاً فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة)[2] وهي دمل أو خراج يسبب الموت.. وبذلك التحديد لأسماء هؤلاء المنافقين تم عزلهم وإقصاء رواياهم وأخبارهم.. بل لقد تحولوا إلى رماد تذروه رياح التاريخ.. بعد أن نجح الشيطان في إنزالهم من مقاعدهم الرفيعة التي منحهم إياها الإسلام فرضوا بالدرك الأسفل من النار التي يقول الله تعالى عنها:

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ

---

(١) حديث صحيح رواه البيهقي في كتاب دلائل النبوة من حديث محمد بن إسحاق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة: تفسير ابن كثير ٢-٣٧٣ ولم يصرح ابن إسحاق بالسماع لكن له شاهد في مسند أحمد ٥-٤٥٣ حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل وهو سند ثلاثي حسن وشاهد عن عروة مرسلاً.

(٢) صحيح مسلم ٤- ٢١٤٣.

ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾[1].

وهناك من تاب قبل هؤلاء بعد أن زالت عنهم العصبية وتبين لهم خواء ابن سلول وخواء أفكاره.. لكن تلك الأسماء التي تلقاها حذيفة ظلت على عنادها حتى انتزعها الموت كما انتزع ابن سلول والذي برحيله انكسرت شوكة النفاق والخيانة والتآمر..

أما النبي ﷺ وأصحابه فيتمنون لو آمن ابن سلول ومن معه فرسالتهم في هذه الدنيا موجة إلى بقع الظلام وبؤره لملئها بنور التوحيد.. طهرت المدينة من قيادات اليهود والمنافقين المشركين.. ومرت الأيام فعاد الموت مرة أخرى إلى بيت النبي ﷺ وكأنه يزاحم كل خبر سار يبتهج به النبي عليه السلام.. ذات يوم ألم المرض بإبراهيم بن محمد ﷺ ثم انتزعه الموت فكانت دموع النبي ﷺ وحزنه تسيل لـ:

موت إبراهيم عليه السلام

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه عن حياة إبراهيم وموته: «قال رسول الله ﷺ: ولد لي الليلة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم.. ثم دفعه إلى أم سيف امرأة قين يقال له: أبو سيف.. فانطلق يأتيه واتبعته.. فانتهينا إلى أبي سيف وهو ينفخ بكيره قد امتلأ البيت دخاناً.. فأسرعت المشي بين

(١) النساء: ١٣٨-١٤٦.

يدي رسول الله ﷺ فقلت: يا أبا سيف.. أمسك.. جاء رسول الله ﷺ.. فأمسك فدعا النبي ﷺ بالصبي فضمه إليه وقال: ما شاء الله أن يقول.. فقال أنس: لقد رأيته وهو يكيد بنفسه بين يدي رسول الله ﷺ فدمعت عينا رسول الله ﷺ فقال: تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي ربنا.. والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون»[1] وقد أثارت تلك الدموع وذلك الحزن تساؤل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.. «فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: يابن عوف.. إنها رحمة ثم أتبعها بأخرى فقال ﷺ: إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا.. وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[2] في هذا اليوم نفسه الذي توفي فيه إبراهيم عليه السلام نظر الناس إلى السماء فوجدوا أن:

الشمس قد كسفت يوم موت إبراهيم

وكان هناك اعتقاد سائد في الجاهلية أن كسوف الشمس لا يكون إلا لموت إنسان عظيم أو لمولد عظيم.. فما هو موقف النبي ﷺ من هذا الاعتقاد الجاهلي لاسيما وقد صادف يوم رحيل ابنه الحبيب:

يقول «المغيرة بن شعبة: كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم فقال رسول الله ﷺ: إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته.. فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله»[3] ثم أمر الناس بالاجتماع في المسجد حيث يقول

(١) صحيح مسلم ٤-١٨٠٧.
(٢) صحيح البخاري ١-٤٣٩.
(٣) صحيح البخاري ١-٣٥٤.

«عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: لما كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ نودي: إن الصلاة جامعة»[1] ويقول أبو بكر: «كنا عند رسول الله ﷺ فانكسفت الشمس فقام النبي ﷺ يجر رداءه حتى دخل المسجد فدخلنا فصلى بنا ركعتين حتى انجلت الشمس فقال ﷺ: إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد فإذا رأيتموهما فصلوا وادعوا حتى يكشف ما بكم»[2] كانت صلاة الكسوف ركعتين لكن كيف كانت:

صفة صلاة الكسوف

هي ركعتان لكن باختلاف بسيط عن الركعات المعتادة.. فالصلاة العادية المكونة من ركعتين كالفجر والجمعة وكذلك النوافل تكون الركعة الواحدة عبارة عن قراءة الفاتحة وبعض القرآن ثم الركوع ثم الرفع من الركوع ثم السجود ثم الرفع من السجود والجلوس ثم السجود مرة ثانية هذا باختصار ما تتكون منه الركعة الواحدة أي ركوع واحد وسجدتين..

أما في صلاة الكسوف فتتكون كل ركعة من ركوعين وسجودين.. أي أن المصلي يقوم فيقرأ الفاتحة وبعض القرآن ثم يركع ثم يرفع من الركوع ثم يقرأ الفاتحة وما تيسر من القرآن ثم يركع ثانية ثم يرفع من الركوع ثم يسجد ثم يرفع من السجود ويجلس ثم يسجد ثانية ثم يقوم ليفعل مثل ذلك في الركعة الثانية.. أي أن عدد الركوعات يساوي عدد السجودات.. تقول عائشة رضي الله عنها: «خسفت الشمس في حياة النبي ﷺ فخرج إلى المسجد فصف الناس وراءه فكبر فاقترأ رسول الله ﷺ

(١) صحيح البخاري ١-٣٥٤.

(٢) صحيح البخاري ١-٣٥٣.

قراءة طويلة.. ثم كبر فركع ركوعاً طويلاً.. ثم قال سمع الله لمن حمده.. فقام ولم يسجد وقرأ قراءة طويلة هي أدنى من القراءة الأولى.. ثم كبر وركع ركوعاً طويلاً وهو أدنى من الركوع الأول.. ثم قال: سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد.. ثم سجد.. ثم قال في الركعة الأخيرة مثل.. ذلك فاستكمل أربع ركعات في أربع سجدات وانجلت الشمس قبل أن ينصرف.. ثم قام فأثنى على الله بما هو أهله.. ثم قال: هما آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتموهما فافزعوا إلى الصلاة»[1]

فهذه الآية تذكر الإنسان الغافل وتوظف ما نام من مشاعره تجاه خالقه ورازقه وإلهه.. ففي خضم الحياة وسعير المادة والركض خلفها يغفل الإنسان أحياناً ويتبلد إحساسه تجاه موقعه من خالقه وفضله عليه.. ففي تلك الصلاة إيقاظ له.. وفي تلك الصلاة قام النبي ﷺ بحركة غريبة ليست من الصلاة فسأله الصحابة عنها وذلك بعد أن «قال ﷺ: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك ثم رأيناك كعكعت قال ﷺ: إني رأيت الجنة فتناولت عنقوداً ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا.. وأريت النار فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع.. ورأيت أكثر أهلها النساء.. قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بكفرهن.. قيل: يكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير ويكفرن الإحسان لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط»[2]

ووصفه هذا لا يشمل النساء جميعاً بل قال: إن نسبتهن أكثر من

---

(١) صحيح البخاري ١-٣٥٥.

(٢) صحيح البخاري ١-٣٥٧.

نسبة الرجال نظراً لصفة الجحود التي تتميز بها هذه النسبة من النساء تجاه أفضال الغير عليها.. حتى أن هذه النوعية من النساء وفي لحظة عتاب أو غضب يسيرة تنسف كل أفضال الآخرين خاصة الزوج دون مبرر بل دون أن يكون هناك داع لذكر تلك الأفضال والتطرق لها.. وكأن النبي ﷺ يحذر من هذه الصفة التي تقترب من صفة المنافق الذي إذا خاصم فجر.. في هذه الأثناء كانت أسماء ذات النطاقين في طريقها نحو بيت أختها عائشة.. تقول رضي الله عنها: «أتيت عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حين خسفت الشمس.. فإذا الناس قيام يصلون وإذا هي قائمة تصلي فقلت: ما للناس؟ فأشارت بيدها إلى السماء وقالت: سبحان الله.. فقلت: آية؟ فأشارت: أي نعم. فقمت حتى تجلاني الغشي فجعلت أصب فوق رأسي الماء.. فلما انصرف رسول الله ﷺ حمد الله وأثنى عليه ثم قال: ما من شيء كنت لم أره إلا قد رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار.. ولقد أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور مثل أو قريباً من فتنة الدجال يؤتى أحدكم فيقال له: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن أو الموقن فيقول: محمد رسول الله ﷺ جاءنا بالبينات والهدى فأجبنا وآمنا واتبعنا.. فيقال له: نم صالحاً فقد علمنا إن كنت لموقنا.. وأما المنافق أو المرتاب فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته»(١) وتقول أسماء: «إن النبي ﷺ صلى صلاة الكسوف فقال: دنت مني النار حتى قلت أي رب وأنا معهم؟ فإذا امرأة تخدشها هرة قال: ما شأن هذه؟ قالوا: حبستها حتى ماتت جوعاً»(٢) وكأن صلاة الكسوف هذه توقظ مشاعر المؤمنين على هذا

(١) صحيح البخاري ١-٣٥٨.
(٢) صحيح البخاري ٢-٨٣٣.

الكون كله.. حتى البهائم.. حتى البهائم تنعم بحياة طيبة إذا كانت في محيط يحكمه الإسلام ويحكم أهله الإسلام.. كان ذلك الكسوف آية ورحمة لعباد الله تقول ذات النطاقين رضي الله عنها: «أمر النبي ﷺ بالعتاقة في كسوف الشمس»(١) أي أمر أصحابه بإعتاق عبيدهم وحثهم على ذلك فقال: «من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار»(٢) وحتى ذلك الرقيق الذي يملكه أكثر من شخص دخل في ذلك.. بل نظم النبي ﷺ عملية إعتاقه فألزم الشركاء الآخرين بقبول العتق مع حقهم في أخذ تعويض مالي من الشريك الذي أعتق نصيبه.. يقول عليه السلام: «من أعتق عبداً بين اثنين فإن كان موسراً قوم عليه ثم يعتق»(٣)

دفن إبراهيم عليه السلام وانتهى الكسوف ومرت الأيام وجاء رمضان فكان:

رمضان العام العاشر مختلفاً

صام المسلمون شهر رمضان في أجواء نقية آمنة بسط الإسلام فيها سيطرته على كل جزيرة العرب.. لكنه كان بالنسبة للنبي ﷺ مختلفاً فقد «كان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام فلما كان العام»(٤) العاشر الذي نحن فيه الآن «اعتكف عشرين يوماً»(٥) ليس ذلك فحسب

---

(١) صحيح البخاري ٢-٨٩٢.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٤٦٩.

(٣) صحيح البخاري ٢-٨٩٢.

(٤) صحيح البخاري ٢-٧١٩.

(٥) صحيح البخاري ٢-٧١٩.

بل كان جبريل عليه السلام يراجع معه كل ما نزل من القرآن «كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرة فعرض عليه مرتين في العام الذي»(١) نحن فيه الآن..

وانقضى رمضان وجاء العيد فاحتفى به المسلمون واحتفلوا وبعد أن احتفل المؤمنون بعيد الفطر ودخل أول أشهر الحج: شوال.. قرر النبي ﷺ القيام بأداء فريضة الحج.

قصة حجة النبي ﷺ

البداية كانت ترغيباً

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: « سئل النبي ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله.. قيل: ثم ماذا؟ قال: جهاد في سبيل الله.. قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور»(٢)

ويقول رضي الله عنه: «سمعت النبي ﷺ يقول: من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»(٣)

ويقول أيضاً: « إن رسول الله ﷺ قال العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»(٤)

ثم دعوة للحج

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال أيها

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٩١١.

(٢) صحيح البخاري ٢-٥٥٣.

(٣) صحيح البخاري ٢-٥٥٣.

(٤) صحيح البخاري ٢-٦٢٩.

الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً.. فقال رسول الله ﷺ: لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم.. ثم قال: ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم.. فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم.. وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»[1] لأن التشدد والتقعر ليس من الصفات التي تعود على صاحبها بخير.. وكانت تلك الدعوة أمنية حملتها عائشة رضي الله عنها عندما قالت: «يا رسول الله.. ألا نغزو ونجاهد معكم؟ فقال: لكن أحسن الجهاد وأجمله الحج.. حج مبرور. فقالت عائشة: فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ»[2]

ونظراً لخطورة الوضع الأمني على المرأة وتعرضها أكثر من الرجل للاستغلال الجسدي في الأسفار فقد «قال النبي ﷺ: لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم ولا يدخل عليها رجل إلا ومعها محرم.. فقال رجل: يا رسول الله.. إني أريد أن أخرج في جيش كذا وكذا وامرأتي تريد الحج فقال: اخرج معها»[3] وكأن هذا الحديث يعطي لمن يسافر مع زوجته لأداء الحج أجراً أكثر من أجره إذا سافر مع الجيش للجهاد.. هذه العناية بالمرأة لا تعني كما يتصور البسطاء فرض حصار على المرأة بقدر ما هو حمايتها في عالم يتسيد فيه الرجل من أقصاه إلى أقصاه..

لم تكن عائشة وحدها في شوق إلى الحج.. هذه امرأة مؤمنة أرادت أن يحملها الحج إلى البر «امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها؟ قال: نعم حجي

(١) صحيح مسلم ٢-٩٧٥.
(٢) صحيح البخاري ٢-٦٥٨.
(٣) صحيح البخاري ٢-٦٥٨.

عنها.. أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله فالله أحق بالوفاء»[1]

وقد حدد النبي ﷺ لكل بلد من البلاد يبدؤون منه حجهم وسميت هذه الأماكن بـ

مواقيت الحج المكانية

فالحج لا يؤدى إلا في مواقيت زمانية هي: شهر شوال

وشهر ذي القعدة.. وشهر ذي الحجة.

أما المواقيت المكانية فهي أماكن محددة يبدأ الحاج والمعتمر منها أو قبل أن يصلها حجه وعمرته.. وهي تحيط بمكة من جميع الجهات وتمثل نقاط مرور على الطرقات المؤدية إليها.. فإذا وصلها الحاج أو المعتمر وجب عليه خلع ثياب معينة حددها النبي ﷺ:

ملابس لا تجوز في الإحرام

السنة أن تكون مكونة من قطعتي قماش: إزار ورداء يلف إحداهما حول وسطه لتغطي عورته وأسفل جسمه فتكون له إزاراً.. وأما القطعة الأخرى فيديرها تحت إبطه الأيمن مغطياً بها كتفه الأيسر وتسمى رداءاً وطريقة لف الرداء تحت الإبط الأيمن وفوق الكتف الأيسر تسمى: (الاضطباع).. وليس لها أولوان محددة لكن قال ﷺ: «البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم»[2].. أما الملابس التي يحرم لبسها على

---

(١) صحيح البخاري ٢-٦٥٦.

(٢) سنده قوي رواه عبد الرزاق ٣-٤٢٩ وغيره من طرق عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وعبد الله بن خثيم صدوق من رجال مسلم: التقريب =

الرجال فهي التي أخبر عنها النبي ﷺ عندما «قام رجل فقال: يا رسول الله.. ماذا تأمرنا أن نلبس من الثياب في الإحرام؟ فقال النبي ﷺ: لا تلبسوا القميص ولا السراويلات ولا العمائم ولا البرانس[1].. إلا أن يكون أحد ليست له نعلان فليلبس الخفين وليقطع أسفل من الكعبين ولا تلبسوا شيئاً مسه زعفران ولا الورس[2] »[3] أما «من لم يكن له إزار فليلبس السراويل ومن لم يكن له نعلان فليلبس خفين»[4] أما النساء فليس لهن ملابس معينة لكن لا يجوز للمرأة لبس القفازين ولا النقاب إذا دخلت في الحج أو العمرة.. قال ﷺ: «لا تنقب المرأة المحرمة ولا تلبس القفازين»[5]

وبعد أن يرتدي الحاج أو المعتمر ملابس الإحرام ينوي البدء والدخول في العبادة التي سافر من أجلها سواء كانت حجاً أو عمرة. والسنة أن يكون ذلك في المواقيت المكانية المحددة.. فإذا دخل في الإحرام وجب عليه الامتناع عن عدة أشياء كانت مباحة له قبل أن يحرم تسمى

محظورات الإحرام

ومنها باختصار:

الصيد في البر لا في البحر.. لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ

=

١-٤٣٢ وشيخه من أئمة التابعين الثقات.

(١) هي ثياب في أعلاها غطاء للرأس.

(٢) نبات أصفر ينبت في اليمن تزين المرأة به وجهها.

(٣) صحي البخاري ٢-٦٥٣.

(٤) صحيح البخاري ٥-٢١٩٩.

(٥) صحيح البخاري ٢-٦٥٣.

﴿وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾[1].

الخطبة والزواج والجماع.. لقوله عليه السلام «لا ينكح المحرم ولا ينكح ولا يخطب»[2] وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾[3].

حلق الشعر.. لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ﴾[4]

أسماء المواقيت المكانية

[وقَّتَ رسول الله ﷺ:

لأهل المدينة: ذا الحليفة[5]

ولأهل الشام: الجحفة[6]

ولأهل نجد: قرن المنازل[7]

ولأهل اليمن: يلملم[8]][9]..

---

(١) المائدة: ٩٦.

(٢) صحيح مسلم ٢-١٠٣٠.

(٣) البقرة: ١٩٧.

(٤) البقرة: ١٩٦.

(٥) مكان يبعد ستة أميال أو أكثر من المدينة.

(٦) قرية قريبة من مدينة رابغ الآن.

(٧) مكان بين الطائف ومكة.

(٨) بينه وبين مكة ثلاثون ميلاً.

(٩) صحيح مسلم ٢-٨٣٨.

إذاً لكل جهة ميقات لكن ماذا عن الحاج والمعتمر الذي يمر بميقـــات غير ميقات بلاده.. وماذا عن الحاج والمعتمر الذي تكون بلاده أقرب إلى مكة من الميقات.. يقول النبي ﷺ أن تلك المواقيت لمن مر عليهن كائناً من كان:

«هن لهن ولمن أتى عليهن من غير أهلهن ممن أراد الحج والعمرة فمن كان دونهن فمن أهله.. وكذا فكذلك حتى أهل مكة يهلون منها»[1]

أي أن من كان بيته أقرب إلى مكة من الميقات يحرم من بيته حتى أن أهل مكة يحرمون من بيوتهم.. هذه بعض المعلومات التي تلقاها الصحابة قبل تحركهم إلى مكة.. وأثناء فترة الاستعداد للحج انتشر الخبر في أرجاء الجزيرة فعادت معظم تلك الوفود وقدمت إلى المدينة حشود عظيمة كلها رغبة في الحج والاقتداء بسنة النبي ﷺ.. جابر بن عبد الله رضي الله عنـــه يتحدث عن تلك الأيام البهيجة فيقول:

«إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحـــج ثم أذن في النـــاس في العاشرة أن رسول الله ﷺ حاج فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلـــتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله فخرجنا معه

انطلق عليه السلام وأصحابه وقبل أن يصلوا الميقات وهو ذو الحليفة

توقف في واد يقال له وادي العقيق

حيث جاءه الوحي في ذلك الوادي وأمره بسنة يقول عنـــها عمـــر رضي الله عنه «سمعت النبي ﷺ بوادي العقيق يقول: أتاني الليلة آت مـــن

(١) صحيح مسلم ٢-٨٣٨.

ربي فقال: صل في هذا الوادي المبارك.. وقل: عمرة في حجة»[1] عمـــرة في حجة

ما معنى عمرة في حجة

قبل ذلك كان النبي ﷺ منطلقاً قاصداً الحج فقط تقول «عائشة رضي الله عنها: إن رسول الله ﷺ أفرد الحج»[2] أي نوى الحج فقط لكن جبريل أتاه في واد العقيق وأمره أن يقرن العمرة بالحج ويجعلهما معاً في ســـفرته هذه.. ومعنى القران هو: أن يؤدي العمرة فإذا انتهى منها بقـــي علـــى إحرامه حتى ينتهي الحج دون فاصل بينهما.. أما المفرد فهو الذي ذهـــب لأداء الحج فقط دون عمرة.. إذاً لا يوجد حـــتى الآن إلا طريقتـــان أو نسكان: القِران أو الإفراد.. لن نستبق الأحداث سنواصل السفر الـــذي يحمل المزيد والجديد.. في الطريق كان الصحابة لأول مرة يسمعون بعمرة في وقت الحج يقول جابر رضي الله عنه: «لسنا ننوي إلا الحـــج لســـنا نعرف العمرة»[3]

«حتى أتينا ذا الحليفة فولدت أسماء بنت عميس محمدَ بن أبي بكـــر فأرسلت إلى رسول الله ﷺ: كيف أصنع؟ قال اغتسلي واستثفري بثوب وأحرمي.. فصلى رسول الله ﷺ في المسجد ثم ركب القصواء.. حتى إذا استوت به ناقته على البيداء نظرت إلى مد بصري بين يديه من راكـــب وماش وعن يمينه مثل ذلك وعن يساره مثل ذلك ومن خلفه مثل ذلك..

---

(١) صحيح البخاري ٢-٥٥٦.

(٢) صحيح مسلم ج: ٢ ص: ٨٧٥.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٨٨٧ وهو حديث طويل وعظيم وشامل ســأنقل منـــه مكتفياً بالرمز له بـــ: حديث جابر.

ورسول الله ﷺ بين أظهرنا وعليه يترل القرآن وهو يعرف تأويله وما عمل به من شيء عملنا به»(١)

متى غادروا المدينة والوصول إلى الميقات

وماذا فعل النبي ﷺ قبل مغادرته.. لقد لبد عليه السلام شعره بالصمغ أو غيره حتى لا يتطاير ويدخله الغبار.. وقد قامت عائشة رضي الله عنه بتطييبه حيث يقول: «كنت أطيب رسول الله ﷺ فيطوف على نسائه ثم يصبح محرماً ينضخ طيبا»(٢) وأشياء يتحدث عنها ابن عباس فيقول: «انطلق النبي ﷺ من المدينة بعد ما ترجل وادهن ولبس إزاره ورداءه هو وأصحابه فلم ينه عن شيء من الأردية والأزر تلبس إلا المزعفرة التي تردع على الجلد فأصبح بذي الحليفة [صلى الظهر بذي الحليفة ثم دعا ببدنته أو أتى ببدنته فاشعر صفحة سنامها الأيمن ثم سالت الدم عنها وقلدها بنعلين ثم أتى راحلته فلما قعد عليها واستوت به على البيداء أهل بالحج] ركب راحلته حتى استوى على البيداء أهل هو وأصحابه(٣) وقلد بدنته(٤) وذلك لخمس بقين من ذي القعدة»(٥) أي قبل نهاية شهر ذي القعدة بخمسة أيام.. «فأهل بالتوحيد:

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٨٨٧ وهو حديث طويل وعظيم وشامل سأنقل منه مكتفياً بالرمز له بـ: حديث جابر.

(٢) صحيح البخاري ١-١٠٤.

(٣) أي لبى ومعنى أشعر أي جرح سنامها تمييزاً لها عن بقية الإبل.

(٤) أي علق على رقبتها شيئاً يميزها وقد علق نعلين عليها.

(٥) صحيح البخاري ٢-٥٦٠ والزيادة سندها صحيح رواها أحمد ١-٢٥٤ وغيره من طريق شعبة قال قتادة أخبرني قال سمعت أبا حسان يحدث عن ابن عباس أن النبي ﷺ... وهذا السند صحيح فأبو حسان الأعرج ثقة وليس كما قال الحافظ في التقريب: ٢-٤١١ صدوق انظر التهذيب.

لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لـك والملك لا شريك لك وأهل الناس بهذا الذي يهلون به [والناس يزيدون:

ذا المعارج ونحوه من الكلام والنبي ﷺ يسمع فلا يقول لهم شيئاً] فلم يرد رسول الله ﷺ عليهم شيئاً منه ولزم رسول الله ﷺ تلبيته قال جـابر رضي الله عنه لسنا ننوي إلا الحج لسنا نعرف العمرة»[1]

فعل النبي ﷺ كل ذلك ثم سار حتى بلغ مكاناً يبعد من المدينة سـتاً وثلاثين ميلاً يقال له:

الروحاء حيث الذكريات والوعود والتشريع

أما الذكريات ففي ذلك الوادي زُفت أم المؤمنين صفية إلى النبي ﷺ بعد عودته من غزوة خيبر يقول أنس إن صفية: «اصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه فخرج بها حتى بلغنا سد الروحاء حلت فبنى بها ثم صنع حيسـاً في نطع صغير ثم قال رسول الله ﷺ آذن من حولك فكانت تلـك وليمـة رسول الله ﷺ على صفية»[2].. أما الوعود فيقول عليه السلام:

«والذي نفسي بيده ليهلن ابن مـريم بفـج الروحـاء حاجـاً أو معتمراً»[3]

وأما التشريع

فيقول ابن عباس إن النبي ﷺ «لقي ركباً بالروحاء فقال: مَنِ القومُ؟

(١) حديث جابر في صحيح مسلم والزيادة عند البيهقي ٥-٤٥ وغيره من الطريق نفسه وهي صحيحة.

(٢) صحيح البخاري ٢-٧٧٨.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩١٥.

قالوا المسلمون فقالوا من أنت؟ قال رسول الله: فرفعت إليه امرأة صبياً.. فقالت: ألهذا حج؟ قال: نعم ولك أجر»(١) لكن يلزم هذا الصبي أن يحج إذا بلغ لأنه غير مكلف.. فقد قال ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة عن الصبي حتى يحتلم.. وعن النائم حتى يستيقظ.. وعن المعتوه حتى يعقل»(٢).. واصل عليه السلام سفره وهو يلبي مضطبعاً وتلبيته هي: «لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك»(٣).

لكن ماذا عن مستوى الصوت أثناء التلبية.. يقول ﷺ «أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي أو من معي أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية أو بالإهلال يريد أحدهما»(٤)

هذا ما يقوله الحاج الذي في طريقه إلى مكة.. لكن ماذا عن:

الاشتراط

أي ماذا عن حاج تعرض لمشكلة ما وهو في طريقه للحج وهذه المشكلة أعاقته عن الوصول إلى مكة أو أعاقته أثناء أداء الحج فلم يتمكن

(١) صحيح مسلم ٢-٩٧٤.

(٢) سنده صحيح رواه أحمد ٦-١٠١ ثنا حسن بن موسى وعفان وروح قالوا ثنا حماد بن سلمة عن حماد عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة عن النبي ﷺ وله شواهد كثيرة.

(٣) صحيح البخاري ج: ٢ ص: ٥٦١.

(٤) سنده صحيح رواه مالك في الموطأ ١-٣٣٤ عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم عن عبد الملك بن أبي بكر بن الحارث بن هشام عن خلاد بن السائب الأنصاري عن أبيه أن رسول الله ﷺ... خلاد تابعي ثقة: التقريب ١-٢٢٩ وتلميذه تابعي أيضاً وثقة من رجال الشيخين التقريب: ١-٥١٧ وتلميذ هذا الشيخ تابعي ثقة أيضاً انظر التقريب ١-٤٠٥.

من المواصلة.. في هذه الحالة عليه أن يذبح هدياً من الغنم أو البقر أو الإبل: لأن الله سبحانه يقول: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ﴾ لكن هنا يأتي الاشتراط مخرجاً من هذه الأزمة.. تقول عائشة رضي الله عنها:

«دخل رسول الله ﷺ على ضباعة بنت الزبير فقال لها: لعلك أردت الحج؟ قالت والله لا أجدني إلا وجعة فقال لها: حجي واشترطي.. قولي: اللهم محلي حيث حبستني»[1] أي أنها إذا تعرضت لمانع ما فإن إحرامها ينتهي مباشرة وتصبح في حل من إحرامها دون ذبح فدي إذا اشترطت بتلك الكلمات عند إحرامها..

امتثلت ضباعة وانطلقت مع الحجيج..

كان سيلاً بشرياً متدفقاً هادراً كالرعد يغسل السماء والأرض من عفن الخرافة والوثنية.. رجل كان قبل عشر سنوات يفر مع رفيقه من مكة طريداً شريداً باحثاً عن مأوى.. واليوم يعود إلى مكة بالمهاجرين والأنصار وبالجزيرة العربية كلها.. مشهد يتمنى المرء لو تمتع به ولو للحظات.. كان بعض الصحابة قد أحضر معه هدياً من الإبل ليذبحه لله في الحج فتحرج من ركوبها واكتفى بالسير على قدميه فرآه النبي ﷺ.. «فقال: اركبها.. قال: إنها بدنة.. قال: اركبها.. قال: إنها بدنة.. قال: اركبها ويلك»[2] وقال: «اركبها بالمعروف حتى تجد ظهراً»[3].. ركب الصحابي دابته وجاء صحابي آخر يسأل عن:

---

(١) صحيح البخاري ج: ٥ ص: ١٩٥٧.

(٢) صحيح البخاري ٥-٢٢٨٠.

(٣) صحيح مسلم ج: ٢ ص: ٩٦١.

حكم الهدي إذا جرح أو أصيب

وذلك بعد تقليده وإشعاره.. الصحابي الذي قدم سؤاله هو ناجية الخزاعي وكان مسؤولاً عن شؤون الهدي الذي ساقه النبي ﷺ معه «ناجية الخزاعي صاحبُ بُدْنِ رسول الله ﷺ قال قلت يا رسول الله كيف أصنع بما عطب من البدن قال: انحرها ثم اغمس نعلها في دمها ثم خل بين الناس وبينها فيأكلوها»[1] لكن لا يأكلها هو أو رفاقه في الحج يقول «ابن عباس: إن ذؤيباً أبا قبيصة حدثه أن رسول الله ﷺ كان يبعث معه بالبدن ثم يقول: إن عطب منها شيء فخشيت عليه موتاً فانحرها ثم اغمس نعلها في دمها ثم أضرب به صفحتها ولا تطعمها أنت ولا أحد من أهل رفقتك»[2]

اقترب السيل البشري من مكة وكان:

تاريخ الوصول إلى مكة

بالتحديد هو ما ذكره ابن عباس أن النبي ﷺ: «قدم مكة لأربع ليال خلون من ذي الحجة» [3] أي في اليوم الرابع من شهر ذي الحجة.. فيكون قد بقي على يوم عرفة خمسة أيام

وهنا نزل حكم جديد فيه رحمة بهذه الجموع الغفيرة.. تقول عائشة رضي الله عنها «فلما دنونا من مكة أمر رسول الله ﷺ من لم يكن معه

---

(١) سنده صحيح رواه الترمذي ٣-٢٥٣ وغيره من طرق عن هشام بن عروة عن أبيه عن ناجية الخزاعي وهو سند صحيح.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٦٣.

(٣) صحيح البخاري ٢-٥٦٠.

هدي إذا طاف وسعى بين الصفا والمروة أن يحل»[1] أي إذا انتهى من العمرة يخلع لباس الإحرام..

وهنا نزل الوحي بنسك ثالث من أنساك الحج هو:

التمتع

أي أن من لم يحضر معه هدياً من البقر أو الغنم أو الإبل فله أن يكمل عمرته ثم يتحلل أي يتمتع بكل ما كان نهي عن فعله من الأشياء الجائزة قبل أن يحرم.. كالطيب ولبس القميص وغيرها ويخلع لباس إحرامه حتى يأتي اليوم الثامن من ذي الحجة وهو الذي سماه النبي ﷺ (يوم التروية).. وقد أثار هذا الأمر تساؤل بعض الصحابة لعدم فعل النبي له.. يقول جابر رضي الله عنه: إن «النبي ﷺ يوم ساق البدن معه وقد أهلوا بالحج مفرداً فقال لهم؛ أحلوا من إحرامكم بطواف البيت وبين الصفا والمروة وقصروا ثم أقيموا حلالاً حتى إذا كان يوم التروية فأهلوا بالحج واجعلوا التي قدمتم بها متعة.. فقالوا: كيف نجعلها متعة وقد سمينا الحج؟ فقال: افعلوا ما أمرتكم فلولا أني سقت الهدي لفعلت مثل الذي أمرتكم.. ولكن لا يحل مني حرام حتى يبلغ الهدي محله.. ففعلوا»[2] أي حتى أذبح الهدي..

ولعل في إدخال العمرة في أشهر الحج ضربة موجعة لبقايا الشرك الذي تسلل إلى الحج قبل الإسلام حيث كان العرب قبل الإسلام «يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض»[3] هذا عن الرجال فـ

---

(١) صحيح البخاري ٢-٦١١.

(٢) صحيح البخاري ٢-٥٦٨.

(٣) صحيح البخاري ٢-٥٦٧ عن ابن عباس.

ماذا عن النساء في دورتهن

ماذا عن عائشة وبقية النساء اللواتي تمر بهن دورتهن الشهرية (الحيض).. هل هناك داع للخوف من فوات الحج والعمرة عليهن.. تقول رضي الله عنها: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع فأهللنا بعمرة.. ثم قال رسول الله ﷺ: من كان معه هدي فليهلل بالحج مع العمرة ثم لا يحل حتى يحل منهما جميعاً.. فقدمت معه مكة وأنا حائض ولم أطف بالبيت ولا بين الصفا والمروة.. فشكوت إلى رسول الله ﷺ فقال: انقضي رأسك وامتشطي وأهلي بالحج ودعي العمرة ففعلت»[1]

اتضحت الصورة تماماً ونحن على أبواب مكة حيث بات النبي ﷺ وتوقف عن التلبية وبات في مكان يسمى بـ: ذي طوى ودخلها صبحاً لكنه قام بـ:

الاغتسال قبل دخول مكة

حيث «كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا دخل أدنى الحرم أمسك عن التلبية ثم يبيت بذي طوى ثم يصلي به الصبح ويغتسل ويحدث أن نبي الله ﷺ كان يفعله»[2]

من أي مكان دخل مكة وفي أي وقت

يقول «ابن عمر رضي الله عنهما: إن رسول الله ﷺ دخل مكة من كداء من الثنية العليا التي بالبطحاء ويخرج من الثنية السفلى»[3] وهو ما

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٩٦.

(٢) صحيح البخاري ٢-٥٧٠.

(٣) صحيح البخاري ٢-٥٧١.

تؤكده عائشة رضي الله عنها بقولها: « إن النبي ﷺ لما جاء إلى مكة دخلها من أعلاها وخرج من أسفلها»[1]

توجه عليه السلام نحو بيت الله الحرام.. فـ

ما هو أول شيء فعله

كان «أول شيء بدأ به حين قدم مكة أنه توضأ»[2] أي أنه «توضأ ثم طاف»[3] لأن «الطواف صلاة»[4] ولذلك لم يحل لعائشة أن تطوف لأنها حائض.. تقول رضي الله عنها «دخل علي النبي ﷺ وأنا أبكي فقال ما يبكيك قلت لوددت والله أني لم أحج العام قال لعلك نفست قلت نعم قال فإن ذلك شيء كتبه الله على بنات آدم فافعلي ما يفعل الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تطهري»[5] أي أنها تمارس كل مناسك الحج إلا الطواف حول الكعبة..

ثم توجه ﷺ نحو الكعبة وبالتحديد نحو الحجر الأسود.. حيث يقول جابر رضي الله عنه متحدثاً عن:

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩١٨.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٠٦.

(٣) صحيح البخاري ٢-٥٨٤.

(٤) سنده صحيح رواه عبد الرزاق في المصنف ٥-٤٩٥ عن ابن جريج قال: أخبرني الحسن ابن مسلم عن طاووس عن رجل قد أدرك النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال: ابن جريج لم يدلس والحسن وطاووس من التابعين الثقات.. انظر التقريب ١-١٧١/٣٧٧ وله شاهد عن ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً.

(٥) صحيح البخاري ١-١١٧.

الطواف

« إن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أتى الحجر فاستلمه ثم مشى على يمينه فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً»[1] أي جعل الكعبة والحجر عن يساره.. وكان في طوافه لا يستلم من الكعبة إلا الحجر الأسود والركن اليماني.. وكان يطوف حول الكعبة سبعة أشواط يرمل في أول ثلاثة أشواط أي يسير سيراً بين الركض والمشي.. ثم يمشي مشياً عادياً في بقية.. يقول ابن عمر رضي الله عنهما: « إن رسول الله ﷺ كان لا يستلم إلا الحجر والركن اليماني»[2]

والاستلام يكون باليد.. كما أن النبي ﷺ قام بتقبيل الحجر الأسود فقط لكنه لم يقبل الركن اليماني.. ولذلك توجه عمر نحو الحجر الأسود ممتلئاً بالتوحيد والإخلاص لله وخاطبه بلغة المتبع للوحي لا المبتدع.. بلغه حفظها لنا الصحابي عبد الله بن سرجس رضي الله عنه فقال «رأيت الأصلع يعني عمر بن الخطاب يقبل الحجر ويقول: والله إني لأقبلك وإني أعلم أنك حجر وأنك لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبلك ما قبلتك»[3]

أما ابنه عبد الله فكان «يستلم الحجر بيده.. ثم قبل يده وقال: ما تركته منذ رأيت رسول الله ﷺ يفعله»[4] إذاً فلدينا حتى الآن ثلاث سنن حول الحجر الأسود: الاستلام باليد فقط.. والاستلام باليد ثم تقبيل اليد.. وتقبيل الحجر مباشرة

(١) صحيح مسلم ٢-٨٩٣.
(٢) صحيح مسلم ٢-٩٢٤.
(٣) صحيح مسلم ٢-٩٢٥.
(٤) صحيح مسلم ٢-٩٢٤.

هذا هو الطواف.. لكن:

هل هناك أدعية مخصوصة أثناء الطواف

الطواف بحد ذاته عبادة والعبادة في الإسلام لا بد أن تكون وحياً نقياً فقط وإلا فقدت كونها عبادة لأنها لا تستند إلى دليل.. والصحابة لم ينقلوا لنا عن النبي ﷺ حديثاً صحيحاً يجعل للطواف أذكاراً خاصة به.. لذلك فالأمر متسع لكل الأذكار من قراءة القرآن إلى الدعاء إلى التسبيح والتهليل بل وحتى الصمت.. أما الكلام في الطواف فجائز إذا كان قليلاً لقوله عليه السلام:

«إنما الطواف صلاة فإذا طفتم فأقلوا الكلام»(١)

طاف النبي ﷺ سبعة أشواط فماذا فعل:

بعد الطواف

بعد أن انتهى توجه عليه السلام مباشرة نحو مكان يقع أمام باب الكعبة والحجر بمسافة قصيرة يسمى: مقام إبراهيم.. وصلى خلفه ركعتين. يقول جابر رضي الله عنه:

«ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت»(٢) و«كان يقرأ في الركعتين قل هو الله أحد وقل يا أيها الكافرون ثم رجع إلى الركن فاستلمه ثم خرج»(٣) نحو جبل الصفا.. وبذلك انتهى من الطواف تماماً ليبدأ في

---

(١) سنده صحيح رواه عبد الرزاق ٥-٤٩٥ وقد تم تخريجه قبل أربعة أحاديث و لم أجد سنداً صحيحاً لذكر معين بين الركنين.

(٢) جزء من حديث جابر عند مسلم ٢-٨٨٧.

(٣) جزء من حديث جابر عند مسلم ٢-٨٨٧.

السعي بين الصفا والمروة

أي المشي بين جبلي الصفا والمروة.

يقول جابر رضي الله عنه: «ثم خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أبدأ بما بدأ الله به فبدأ بالصفا فرقي عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.. لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده.. ثم دعا بين ذلك.

قال مثل هذا ثلاث مرات

ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي سعى»[1] أي ركض عندما نزل بطن الوادي.. وقد رأته إحدى الصحابيات فقالت: «أبصرت النبي ﷺ وهو يسعى بين الصفا والمروة يقول لا يقطع الأبطح إلا شداً»[2] وقد أشير لبطن الوادي بعلامتين بعد ذلك.. وقد سعى النبي ﷺ سبعة أشواط.. مقدار كل شوط هو مقدار ما بين الجبلين.. من الصفا والمروة شوط.. ومن المروة إلى الصفا شوط.. وبذلك تكون نهاية الشوط السابع والأخير عند المروة وتنتهي العمرة بعد إكمال الشوط السابع.. ولما أكمل النبي ﷺ وصحابته شوط السعي السابع ذكرهم بما قاله من قبل.. وهو أن من لم يحضر معه غنماً أو إبلاً أو بقراً فعليه أن يقصر شعره ويخلع

---

(١) جزء من حديث جابر عند مسلم ٢-٨٨٧.

(٢) سنده صحيح رواه أحمد ٦-٤٠٤ وغيره من طريق هشام الدستوائي عن بديل بن ميسرة عن صفية بنت شيبة عن أم ولد شيبة وهشام وبديل ثقتان وصفية صحابية وقال العجلي: تابعية ثقة. معرفة الثقات ٢-٤٥٤.

لباس إحرامه ويتمتع بكل المباحات حتى يأتي اليوم الثامن.. نحن الآن في اليوم الرابع وقد «كان آخر طوافه على المروة فقال لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي وجعلتها عمرة فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل وليجعلها عمرة فقام سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله.. ألعامنا هذا أم لأبد؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى وقال: دخلت العمرة في الحج مرتين.. لا بل لأبد أبد»(١) قال جابر: «لم يكن بيننا وبين عرفة إلا خمس»(٢) «فقام النبي ﷺ فينا فقال: قد علمتم أني أتقاكم لله وأصدقكم وأبركم ولولا هديي لحللت كما تحلون ولو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي فحلوا فحللنا وسمعنا وأطعنا»(٣) فأحلوا وخلعوا ثياب إحرامهم وتطيبوا وفعلوا ما كان محظوراً عليهم أثناء الإحرام. نفذ الصحابة ما طلب منهم فأحل من لم يُحْضِر الهدي وبقي النبي ﷺ على إحرامه هو والصحابة الذين ساقوا الهدي معهم ثم توجه ﷺ لـ:

السكن في الحجون

مكان في أعلى مكة وهو ذلك المكان الذي خاطب فيه النبي ﷺ الجن قبل الهجرة إذاً فهو قد «نزل بأعلى مكة عند الحجون وهو مهل بالحج ولم يقرب الكعبة بعد طوافه»(٤) وكانت «فاطمة رضي الله عنها ممن حل ولبست ثياباً صبيغاً واكتحلت»(٥) وقد استغربت أم المؤمنين حفصة رضي

(١) حديث جابر عند مسلم ٢-٨٨٨.
(٢) صحيح مسلم ٢-٨٨٣.
(٣) صحيح مسلم ٢-٨٨٣.
(٤) صحيح البخاري ٢-٥٦٠.
(٥) حديث جابر عند مسلم.

الله عنها تصرف النبي ﷺ وتصرفات بعض صحابته يقول أخوها «ابن عمر عن حفصة رضي الله عنهم زوج النبي ﷺ إنها قالت: يا رسول الله.. ما شأن الناس حلوا بعمرة و لم تحلل أنت من عمرتك؟ قال: إني لبدت رأسي وقلدت هديي فلا أحل حتى أنحر»(١) أي حتى يذبح الهدي الذي أحضره معه..

أثناء ذلك وبينما كان النبي ﷺ في الحجون شاهد الصحابة:

علي بن أبي طالب وأبا موسى يصلان من اليمن

حيث كانا قد علما بتحركه عليه السلام لأداء الحج فلحقا به.. وكان لكل واحد منهما حالة تختلف عن الآخر فقد «قدم علي من اليمن ببدن النبي ﷺ فوجد فاطمة رضي الله عنها ممن حل ولبست ثياباً صبيغاً واكتحلت فأنكر ذلك عليها.. فقالت: إن أبي أمرني بهذا.. قال: فكان علي يقول بالعراق فذهبت إلى رسول الله ﷺ محرشاً(٢) على فاطمة للذي صنعت مستفتياً لرسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه.. فأخبرته أني أنكرت ذلك عليها.. فقال: صدقت صدقت.. ماذا قلت حين فرضت الحج؟ قال: قلت: اللهم إني أهلّ بما أهلّ به رسولك، قال: فإن معي الهدي فلا تحل قال فكان جماعة الهدي الذي قدم به علي من اليمن والذي أتى به النبي ﷺ مائة.. فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي»(٣) يقول جابر رضي الله عنه: «لم يكن مع أحد منا هدي غير النبي ﷺ وطلحة وجاء علي من اليمن معه الهدي فقال أهللت بما أهل به رسول الله ﷺ»(٤)

---

(١) صحيح البخاري ٢-٥٦٨.

(٢) أي يريد من النبي ﷺ أن يعاتبها.

(٣) حديث جابر الصحيح عند مسلم.

(٤) صحيح البخاري ٦-٢٦٤٢.

أما أبو موسى فيقول رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ بعثني إلى اليمن فوافقته في العام الذي حج فيه فقال لي رسول الله ﷺ: يا أبا موسى كيف قلت حين أحرمت؟ قلت: لبيك إهلالاً كإهلال النبي ﷺ.. فقال: هل سقت هدياً؟ فقلت: لا.. قال: فانطلق فطف بالبيت وبين الصفا والمروة ثم أحل»(١) «ففعلت حتى مشطت لي امرأة من نساء بني قيس»(٢)

وبذلك بقي علي بن أبي طالب في إحرامه لأنه ساق الحيوانات (الهدي) معه.. وخلع أبو موسى إحرامه بعد العمرة لأنه لم يحضر معه هدياً.. أي أن علياً كان قارناً.. أما أبو موسى فأصبح متمتعاً مثل جابر الذي يقول: «خرجنا مع رسول الله ﷺ مهلين بالحج معنا النساء والولدان فلما قدمنا مكة طفنا بالبيت وبالصفا والمروة فقال لنا رسول الله ﷺ: من لم يكن معه هدي فليحلل قلنا: أي الحل؟ قال: الحل كله. قال: فأتينا النساء ولبسنا الثياب ومسسنا الطيب»(٣)

واستمر الوضع على هذه الحال حتى:

جاء اليوم الثامن من ذي الحجة

وهو المسمى بـ (يوم التروية) وهو بداية أيام الحج.. يقول جابر: إنه لما «كان يوم التروية أهلوا بالحج»(٤) حيث غادر النبي ﷺ الحجون متجهاً بالجموع نحو (منى) لقضاء يوم التروية كاملاً فيها يقول جابر رضي الله عنه: «فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج وركب رسول

(١) صحيح مسلم ٢-٨٩٦.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٧٩.

(٣) صحيح مسلم ٢-٨٨٢.

(٤) صحيح البخاري ٢-٥٦٢.

الله ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر»[1].. كان يوماً جميلاً حافلاً بذكر الله.. لكنه كان يوماً حزيناً بالنسبة لعائشة التي يتحدث جابر بن عبد الله عن بكائها ذلك اليوم فيقول:

«أهللنا يوم التروية ثم دخل رسول الله ﷺ على عائشة رضي الله عنها فوجدها تبكي.. فقال ما شأنك؟

قالت: شأني أني قد حضت وقد حل الناس و لم أحلل و لم أطف بالبيت والناس يذهبون إلى الحج الآن.. فقال: إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم فاغتسلي ثم أهلي بالحج ففعلت»[2] كما فعل الحجاج ودخلت معهم الحج يوم التروية حيث يسن أن يقضي الحجاج ذلك اليوم في منى.. وليس هناك أذكار مخصوصة أو أفعال مخصوصة في ذلك اليوم سوى التزود بالطاعات ومحاولة ضبط النفس عن الانفعال في تلك الأيام التي يشتد فيها الزحام وأحياناً العطش والتعب.. فالحج جهاد ومجاهدة للانفعالات وردود الأفعال البشرية غير المحمودة.

وجاء اليوم التاسع (يوم عرفة)

فبعد أن صلى النبي ﷺ وأصحابه فجر ذلك اليوم في منى أمر بعض صحابته ببناء خيمة صغيرة في مكان في عرفة يسمى نمرة ثم تحرك هو وأصحابه نحو عرفة وكان الصحابة بين:

التكبير والتلبية يوم عرفة

فقد سأل رجل أنس بن مالك: عن الذكر في الطريق «من منى إلى

(١) صحيح مسلم ٢-٨٨٩.

(٢) صحيح مسلم ٢-٨٨١.

عرفة كيف كنتم تصنعون في هذا اليوم مع رسول الله ﷺ فقال: كان يهل منا المهل فلا ينكر عليه ويكبر منا المكبر فلا ينكر عليه» وتوقف عند تلك الخيمة وبقي تحتها حتى مالت الشمس من فوق الرؤوس نحو الغروب وهو وقت الظهر أو ما يسمى بالزوال.. يقول جابر رضي الله عنه: «إن النبي ﷺ صلى الفجر ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فترل بها»[1] حيث خطب الناس هناك.. وكانت

الخطبة يوم عرفة

قصيرة ومختصرة رغم أن الخطيب كان أبلغ الناس وأكثرهم تأثيراً وهو الذي لا ينطق عن الهوى.. ورغم أن الناس لن يملوا من حديثه.. إلا أنه سن سنته بقصر الخطبة يقول جابر «حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فأتى بطن الوادي فخطب الناس وقال: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.

ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوعة وإن أول دم أضع من دمائنا دم بن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بين سعد فقتلته هذيل.

وربا الجاهلية موضوع وأول رباً أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله.

(١) حديث جابر عند مسلم ٢-٨٩٠.

فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله.. ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح.. ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وأنتم تسألون عني[1] فما أنتم قائلون؟

قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس.

اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات»[2]

صلاة الظهر والعصر في عرفة

يقول جابر «ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئاً»[3]

الوقوف عند جبل عرفة

يقول جابر «ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات وجعل حبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص»[4].. وقبل أن نغادر عرفة نود أن نعرف:

(١) ستسألون عني يوم القيامة أو في القبر.

(٢) حديث جابر عند مسلم.

(٣) حديث جابر عند مسلم.

(٤) حديث جابر عند مسلم.

أي الأماكن من عرفة يجوز الوقوف بها

يقول عليه السلام: «وقفت ههنا وعرفة كلها موقف»[1] أما عن:

فضل يوم عرفة

فتقول عائشة: «إن رسول الله ﷺ قال: ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة.. وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء؟»[2].. وقد قدم أناس من أهل نجد يوم عرفة متوجهين بسؤال عن الحج.. ذلك السؤال الذي حملت إجابته:

أهمية الوقوف بعرفة بالنسبة للحجاج

يقول الصحابي: عبد الرحمن بن يعمر الديلي رضي الله عنه: «قال رأيت رسول الله ﷺ واقفاً بعرفات فأقبل أناس من أهل نجد فسألوه عن الحج فقال الحج يوم عرفة من أدرك قبل صلاة الصبح فقد أدرك الحج»[3] أي أن من لم يقف بعرفة قبل طلوع الفجر من هذه الليلة فقد فاته الحج.. ومن وقف بعزفة ولو ساعة من نهار أو ليل فقد أدرك الحج..

وبعد أن غابت الشمس ركب عليه السلام ناقته لـ:

مغادرة عرفة نحو مزدلفة

ولمزدلفة اسم آخر هو: (جمع) يقول جابر رضي الله عنه «وأردف

---

(١) صحيح مسلم ٢-٨٩٣.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٨٢.

(٣) سنده صحيح رواه البيهقي ٥-١٥٢ وغيره من طرق عن بكير بن عطاء عن عبد الرحمن ابن يعمر الديلي وبكير بن عطاء الليثي تابعي ثقة من رجال التقريب ١-١٠٨.

أسامة خلفه ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ويقول بيده اليمنى:

أيها الناس السكينة.. السكينة

كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد حتى أتى المزدلفة»(١) ولما سئل أسامة بن زيد رضي الله عنه عن طريقة سير النبي ﷺ نحو مزدلفة: «كيف كان رسول الله ﷺ يسير في حجة الوداع حين دفع قال كان يسير العنق فإذا وجد فجوة نص»(٢) أي كان يسير ببطء في المكان الضيق حتى لا يتضايق من وراءه من الزحام فإذا وجد طريقاً فسيحاً انطلق..

ويقول: «ابن عباس رضي الله عنهما أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة فسمع النبي ﷺ وراءه زجراً شديداً وضرباً وصوتاً للإبل فأشار بسوطه إليهم وقال: أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس بالإيضاع»(٣) أي ليس البر أن ترغموا الرواحل على السرعة.. واستمر الحال على ذلك حتى توقف النبي ﷺ في الطريق.. وعن ذلك التوقف يقول رديف النبي ﷺ أسامة بن زيد رضي الله عنه: «دفع رسول الله ﷺ من عرفة حتى إذا كان بالشعب نزل فبال ثم توضأ و لم يسبغ الوضوء فقلت: الصلاة يا رسول الله.. فقال: الصلاة أمامك فركب فلما جاء المزدلفة نزل فتوضأ فأسبغ الوضوء ثم أقيمت الصلاة فصلى المغرب ثم أناخ كل إنسان بعيره في منزله ثم أقيمت العشاء فصلى و لم يصل بينهما»(٤)

(١) حديث جابر.

(٢) صحيح البخاري ٢-٦٠٠.

(٣) صحيح البخاري ٢-٦٠١.

(٤) صحيح البخاري ١-٦٥.

في تلك الأثناء وصل رجل من جبل طي أنهكه التعب وأنهك راحلته.. حيث كان يقوم بعمل غريب ومرهق جداً رغبة في إدراك الحج.. كان لا يمر بجبل من جبال مكة إلا وقف عليه حتى انتهى إلى النبي ﷺ وهو في مزدلفة.. عندها طرح أسئلته التي بينت:

أهمية الوقوف بمزدلفة

كان اسم ذلك الصحابي: «عروة بن مضرس بن أوس بن حارثة بن لام الطائي قال أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة فقلت: يا رسول الله جئت من جبلي طيء والله ما جئت حتى أتعبت نفسي وأنضيت راحلتي وما تركت جبلاً إلا وقفت عليه.. فقال رسول الله ﷺ: من شهد معنا هذه الصلاة وقد كان وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه وقضى تفثه»[1] إذاً فالنبي عليه السلام «وقف بالمزدلفة وقال: وقفت هاهنا والمزدلفة كلها موقف»[2]

ثم نادى النبي ﷺ ابن عباس ومن معه من الصغار والنساء الضعفة وأمرهم أن يتوجهوا من الليل نحو منى ليرموا الجمرات وذلك لشدة الزحام المتوقعة غداً.. ولكنه نبههم إلى عدم رمي الجمرات قبل طلوع الشمس.. يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «أنا ممن قدم رسول الله ﷺ ليلة المزدلفة في ضعفة أهله»[3]

(١) سنده صحيح رواه الحميد ٢-٤٠٠ وغيره من طرق عن الشعبي قال سمعت عروة بن مضرس والشعبي تابعي إمام ثقة معروف.

(٢) سنده صحيح رواه ابن خزيمة ٤-٢٧١ وغيره من طرق عن جعفر ثنا أبي قال أتينا جابر ابن عبد الله وهذا هو سند مسلم.

(٣) سنده صحيح رواه أبو داود ٢-١٩٤ حدثنا أحمد بن حنبل ثنا سفيان أخبرني عبيد الله بن أبي يزيد أنه سمع ابن عباس... وعبيد الله تابعي ثقة من رجال الشيخين: التقريب ١-٥٤٠.

وقال ابن عباس: «كان رسول الله ﷺ يقدم ضعفاء أهله بغلس ويأمرهم يعني لا يرمون الجمرة حتى تطلع الشمس»[١]

في تلك الليلة لم يقم النبي ﷺ ولم يتهجد حيث «اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة»[٢] ثم نهض قبل أن يسفر الجو لـ:

التوجه نحو المشعر الحرام

والمشعر الحرام عبارة عن جبل في منطقة مزدلفة

يقول جابر رضي الله عنه: «ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحده فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً»[٣] وعن موقفه في مزدلفة يقول عليه السلام: «وقفت ههنا وجمع كلها موقف»[٤] وبعد أن أسفر الجو توجه عائداً:

إلى منى لرمي جمرة العقبة

يقول جابر رضي الله عنه: «فدفع قبل أن تطلع الشمس وأردف الفضل ابن عباس وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً فلما دفع رسول

---

(١) حديث صحيح رواه أبو داود ٢-١٩٤ والنسائي في الكبرى ٢-٤٣٧ وغيرهما من طرق عن حبيب بن أبي ثابت عن عطاء عن ابن عباس وهو سند صحيح لولا عنعنة حبيب وله شاهد عند ابن ماجه ٢-١٠٠٧ من طريق الحسن العربي عن ابن عباس وفيه إرسال وعند ابن أبي شيبة ٣-٢٣٤ وغيره من طريق المسعودي عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس والمسعودي فيه ضعف.

(٢) حديث جابر عند مسلم.

(٣) حديث جابر عند مسلم.

(٤) صحيح مسلم ٢-٨٩٣.

الله ﷺ مرت به ظعن يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل يصرف وجهه من الشق الآخر ينظر حتى»[1]

مر بطريقه بوادي محسر

وهو الوادي الذي أهلك الله فيه أصحاب الفيل ولذلك أسرع بالسير حتى تجاوز الوادي وهو مستمر في التلبية.. يقول جابر رضي الله عنه:

«أتى بطن محسر فحرك قليلاً ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى حتى»[2] وصل إلى منى عندها توقف لالتقاط الحصى.. لكن ما هو حجم الحصى وهل يزيد الأجر كلما كبر حجم الحصاة

الإجابة بالعكس.. يرويها لنا ابن عباس الذي أوصاه النبي ﷺ بالتقاط الحصى وحدد له:

حجم الحصى

قال ابن عباس: «قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو واقف على راحلته:

هات القط لي فلقطت له حصيات وهي حصا الخذف[3] فلما وضعتهن في يده قال: نعم بأمثال هؤلاء فارموا.. بأمثال هؤلاء فارموا..

(١) حديث جابر عند مسلم.

(٢) حديث جابر عند مسلم.

(٣) الرمي بالحصى الصغار بأطراف الأصابع لسان العرب ٩-٤٠.

بأمثال هؤلاء فارموا.. وإياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»[1]

ومن الغلو في الدين الرمي بأحجار كبيرة أو بالأحذية أو أي شيء غير حصى الخذف الصغير..

أخبر النبي ﷺ أصحابه بسنته ثم «أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها حصى الخذف رمى من بطن الوادي»[2] كان عليه السلام يكبر فقط يعني يقول: الله أكبر لا يزيد ولا ينقص عليها شيء.. وهذا معناه أنه:

توقف عن التلبية عند الرمي

كما يقول رديفه الفضل بن عباس رضي الله عنهما: «إن النبي ﷺ لم يزل يلبي حتى رمى جمرة العقبة»[3] وهذا معناه أنه ترك التلبية عند بدء الرمي مباشرة لأنه انشغل بالتكبير أثناء الرمي..

«فرمى الجمرة بسبع حصيات وجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه»[4] وقد كان عليه السلام يرمي جمرة العقبة راكباً ويقدم لأمته صورة من صور التلاحم والتواضع والسكينة وضبط النفس في شدة الزحام التي

---

(١) سنده صحيح رواه ابن حبان - موارد الظمآن ١-٢٤٩ وأبو يعلى ٤-٣١٦ وغيرهما من طرق عن عوف الأعرابي عن زياد بن حصين قال حدثني أبو العالية قال حدثني ابن عباس وأبو العالية هو التابعي الثقة رفيع بن مهران التقريب ١-٢٥٢ وتلميذه زياد بن الحصين ثقة من رجال مسلم التقريب ١-٢٦٧ وعوف الأعرابي من رجال الشيخين التقريب ٢-٨٩.

(٢) حديث جابر عند مسلم.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٣١.

(٤) صحيح مسلم ج: ٢ ص: ٩٤٣.

تحتاج إلى هذا المستوى الرفيع من التعامل والأخلاق والقيادة.. الصحابة يروون:

عظمة هذا النبي يوم الرمي

يقول أحد الصحابة رضي الله عنه «رأيت رسول الله ﷺ يوم النحر على ناقته صهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك»(١) أي أن الناس لا يُضربون ولا يُدفعون أثناء مروره بل لا يقال لهم أفسحوا الطريق أو ابتعدوا كي يمر.. كان جزءاً من أمته يسبح في مشاعرها وتسبح في مشاعره.. يمتع ناظريه بهم ويمتعون أنظارهم به..

صحابية أخرى تدعى: أم الحصين «تقول حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع فرأيته حين رمى جمرة العقبة وانصرف وهو على راحلته ومعه بلال وأسامة أحدهما يقود به راحلته والآخر رافع ثوبه على رأس رسول الله ﷺ من الشمس.. فقال رسول الله ﷺ قولاً كثيراً ثم سمعته يقول: إن أمر عليكم عبد مجدع أسود يقودكم بكتاب الله تعالى فاسمعوا له وأطيعوا»(٢)

ويقول جابر رضي الله عنه: «رأيت النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر ويقول لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه»(٣)

ثم تحرك عليه السلام متوجهاً

---

(١) سنده قوي رواه ابن خزيمة ٤-٢٧٨ والحاكم ١-٦٣٨ والترمذي ٣-٢٤٧ وغيرهم من طرق عديدة عن أيمن بن نابل أخبرني قدامة بن عبد الله.. وأيمن بن نابل تابعي حسن الحديث من رجال البخاري.. انظر التقريب ١-٨٨.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٤٤.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٤٣.

نحو المذبح

لينحر هديه بيده ولذلك سمي هذا اليوم بـ (يوم النحر) ولما وصل عليه السلام قام بذبح ثلاث وستين منها بيده ثم ترك لعلي رضي الله عنه الباقي ليذبحه.. يقول جابر رضي الله عنه: «ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين بيده»(١) ثم بين لهم:

سنته في نحر الإبل

يقول ابن عمر رضي الله عنه عن هدي النبي ﷺ في نحر هديه من الإبل: «كان هو ينحر هديه بيده يصفهن قياماً ويوجههن إلى القبلة ثم يأكل ويطعم»(٢) ولذلك لما شاهد ابن عمر رجلاً ينحر إبله وقد أناخها على الأرض قال له: «ابعثها قياماً مقيدة سنة محمد ﷺ»(٣) أما:

سنته في ذبح الغنم

فقد بينها عليه السلام قبل ذلك في المدينة يقول أنس رضي الله عنه «ضحى النبي ﷺ بكبشين أملحين فرأيته واضعاً قدمه على صفاحهما يسمي ويكبر فذبحهما بيده»(٤) أي وضع قدمه على جنبها و«يقول باسم الله والله أكبر»(٥)

---

(١) حديث جابر عند مسلم.

(٢) سنده صحيح رواه مالك في الموطأ ١-٣٧٩ عن نافع عن عبد الله بن عمر وهذا سند كالذهب.

(٣) صحيح البخاري ٢-٦١٢.

(٤) صحيح البخاري ٥-٢١١٣.

(٥) صحيح مسلم ٣-١٥٥٧.

وقال رجل لـ «ابن عباس رضي الله عنهما:

قوله عز وجل ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ قال: إذا أردت أن تنحر البدنة فأقمها ثم قل: الله أكبر الله أكبر منك ولك.. ثم سم.. ثم انحرها.. قلت: وأقول ذلك في الأضحية؟ قال: والأضحية»[1] «ثم أمر ﷺ من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها»[2] ثم بين لأصحابه:

السماحة في مكان الذبح

فقال: «نحرت ههنا ومنى كلها منحر فانحروا في رحالكم»[3] أي اذبحوا في أماكن إقامتكم في منى دون التكلف للذهاب إلى المذبح.

أما عن الاشتراك في البقر أو الإبل فيقول جابر رضي الله عنه: «خرجنا مع رسول الله ﷺ مهلين بالحج فأمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بدنة»[4] «فنحرنا البعير عن سبعة والبقرة عن سبعة»[5]، ثم أرشدهم ﷺ إلى

التيسير في أمر لحوم الهدي

فبعد أن كانوا لا يأكلون لحوم الهدي إلا خلال ثلاثة أيام هي أيام منى سمح لهم بالأكل.. بل بالتزود من ذلك اللحم وأخذه معهم إلى

(١) سنده صحيح رواه الحاكم ٢-٤٢٢ وغيره عن الأعمش ومنصور وغيرهما عن أبي ظبيان عن ابن عباس. وأبو ظبيان تابعي كبير وثقة من رجال الشيخين: التقريب ١-١٨٢.

(٢) حديث جابر عند مسلم.

(٣) صحيح مسلم ٢-٨٩٣.

(٤) صحيح مسلم ٢-٩٥٥.

(٥) صحيح مسلم ٢-٩٥٥.

ديارهم وخلال أسفارهم.. يقول جابر: «كنا لا نمسك لحوم الأضاحي فوق ثلاث فأمرنا رسول الله ﷺ أن نتزود منها ونأكل منها يعني فوق ثلاث»[1] ويجوز لمن شاء أن يأخذ من ذلك اللحم ما شاء إذا أذن صاحبه فقد قال أحد الصحابة الذين حضروا النبي ﷺ وهو يذبح واسمه: «عبد الله بن قرط قال: قال رسول الله ﷺ: إن أعظم الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القر وهو الذي يليه.. فقدمنا إلى رسول الله ﷺ بدنات خمس أو ست فطفقن يزدلفن[2] إليه بأيتهن يبدأ فلما وجبت جنوبهم تكلم بكلمة خفية لم أفهمها فقلت للذي يليني: ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: من شاء اقتطع»[3] وقد كان ذلك السلوك الكريم من النبي ﷺ تأثراً بقوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾[4]

وأرسل النبي ﷺ إلى زوجاته بلحم بقر كان قد ذبحه عنهن.. تقول عائشة رضي الله عنها: «دخل علينا يوم النحر بلحم بقر فقلت: ما هذا؟ قال: نحر رسول الله ﷺ عن أزواجه»[5] لكن

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٥٦٢.

(٢) معجزة للنبي ﷺ وهي أن هذه الحيوانات يسرن نحوه.

(٣) سنده صحيح رواه البيهقي ٧-٢٨٨ وغيره عن ثور بن يزيد عن راشد بن سعد عن عبد الله بن لحي عن عبد الله بن قرط. وعبد الله بن لحي مخضرم ثقة: التقريب ١-٤٤٤ وتلميذه راشد بن سعد تابعي ثقة: التقريب ١-٢٤٠ وثور بن يزيد ثقة ثبت: التقريب ١-١٢١.

(٤) الحج: ٣٧.

(٥) صحيح البخاري ٢-٦١١.

ماذا عن الذي لا يستطيع النحر؟

لفقره مثلاً.. الحجاج ثلاثة أنواع: حاج مفرد نوى الحج فقط فليس عليه أن يذبح.. وحاج قارن أحضر معه هديه وانتهى أمره.. والحاج الثالث هو المتمتع وعليه ذبح هدي فإذا عجز عن الذبح لظرف من الظروف فعليه أن يصوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة أيام إذا رجع إلى بلاده لأن الله سبحانه يقول: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾(١). هذه الآيات التي تعلم بعض أحكام الحج توحي ببعض مكاسبه - ضبط النفس والتحكم في الغرائز المتوثبة والامتناع عن الانتصار لغرور الذات والتفوق الواهم.. آيات تنثر على دروب الحج عطوراً وتغمر أجواءه بنسيم بارد: حسن الخلق وحسن الجوار والإيثار.. ومن الأشياء التي تقدم للحاج المساعدة في أداء ذلك السلوك الجميل التزود بالمال والمركب والأمتعة التي تجعل الرحلة أكثر راحة والرفقة أكثر متعة.. فقد «كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ﴾»(٢) إذاً فقد أرسل عليه السلام لنسائه اللحم ثم نادى حلاقه ليقوم بــ:

---

(١) الحج ١٩٦-١٩٧.

(٢) صحيح البخاري ٢-٥٥٤.

فبعد أن «انصرف إلى البدن فنحرها والحجام جالس وقال بيده عن رأسه فحلق شقه الأيمن»(١) لقد «ناول الحالق شقه الأيمن فحلقه ثم دعا أبا طلحة الأنصاري فأعطاه إياه ثم ناوله الشق الأيسر فقال: احلق.. فحلقه.. فأعطاه أبا طلحة.. فقال: أقسمه بين الناس» وقد كان بيت أنس بن مالك أسعد الناس بشعره ﷺ.. فهو لم يعط أبا طلحة فقط.. بل أعطى زوجته أم سليم وهي أم أنس الذي يقول: «وزعه الشعرة والشعرتين بين الناس»(٢) «ثم أشار إلى الحلاق وإلى الجانب الأيسر فحلقه فأعطاه أم سليم»(٣)

ثم قال ﷺ:

«اللهم اغفر للمحلقين قالوا: يا رسول الله.. وللمقصرين

قال: اللهم اغفر للمحلقين قالوا: يا رسول الله.. وللمقصرين

قال: اللهم اغفر للمحلقين قالوا: يا رسول الله.. وللمقصرين

قال: وللمقصرين»(٤)

أما النساء فقال ﷺ: «ليس على النساء حلق إنما على النساء التقصير»(٥) ثم توجه ﷺ إلى عائشة لتطيبه وهذا يعني أنه قد أبيح له الطيب

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٤٧.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٤٧.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٤٧.

(٤) صحيح مسلم ٢-٩٤٦.

(٥) سنده صحيح رواه الدارمي ٢-٨٩ وغيره من طريق ابن جريج أخبرني عبد الحميد بن جبير عن صفية بنت شيبة قالت أخبرتني أم عثمان بنت أبي سفيان أن بن عباس مرفوعاً.. وعبد الحميد تابعي ثقة: التقريب ٢-٤٦٧ والبقية صحابة.

وانتهى من الإحرام.. تقول رضي الله عنها: «طيبت رسول الله ﷺ بيدي هاتين حين أحرم ولحله حين أحل قبل أن يطوف وبسطت يديها»[1] وتقول: «طيبت رسول الله ﷺ لحرمه حين أحرم ولحله قبل أن يفيض بأطيب ما وجدت»[2] ومعنى يفيض أي يطوف بالبيت طوافاً آخر يسمى طواف الإفاضة..

وبعد أن تطيب ﷺ:

خطب الناس يوم النحر

وخاطب فيهم إيمانهم بالله.. خاطب فيهم هذا الصفاء وهذه الأخوة الرائعة آملاً أن تستمر دون منغصات.. قال ﷺ:

«إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض.. السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات: ذو القعدة.. وذو الحجة والمحرم.. ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان..

أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم.. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: أليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى.

قال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم.. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: أليس البلدة؟ قلنا: بلى.

قال: فأي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم.. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى

قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم

(١) صحيح البخاري ٢-٦٢٤.

(٢) صحيح مسلم ٢-٨٤٧.

هذا.. في بلدكم هذا.. في شهركم هذا.. وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم.. ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض.. ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه..

ثم قال: ألا هل بلغت.. ألا هل بلغت»(١)

وبعد أن انتهى عليه السلام من خطبته سأله بعض الصحابة عن أشياء كانت الإجابة عليها كلها واحدة هي:

لا حرج

يقول عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما «إنه شهد النبي ﷺ يخطب يوم النحر فقام إليه رجل فقال: كنت أحسب أن كذا قبل كذا ثم قام آخر فقال كنت أحسب أن كذا قبل كذا»(٢)

لقد «وقف رسول الله ﷺ على راحلته فطفق ناس يسألونه فيقول القائل منهم: يا رسول الله إني لم أكن أشعر أن الرمي قبل النحر فنحرت قبل الرمي؟ قال رسول الله ﷺ: فارم ولا حرج وطفق آخر يقول: إني لم أشعر أن النحر قبل الحلق فحلقت قبل أن أنحر؟ فيقول: انحر ولا حرج.. فما سمعته يسأل يومئذ عن أمر مما ينسى المرء ويجهل من تقديم بعض الأمور قبل بعض وأشباهها إلا قال رسول الله ﷺ: افعلوا ذلك ولا حرج»(٣) ثم: توجه عليه السلام لمكة لأداء

---

(١) صحيح البخاري ٥-٢١١٠ وبعد كلمة وأموالكم قال الراوي: «قال محمد وأحسبه قال».

(٢) صحيح البخاري ٢-٦١٩.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٤٨.

طواف الإفاضة

يقول جابر رضي الله عنه: «ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت»[1].. ومعنى أفاض أي طاف طوافاً يسمى طواف الإفاضة وقد كان عليه السلام في طوافه ذلك راكباً لشدة الزحام كما تقول عائشة رضي الله عنها: «طاف النبي ﷺ في حجة الوداع حول الكعبة على بعيره يستلم الركن كراهية أن يضرب عنه الناس»[2]

أما جابر فيعتقد أن هناك سبباً آخر هو تعليم الناس المناسك.. يقول رضي الله عنه: «طاف النبي ﷺ في حجة الوداع على راحلته بالبيت وبالصفا والمروة ليراه الناس وليشرف وليسألوه فإن الناس غشوه»[3].. وهنا يتساءل المسلم كيف يستلم عليه السلام الحجر وهو راكب على بعير.. والإجابة عند ابن عباس رضي الله عنهما الذي يقول: «إن رسول الله ﷺ طاف بالبيت وهو على بعير كلما أتى على الركن أشار إليه بشيء في يده وكبر»[4] سألنا الصحابي أبا الطفيل رضي الله عنه ما هذا الشيء الذي بيده فقال:

«رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالبيت ويستلم الركن بمحجن معه ويقبل المحجن»[5] والمحجن هو العصا المعوجة الرأس ويسمى الصولجان أيضاً.. لكن ماذا عن الأشخاص ضعيفي البنية الذين لا يستطيعون الزحام وشدته.. هاهي أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها تتوجه للنبي ﷺ وهو

(١) صحيح البخاري ٢-٦١٩.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٢٧.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٢٧.

(٤) صحيح البخاري ٢-٥٨٨.

(٥) صحيح مسلم ٢-٩٢٧.

يصلي داخل المسجد لتسأله عن طوافها وضعفها وتقول: «شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي.. فقال: طوفي من وراء الناس وأنت راكبة قالت: فطفت»(١) وطافت فاطمة بنت النبي ﷺ وصفية وبقية أمهات المؤمنين حتى عائشة التي كانت سعيدة أكثر من غيرها بهذا اليوم.. فقد طهرت فيه من حيضها وأصبح بإمكانها الطواف بالبيت بعد أن أدت مع الحجيج مناسك الحج كلها عدا الطواف.. وإذا كانت عائشة قد طهرت وطافت فإن صفية قد طافت ثم أصابها الدم بعد طوافها وعن ذلك تقول عائشة رضي الله عنها «حججنا مع النبي ﷺ فأفضنا يوم النحر فحاضت صفية.. فأراد النبي ﷺ منها ما يريد الرجل من أهله فقلت: يا رسول الله.. إنها حائض قال: حابستنا هي.. قالوا: يا رسول الله.. أفاضت يوم النحر.. قال: اخرجوا»(٢)

ويعني بذلك أنها لو حاضت قبل طواف الإفاضة لوجب عليها أن لا تسافر حتى تطوف طواف الإفاضة.. لكنها إذا أدت طواف الإفاضة فعليها إكمال باقي مناسك حجها ثم السفر دون حاجة إلى طواف الوداع قبل مغادرة مكة.. أكمل النبي ﷺ طوافه وصلى ركعتي الطواف ثم قام بـ:

التوجه نحو بئر زمزم للشرب منه

يقول جابر: «فأتى بني عبد المطلب يسقون على زمزم فقال: انزعوا بني عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم.. فناولوه دلواً فشرب منه»(٣) ثم توجه عليه السلام إلى منى

(١) صحيح مسلم ٢-٩٢٧.

(٢) صحيح البخاري ٢-٦١٨.

(٣) حديث جابر عند مسلم.

العودة بعد الإفاضة إلى منى

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «إن رسول الله ﷺ أفاض يوم النحر ثم رجع فصلى الظهر بمنى»[1] «فكان ابن عمر يفيض يوم النحر ثم يرجع فيصلي الظهر بمنى ويذكر أن النبي ﷺ فعله»[2]

عاد ﷺ إلى منى ليمضي بقية أيام الحج في منى وتسمى هذه الأيام الباقية: «أيام التشريق» وهي: اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة.. وخلال تلك الأيام يجب على الحاج أن يبيت بمنى لكن يجوز له التحرك خارج منى وزيارة الكعبة لكن مبيته ونومه يجب أن يكون في منى.. وخلال تلك الأيام أيضاً يجب على الحاج أن يرمي الجمرات الثلاث يومياً كل جمرة بسبع حصيات.. ووقت الرمي يختلف عن وقت الرمي يوم النحر يقول جابر رضي الله عنه: «رمى رسول الله ﷺ الجمرة يوم النحر ضحى وأما بعد فإذا زالت الشمس»[3] أي أن رمي أيام التشريق يكون بعد تحرك الشمس من منتصف السماء نحو الغروب

سنته عليه السلام وطريقته في الرمي:

هي أنه يأتي للجمرة الأولى وهي الصغرى فيرميها بسبع حصيات يقول بعد كل رمية: الله أكبر.. فإذا انتهى من الرمي تحرك عن يمينه ثم استقبل القبلة ورفع يديه ودعا طويلاً

ثم يتحرك نحو الجمرة الوسطى ثم يرميها بسبع حصيات يكبر بعد كل

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٥٠.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٤٥.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٤٥.

حصاة.. ثم يتحرك عن يساره ويستقبل القبلة ويدعو دعاءً طويلاً رافعاً يديه.. ثم يتحرك نحو جمرة العقبة فيرميها بسبع حصيات ثم يغادرها دون أن يقف عندها..

فابن عمر رضي الله عنهما «كان يرمي الجمرة الدنيا بسبع حصيات يكبر على إثر كل حصاة ثم يتقدم حتى يسهل فيقوم مستقبل القبلة فيقوم طويلاً ويدعو ويرفع يديه ثم يرمي الوسطى ثم يأخذ ذات الشمال فيسهل ويقوم مستقبل القبلة فيقوم طويلاً ويدعو ويرفع يديه ويقوم طويلاً ثم يرمي جمرة ذات العقبة من بطن الوادي ولا يقف عندها ثم ينصرف فيقول هكذا رأيت النبي ﷺ يفعله»[1] وذلك لمدة ثلاثة أيام هي أيام التشريق.. لكن من الممكن:

الاكتفاء بالرمي يومين فقط

وذلك إذا تمكن الحاج من مغادرة حدود منى قبل أن تغرب الشمس في اليوم الثاني من أيام التشريق وهو اليوم الثاني عشر من ذي الحجة لقول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾[2] ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما: «من غربت له الشمس من أوسط أيام التشريق وهو بمنى فلا ينفرن حتى يرمي الجمار من الغد»[3] لكن

---

(١) صحيح البخاري ٢-٦٢٣.

(٢) البقرة: ٢٠٣.

(٣) سنده صحيح رواه مالك ١-٤٠٧: عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول: فنافع تابعي إمام ثقة وهو مولى ابن عمر.

النبي ﷺ سمح للمضطرين وأصحاب الأعذار في المبيت خارج منى فقد «استأذن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه رسول الله ﷺ أن يبيت بمكة ليالي منى من أجل سقايته فأذن له»[1] والسقاية هي تقديم الشراب إكراماً لضيوف بيت الله.. يقول ابن عباس رضي الله عنهما عن سقايتهم: «إن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاستسقى فقال العباس: يا فضل.. اذهب إلى أمك فأت رسول الله ﷺ بشراب من عندها.. فقال: اسقني.. قال: يا رسول الله.. إنهم يجعلون أيديهم فيه قال: اسقني فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها فقال: اعملوا فإنكم على عمل صالح.. ثم قال: لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه يعني عاتقه وأشار إلى عاتقه»[2].

وكان العباس يقدم النبيذ المباح الذي لم يتحول إلى خمر وقد انتقد أحد الأعراب بني العباس تقديمهم للنبيذ

يقول أحد الجالسين أثناء ذلك الحوار واسمه: بكر بن عبد الله المزني «كنت جالساً مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه أعرابي فقال: ما لي أرى بني عمكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ.. أمن حاجة بكم أم من بخل؟ فقال ابن عباس: الحمد لله ما بنا من حاجة ولا بخل.. قدم النبي ﷺ على راحلته وخلفه أسامة فاستسقى.. فأتيناه بإناء من نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة وقال: أحسنتم وأجملتم كذا فاصنعوا.. فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله ﷺ»[3]

---

(١) صحيح البخاري ٢-٥٨٩.

(٢) صحيح البخاري ج:٢ ص: ٥٨٩.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٥٣.

من أجل ذلك توجه العباس نحو مكة للمبيت بها من أجل السقاية.. كما أذن النبي ﷺ:

للرعاة أن يرموا بالليل

حيث «رخص للرعاء أن يرموا بالليل وأن يجمعوا الرمي»[(١)] «وقد أوضح الصحابي الذي روى هذا الحديث معنى الجمع بقوله:

«إن النبي ﷺ رخص للرعاة أن يرموا يوماً ويدعوا يوماً»[(٢)] أخبر عليه السلام أصحابه بذلك وقضى أيام التشريق بمنى ولما انتهت أيام التشريق الثلاثة توجه نحو مكة ليطوف بالكعبة طواف الوداع وبين لأصحابه أن:

طواف الوداع واجب

فقال لهم: «لا ينفرن أحد حتى يكون آخر عهده بالبيت»[(٣)]

ثم طاف النبي ﷺ طواف الوداع سبعة أشواط يفعل مثل ما كان يفعل في الطواف السابق.. وفعل الصحابة مثل ما فعل لكن:

---

(١) سنده صحيح رواه ابن خزيمة ٤-٣١٩ حدثنا سلم بن جنادة ثنا وكيع عن مالك بن أنس عن عبد الله بن أبي بكر عن أبي بداح عن أبيه أن رسول الله ﷺ.. وابن جنادة ثقة من رجال التقريب ١-٣١٣ وعبد الله بن أبي بكر بن حزم تابعي ثقة معروف: التقريب ١-٤٠٥ لكنه سمع الحديث من والده الثقة أبي بكر كما في الحديث التالي وأبو البداح تابعي ثقة: التقريب ٢-٣٩٤ ووالده عاصم بن عدي صحابي رضي الله عنه.

(٢) سنده صحيح رواه ابن خزيمة ٤-٣١٩ وغير من طريق عبد الله بن أبي بكر عن أبيه عن أبي البداح بن عدي عن أبيه أن النبي ﷺ رخص... وقد مر تخريجه في الحديث السابق.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٦٣.

ماذا عن المرأة الحائض وطواف الوداع

هل تحبس من معها حتى تطهر أم تغادر مكة معهم ولا شيء عليها.. هذه المشكلة تعرضت لها أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها.. تحكي عائشة قصتها فتقول: «إن صفية بنت حيي زوج النبي ﷺ حاضت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ.. فقال: أحابستنا هي؟ قالوا: إنها قد أفاضت قال فلا إذاً»[1] أي أنها لن تحبسكم عن الخروج فليس عليها طواف وداع ولذلك قال ﷺ لما أخبروه: «قالوا: يا رسول الله.. أفاضت يوم النحر قال: اخرجوا»[2] ويقول ابن عباس: «أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت إلا أنه خفف عن المرأة الحائض»[3] ولكن بشرط أن تكون قد طافت طواف الإفاضة.. وقبل أن يخرج النبي ﷺ حدد لأصحابه مكاناً للاجتماع قبل الانطلاق.. اسمه: (المحصب) وهو ذلك المكان الذي يحمل ذكريات مريرة جداً للنبي عليه السلام وأهله وصحابته عندما حاصرهم قريش فيه وقاطعتهم ومنعت الاتصال بهم والتعامل معهم.. قال أسامة بن زيد: «قلت: يا رسول الله.. أين تنزل غداً في حجته قال: وهل ترك لنا عقيل منزلاً؟ ثم قال نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة المحصب»[4] فيقول عليه السلام: «حين أراد أن ينفر من منى نحن نازلون غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة.. حيث تقاسموا على الكفر يعني بذلك المحصب وذلك أن قريشاً وبني كنانة.. تقاسموا على بني هاشم وبني

---

(١) صحيح البخاري ٢-٦٢٥.

(٢) صحيح البخاري ٢-٦١٨.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٦٣.

(٤) صحيح البخاري ٣-١١١٣.

المطلب أن لا يناكحوها ولا يكون بينهم شيء حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ»[1].

خرج النبي ﷺ وخرج الصحابة رضي الله عنهم ولكن قبل خروجهم طلبت عائشة من النبي عليه السلام طلباً فيه قربة إلى الله:

عائشة تريد أداء العمرة

وهي تشتكي من أن الناس سوف يرجعون إلى ديارهم وقد أدوا عمرة وحجاً أما هي فستعود وقد أدت حجة فقط.. تقول رضي الله عنها: «قدمت مكة وأنا حائض.. لم أطف بالبيت ولا بين الصفا والمروة.. فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: انقضي رأسك وامتشطي وأهلي بالحج ودعي العمرة.. قالت: ففعلت فلما قضينا الحج»[2] «قالت: يا رسول الله يرجع الناس بحجة وعمرة وأرجع بحجة»[3] «أيرجع الناس بأجرين وأرجع بأجر فأمر عبد الرحمن ابن أبي بكر أن ينطلق بها إلى التنعيم قالت: فأردفني خلفه على جمل له»[4] لكي تحرم بالعمرة من ذلك المكان الذي يسمى (التنعيم) وهو مكان خارج الحرم.. تقول رضي الله عنها: إن النبي ﷺ قال: «اذهبي مع أخيك إلى التنعيم فأهلي بعمرة ثم موعدك كذا وكذا»[5] وتقدم عائشة تفصيلات أكثر عن ذلك المكان الذي حدده النبي ﷺ ويسمى: المحصب.. تقول

(١) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم والبيهقي في الكبرى ٥-١٦٠ واللفظ له.

(٢) صحيح مسلم ٢-٨٧٠.

(٣) صحيح مسلم ٢-٨٧٣.

(٤) صحيح مسلم ٢-٨٨٠.

(٥) صحيح البخاري ٢-٥٦٦.

رضي الله عنها: «خرجت معه في النفر الآخر حتى نزل المحصب.. ونزلنا معه فدعا عبد الرحمن ابن أبي بكر.. فقال: اخرج بأختك من الحرم فلتهل بعمرة ثم افرغا ثم ائتيا هاهنا فإني أنظركما حتى تأتياني.. قالت: فخرجنا حتى إذا فرغت وفرغت من الطواف ثم جئته بسحر فقال: هل فرغتم؟ فقلت: نعم فآذن بالرحيل في أصحابه فارتحل الناس فمر متوجهاً إلى المدينة»[1] فتقول: «فلقيني النبي ﷺ وهو مصعد من مكة وأنا منهبطة عليها»[2] «فاعتمرت فقال ﷺ: هذه مكان عمرتك»[3]

ثم لحقت هي وأخوها عبد الرحمن بالنبي ﷺ.. ولما التحقت عائشة بالركب حدثت قصص طريفة بين زوجات النبي ﷺ وبينه وبينهن.. لعبت الغيرة دورها المعتاد رغم عودة الجميع من رحلة الحج الرائعة.. وتألق النبي ﷺ كعادته بسلوكه التربوي الرائع.. في طريق الأشواق إلى المدينة كان النبي عليه السلام يشعر بمعاناة و:

شكوى زوجته صفية من جملها

وقد كانت صفية قاسية على مشاعره الفياضة.. وقد استغلت صفية كون ذلك اليوم يومها كي تقطف المزيد من الحنان والدلال.. لكنها بالغت في الشكوى حتى كلفتها مبالغتها تلك متعة يومها ذلك..

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه:

«كانت صفية مع رسول الله ﷺ في سفر وكان ذلك يومها فأبطأت في المسير فاستقبلها رسول الله ﷺ وهي تبكي وتقول حملتني على بعير

(١) صحيح البخاري ٢-٥٦٥.

(٢) صحيح البخاري ٢-٥٦٦.

(٣) صحيح البخاري ٢-٥٩٠.

بطيء فجعل رسول الله ﷺ يمسح بيديه عينيها فأبت إلا بكاء [وجعلت تزداد بكاء وهو ينهاها فلما أكثرت زبرها وانتهرها وأمر الناس بالترول فترلوا ولم يكن يريد أن يترل].. فغضب رسول الله ﷺ وتركها فقدمت فأتت عائشة فقالت: يومي هذا لك من رسول الله ﷺ إن أنت أرضيتيه عني.. فعمدت عائشة إلى خمارها وكانت صبغته بورس وزعفران فنضحته بشيء من ماء ثم جاءت حتى قعدت عند رأس رسول الله ﷺ فقال لها رسول الله ﷺ: ما لك؟ فقالت: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فعرف رسول الله ﷺ الحديث فرضي عن صفية

وانطلق إلى زينب فقال لها: إن صفية قد أعيا بها بعيرها فما عليك أن تعطيها بعيرك

قالت زينب: أتعمد إلى بعيري فتعطيه اليهودية؟ فهجرها رسول الله ﷺ ثلاثة أشهر فلم يقرب بيتها.. وعطلت زينب نفسها وعطلت بيتها وعمدت إلى السرير فأسندته إلى مؤخر البيت وأيست أن يأتيها رسول الله ﷺ.. فبينا هي ذات يوم إذا رسول الله ﷺ فدخل البيت فوضع السرير موضعه فقالت زينب: يا رسول الله.. جاريتي فلانة قد طهرت من حيضتها اليوم هي لك فدخل عليها رسول الله ﷺ ورضي عنها»(١)

كان بيت النبوة بيتاً كبقية البيوت يجري فيه ما يجري في تلك البيوت

---

(١) سنده قوي رواه النسائي في السنن الكبرى ٥-٣٦٩ أخبرنا محمد بن خلف قال ثنا آدم قال نا سليمان بن المغيرة قال ثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك.. ابن خلف العسقلاني صدوق من رجال التقريب ١-١٥٨ وشيخه ابن أبي إياس العسقلاني ثقة عابد من رجال البخاري: التقريب ١-٣٠ وبقية السند صحيح على شرط مسلم. والزيادة عند أحمد ٦/٣٣٧ من طريق شميسة وهي لم توثق.

من خصومة لكن النبي ﷺ كان يقدم من خلال تلك الخلافات حلولاً لأمته دون مثالية أو إسفاف..

حفصة تسب صفية

ربما وجدت حفصة بنت عمر في أصل صفية اليهودي مكاناً جيداً للوخز والإيلام وإشباعاً لغيرتها منها.. لكن صفية وجدت الإنصاف في كلمات زوجها العذبة الحانية.. يقول أنس رضي الله عنه: «بلغ صفية أن حفصة قالت: يا بنت يهودي.. فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي.. فقال: ما يبكيك؟

فقالت: قالت حفصة إني ابنة يهودي قال النبي ﷺ: إنك لابنة نبي وإن عمك لنبي وإنك لتحت نبي فبم تفخر عليك ثم قال: اتقي الله يا حفصة»[(١)]

فأي نسب بعد هذا النسب لكنها الغيرة التي تلم بالمرأة والتي لا يجب أن تتحول إلى عداوة أو شحناء أو إضرار بالآخر.. وهو فن يجيده النبي ﷺ ويتفنن في تشكيله لنساء الأمة ورجالها.. وهن معذورات فالرجل الذي يغرن عليه ليس كبقية الرجال.. إنه محمد ﷺ الذي كانت عائشة من فرط حبا وولَهِهَا به تتحسس فراشه وهو نائم خشية أن يغادره. ذات ليلة كان نائماً معها فاستيقظت فلم تجده.. فينتابها شعور تتحدث عنه فتقول: «افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه.. فتحسست ثم رجعت فإذا هو راكع أو ساجد يقول سبحانك وبحمدك لا

---

(١) سنده صحيح رواه عبد بن حميد ١-٣٧٣ وغيره من طريق عبد الرزاق أنا معمر عن ثابت البناني عن أنس بن مالك وهو سند مشهور على شرط الشيخين.

إله إلا أنت.. فقلت: بأبي أنت وأمي إني لفي شأن وإنك لفي آخر»[1] إنه الحب الذي يذهل صاحبه ويذهل عائشة حتى كررت فعلها مرة أخرى ولكن بصورة أشد تأثراً.. تقول رضي الله عنها: «ألا أحدثكم عني وعن رسول الله ﷺ؟ قلنا: بلى.. قالت: لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي انقلب فوضع رداءه وخلع نعليه فوضعهما عند رجليه وبسط طرف إزاره على فراشه فاضطجع.. فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت فأخذ رداءه رويداً وانتعل رويداً وفتح الباب فخرج.. ثم أجافه رويداً فجعلت درعي في رأسي واختمرت وتقنعت إزاري.. ثم انطلقت على إثره حتى جاء البقيع فقام فأطال القيام.. ثم رفع يديه ثلاث مرات.. ثم انحرف فانحرفت فأسرع فأسرعت فهرول فهرولت فأحضر فأحضرت.. فسبقته فدخلت فليس إلا أن اضطجعت فدخل فقال مالك يا عائش حشياً رابية؟ قلت: لا شيء قال: لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير. قلت: يا رسول الله.. بأبي أنت وأمي.. فأخبرته.. قال: فأنت السواد الذي رأيت أمامي. قلت: نعم.. فلهدني في صدري لهدة أوجعتني ثم قال: أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله.. قالت: مهما يكتم الناس يعلمه الله نعم

قال: فإن جبريل أتاني حين رأيت فناداني فأخفاه منك فأجبته فأخفيته منك ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك وظننت أن قد رقدت فكرهت أن أوقظك وخشيت أن تستوحشي.. فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون»[2]

---

(١) صحيح مسلم ١-٣٥١.

(٢) صحيح مسلم ٢-٦٧٠.

وأنزل الله على نبيه ﷺ سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ وكان لنزول هذه السورة ظلالاً مؤثراً ووقعاً تتحدث عنها عائشة وابن عباس حديثاً مؤثراً فما هي:

آثار سورة النصر

تقول رضي الله عنه «ما رأيت النبي ﷺ منذ نزل عليه إذا جاء نصر الله والفتح يصلي صلاة إلا دعا أو قال فيها: سبحانك ربي وبحمدك اللهم اغفر لي»(١)

لم تترك هذه المرأة العظيمة هذا الأمر يمر دون استفسار فهي لا تحب رسول الله ﷺ فقط.. بل تحب سنته وتعشق التتلمذ على يديه.. فتقول «كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه فقلت: يا رسول الله.. أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه.. فقال: خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه.. فقد رأيتها إذا جاء نصر الله والفتح فتح مكة ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا»(٢)

لكن هذه العلامة فسرها ابن عباس وعمر ببيان أكثر لقد وصفوها بأنها:

---

(١) صحيح مسلم ١-٣٥١.

(٢) صحيح مسلم ١-٣٥١.

نعي مبكر

للنبي ﷺ في حوار جرى بين عمر رضي الله عنه وبين أشياخ بدر بحضور ابن عباس الذي يقول إن عمر قال: «ما تقولون في ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ حتى ختم السورة فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا.. وقال بعضهم: لا ندري أو لم يقل بعضهم شيئاً فقال لي: يابن عباس أكذاك تقول؟ قلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له إذا جاء نصر الله والفتح فتح مكة فذاك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم»[1].

إذاً فقد اقترب أجله عليه السلام ولذلك راجع معه جبريل القـــرآن مرتين هذا العام.. ومع شعور النبي ﷺ بذلك إلا أنه لم يكن ليغفل عن أمر دعوته حتى في آخر ساعاته لينشغل بنفسه.. لقد كان ينظر إلى ما بعـــد الموت فالموت مرحلة لا أكثر في حياة المسلم.. لقد استدعى ﷺ أسامة بن زيد وأمره على جيش وأمره بالتوجه نحو الشام.. ولما أحس من بعـــض الرجال نوعاً من التبرم بإمارة أسامة الأسمر: «فقالوا فيه فقال النبي ﷺ: قد بلغني أنكم قلتم في أسامة وإنه أحب الناس إلي»[2] «إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبله.. وأيم الله إن كان لخليقاً للإمرة.. وإن كان لمن أحب الناس إلي.. وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعـــده»[3] كان وداعاً لأسامة وللدنيا واقتراب الوداع مرير فهل ستحتمله القلوب..

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٦٣.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦٢٠.

(٣) صحيح البخاري ٦-٢٦٢٨.

هل سيقوى عليه قلب فاطمة وعائشة وبقية أمهات المؤمنين.. ذات يوم كانت عائشة تشتكي رأسها فقالت: «وارأساه فقال رسول الله ﷺ: ذاك لو كان وأنا حي فأستغفر لك وأدعو لك.. فقالت عائشة: واثكلياه والله إني لأظنك تحب موتي ولو كان ذاك لظللت آخر يومك معرساً ببعض أزواجك.. فقال النبي ﷺ: بل أنا وارأساه لقد هممت أو أردت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهد أن يقول القائلون أو يتمنى المتمنون ثم قلت: يأبى الله ويدفع المؤمنون»[1] «ادعي لي أبا بكر وأخاك حتى أكتب كتاباً فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل: أنا أولى ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»[2] كانت كلمات كالوداع فقد مرض بعدها النبي ﷺ مرضاً شديداً أقعده وأثقل حركته حتى عن التنقل بين أبيات زوجاته وذلك بعد عودته من دفن بعض أصحابه رضي الله عنهم.. تقول عائشة رضي الله عنها: «رجع رسول الله ﷺ من البقيع فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي وأنا أقول: وارأساه قال: بل أنا والله يا عائشة.. وارأساه ثم قال: ما ضرك لو مت قبلي فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك؟ فقلت: والله لكأني بك لو فعلت ذلك رجعت إلى بيتي فأعرست ببعض نسائك فتبسم رسول الله ﷺ وتنام به وجعه وهو يدور على نسائه حتى استعز به وهو في ميمونة فدعا نساءه فاستأذنهن أن يمرض في بيتي.. فأذنّ له فخرج رسول الله ﷺ بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر[3] تخط قدماه الأرض عاصباً رأسه حتى دخل بيتي»[4] كان مشهداً

(١) صحيح البخاري ٦-٢٦٣٨.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٨٥٧.

(٣) هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري ٢-٢٢٦-٢٢٩ واللفظ له والبيهقي في الدلائل ٧-١٦٩: حدثني يعقوب بن عتبة عن محمد بن مسلم بن شهاب الزهري عن =

يدمي القلب لمن رآه.. نبي الله لا يستطيع السير لوحده وهو الذي كـــان يقود الجموع قبل أشهر إلى تبوك ومكة.. هاهي قـــدماه تخطـــان علـــى الأرض خطوطاً وآثاراً كآثار المسافرين المغادرين بـــالقلوب والأرواح.. حيث نزل عليه الوحي في تلك الأيام يخبره أن الله يخيره بين لقائه أو البقاء حياً.. «ثم غمر رسول الله ﷺ واشتد به الوجع فقال: أهريقوا علي مـــن سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس فأعهد إلـــيهم.. قالـــت: فأقعدنا في مخضب لحفصة بنت عمر ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقـــول: حسبكم حسبكم»[1] لقد «قال بعد ما دخل بيته واشتد وجعه: هريقـــوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لَعَلِّي أعهد إلى الناس.. وأُجْلِـــسَ في مخضب لحفصة زوج النبي ﷺ ثم طفقنا نصب عليه تلك حتى طفق يشـــير إلينا أن قد فعلتن ثم خرج إلى الناس»[2] «فصـــلى بهـــم وخطبـــهم»[3] ليخبرهم بجوابه لوحي الله ويبدو أن هذه الخطبة التي ارتجلها يوم الأربعاء ستكون:

=
عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة زوج النبي ﷺ.. ويعقوب ثقة من رجال التقريب ٢-٣٧٦ والزهري رأس طبقته وشيخه تابعي ثقة فقيه ثبت من رجال الشـــيخين انظـــر التقريب ١-٥٣٥..

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري ٢-٢٢٦-٢٢٩ واللفظ له والبيهقي في الدلائل ٧-١٦٩: حدثني يعقوب بن عتبة عن محمد بن مسلم بن شهاب الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة زوج النبي ﷺ.. ويعقوب ثقة من رجال التقريب ٢-٣٧٦ والزهري رأس طبقته وشيخه تابعي ثقة فقيه ثبت من رجال الشـــيخين انظـــر التقريب ١-٥٣٥..

(٢) صحيح البخاري ١-٨٣.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٦١٤.

آخر خطبة للنبي ﷺ

يقول ابن عباس: «خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عاصباً رأسه بخرقة.. فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنه ليس من الناس أحد أمن علي في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن خلة الإسلام أفضل سدوا عني كل خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر»(١)

كان أبو بكر محوراً من محاور تلك الخطبة.. كان أكثر الناس استيعاباً لمعناها وأشد الناس تأثراً بها فقد سالت دموعه وسالت ولم تتوقف إلا بعد رجاء الحبيب محمد ﷺ الذي ناشده أن يتوقف عن البكاء.. وكيف لا يبكي أبو بكر وهو يرى نبيه وصاحبه وصديق طفولته وشبابه وشيخوخته يهم بالرحيل.. يقول أبو سعيد الخدري: «خطب النبي ﷺ فقال إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله.. فبكى أبو بكر رضي الله عنه [وبكى فقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا] فقلت في نفسي: ما يبكي هذا الشيخ إن يكن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله.. فكان رسول الله ﷺ هو العبد وكان أبو بكر أعلمنا.. قال: يا أبا بكر.. لا تبك إن أمن الناس علي في صحبته وماله أبو بكر ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام ومودته.. لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر»(٢)

وقد جلس على المنبر لشدة المرض وكان «عليه ملحفة متعطفاً بها على منكبيه وعليه عصابة دسماء حتى جلس على المنبر فحمد الله وأثنى

---

(١) صحيح البخاري ١-١٧٨.

(٢) صحيح البخاري ١-١٧٧ والزيادة عند مسلم ٤-١٨٥٤.

عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام فمن ولي منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم»[١] كان ﷺ يخطب رأفة ورحمة بأمته من أن تمزقها الخلافات بعد رحيله.. بعد هذا الحب الغامر والأخوة الحانية.. بعد هذه الفتوحات وعلو التوحيد وأهله ونظافة الجزيرة من الأصنام والأوثان والجاهلية.. كان يخطب امتناناً لمن آزره وعاضده في مسيره الطويل المضني.. كان يخطب مؤكداً أن العواطف نحوه ستتأجج وتجمح بعد رحيله ولا بد للعواطف من سياج وإلا كبحت بأهلها وساقتهم بعيداً عن التوحيد والهدى.. يقول أحد الصحابة

«سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل فإن الله تعالى قد اتخذني خليلاً.. كما اتخذ إبراهيم خليلاً ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً.. ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك»[٢]

ثم نهض ﷺ نحو بيت عائشة الملاصق للمسجد ليمكث فيه ما تبقى من عمره.. وكان الصحابة رضي الله عنهم يقومون بعيادته والاطمئنان على حاله.. أحدهم عبد الله بن مسعود الذي يقول: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك فقلت: يا رسول الله.. إنك لتوعك وعكاً شديداً قال: أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم.. قلت: ذلك بأن لك أجرين قال: أجل ذلك كذلك.. ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا

(١) صحيح البخاري ٣-١٣٨٣.

(٢) صحيح مسلم ١-٣٧٧.

كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها»[1].. خرج ابن مسعود وجاء غيره بينما كان النبي ﷺ يعاني الألم والمعانة حتى أغمي عليه فاقترح عمه العباس أن يقدم له علاجاً يسمونه: (اللد) واللد هو أن يسقى المريض دواءاً من أحد شقي الفم مما جعل النبي ﷺ يعاقب من قام بذلك بعقاب ظريف بعد أن أفاق.. تقول عائشة: «ثم نزل رسول الله ﷺ فدخل بيته وتتام به وجعه حتى غمر.. واجتمع عنده نساء من نسائه أم سلمة وميمونة ونساء من نساء المؤمنين منهم أسماء بنت عميس وعنده عمه العباس بن عبد المطلب.. وأجمعوا على أن يلدوه فقال العباس: لألدنه.. فلد فلما أفاق رسول الله ﷺ قال: من صنع بي هذا؟ قالوا: يا رسول الله.. عمك العباس قال: هذا دواء أتى به نساء من نحو هذه الأرض وأشار نحو أرض الحبشة قال ولم فعلتم ذلك؟ فقال العباس: خشينا يا رسول الله أن يكون بك وجع ذات الجنب.. فقال: إذن ذلك لداء ما كان الله ليعذبني به لا يبقى في البيت أحد إلا لد إلا عمي.. فلقد لدت ميمونة وإنها لصائمة لقسم رسول الله ﷺ عقوبة لهم بما صنعوا»[2]

كان ﷺ يذكر لعائشة شيئاً محدداً من الألم كان يشعر بـ:

آلام سم اليهودية

يخاطبها وهي تمرضه فيقول: «يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر.. فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم»[3] أي انقطاع عرقي من أثر ذلك السم..

(١) صحيح البخاري ٥-٢١٣٩.

(٢) جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٦١١.

وجاء يوم الخميس

يقول ابن عباس «يوم الخميس وما يوم الخميس ثم بكى حتى خضب دمعه الحصباء فقال: اشتد برسول الله ﷺ وجعه يوم الخميس فقال: ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع [فقال عمر إن رسول الله ﷺ قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله فاختلف أهل البيت فاختصموا فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ كتاباً لن تضلوا بعده ومنهم من يقول ما قال عمر فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ قوموا] فقالوا هجر رسول الله ﷺ قال: دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه وأوصى عند موته بثلاث:

أخرجوا المشركين من جزيرة العرب

وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم ونسيت الثالثة»[(١)]

كان ذلك الكتاب يحمل نوعاً من اجتهاد النبي ﷺ الذي لم يترل به وحي وإلا لو كان وحياً لوجب عليه تبليغه كبقية رسالته لأن الله يقول له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[(٢)].

إذاً فعدم تبليغ جزء من الوحي يعتبر عند الله عدم تبليغ للرسالة.. وهو أمر لا يمكن التخلي عنه مهما كان السبب أما هذا الكتاب الذي كان النبي ﷺ ينوي كتابته فقد تراجع عنه لأنه محض اجتهاد حرصاً منه

(١) صحيح البخاري ٣-١١١١ والزيادة عند مسلم ٣-١٢٥٩.

(٢) المائدة: ٦٧.

على اجتماع أمته.. فاكتفى ﷺ بتلك الوصايا الثلاث.. ولم تكن هي الوصايا الوحيدة فقد كان يوصي كل من يدخل عليه بوصية كهذه الوصية التي تقرب الإنسان إلى ربه وتقربه إلى الإنسان أيضاً والتي تفيض راحة ورحمة لمن يمتثل لها.. تقول أم المؤمنين هند أم سلمة رضي الله عنها: «كان عامة وصية نبي الله ﷺ عند موته الصلاة.. الصلاة.. وما ملكت أيمانكم حتى جعل نبي الله ﷺ يلجلجها في صدره وما يفيض بها لسانه»[1] من حرصه على الأخذ بهما.. كان النبي ﷺ في يوم الخميس هذا يصلي بالناس وهو جالس ولما حانت صلاة المغرب حمل عليه السلام ليصلي بالمؤمنين فصلى بهم وقرأ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ...﴾ كان الرجال والنساء ينصتون إلى ذلك الصوت الخاشع الذي أنهكه المرض.. تقول إحدى النساء اللواتي كن خلف تلك التلاوة وخلف ذلك الإمام وهي أم الفضل زوجة العباس رضي الله عنهما «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفاً ثم ما صلى لنا بعدها حتى قبضه الله»[2] فقد صلى ثم أخذ إلى بيت عائشة حيث كان يتنفل جالساً.. ولما حانت صلاة العشاء.. وحاول عليه السلام جاهداً النهوض فلم يستطع.. حاول مرة ومرتين لكن

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٦-٣١٥ وغيره من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال حدث سفينة مولى أم سلمة عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنه... وسفينة صحابي والبقية أئمة ثقات معروفون وسعيد من أثبت الناس في قتادة وللحديث شاهد عن علي وآخر مضطرب عن أنس.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦١١.

جسده لم يساعده فقد أقعده الألم وأمسى يعاني من الإغماء تلو الإغماء.. بينما كان الشوق يفتك بالصحابة ينتظرون خروجه بلهفة وحزن عظيمين.. لكنه لم يخرج ولم يستطع النهوض من مكانه.. كانت عائشة رضي الله عنها تعاني معه وتحكي معاناته عليه الصلاة والسلام فتقول: «ثقل النبي ﷺ فقال: أصلى الناس؟ قلنا: لا.. هم ينتظرونك. قال: ضعوا لي ماء في المخضب.. ففعلنا فاغتسل فذهب لينوء فأغمي عليه.. ثم أفاق فقال ﷺ: أصلى الناس؟ قلنا: لا.. هم ينتظرونك يا رسول الله.. قال: ضعوا لي ماء في المخضب.. فقعد فاغتسل.. ثم ذهب لينوء فأغمي عليه.. ثم أفاق فقال: أصلى الناس؟ قلنا: لا.. هم ينتظرونك يا رسول الله.. فقال: ضعوا لي ماء في المخضب.. فقعد فاغتسل.. ثم ذهب لينوء.. فأغمي عليه.. ثم أفاق فقال: أصلى الناس؟ فقلنا: لا.. هم ينتظرونك يا رسول الله.. والناس عكوف في المسجد ينتظرون النبي عليه الصلاة والسلام لصلاة العشاء الآخرة.

فأرسل النبي ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس»[1] وعندما سمعت عائشة اسم أبيها على لسان النبي ﷺ وهو يجعله أحق الصحابة بالصلاة وإمامة المؤمنين خشيت على أبيها من التشاؤم الذي لا مبرر له إلا في حزن عائشة المشفقة على أبيها الحزينة على زوجها فقالت للنبي عليه السلام: «إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ غلبه البكاء [إنه رجل رقيق إذا قام مقامك لم يستطيع أن يصلي بالناس] فقال: مروه فيصلي فعاودته قال: مروه فيصلي إنكن صواحب يوسف [فقلت لحفصة قولي له: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء فَمُرْ عمر فليصل للناس..

(١) صحيح البخاري ج: ١ ص: ٢٤٣.

ففعلت حفصة.. فقال رسول الله ﷺ: مه إنكن لأنتن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل للناس.. فقالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب منك خيراً]»[1] فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس فقال أبو بكر وكان رجلاً رقيقاً: يا عمر.. صل بالناس.. فقال له عمر: أنت أحق بذلك.. فصلى أبو بكر»[2]

كانت ليلة ثقيلة على سماء المدينة وأهلها.. ليلة تخنق صدورهم بالهموم والتفكير بنبيهم لكن لعل هذا الفجر يحمل فرجاً..

وجاء الفجر فلم يستطع النبي ﷺ النهوض فصلى أبو بكر رضي الله عنه فجر الجمعة بالمؤمنين وحان وقت صلاة الجمعة فجاء المؤمنون من كل المدينة.. وعاد أسامة بن زيد وكانت:

عودة أسامة بن زيد

ومن معه من الجيش إلى المدينة تعني تأجيل السفر فلعلهم يحظون بخطبة النبي ﷺ والصلاة خلفه.. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث وخرج أبو بكر رضي الله عنه وسلم على المصلين وارتقى درجات المنبر وخطب الناس.. فلا أدري أي شعور كان يخالج الناس ويخالج أبا بكر وهم يعلمون أن نبيهم طريح الفراش خلف تلك الستارة الصغيرة لا يستطيع الحراك مما به من الألم.. لا بد أن دموعاً غزيرة سالت وشهقات علت ونحيباً طال من الرجال والنساء جميعاً.. ودخل أسامة رضي الله عنه على النبي ﷺ يعوده فكانت هذه القصة التي يرويها أسامة بنفسه فيقول:

---

(١) صحيح البخاري ١-٢٤١ والزيادة له ١-٢٤٠ و١-٢٤٠.

(٢) صحيح البخاري ج: ١ ص: ٢٤٣.

«لما ثقل رسول الله ﷺ هبطت وهبط الناس معي إلى المدينة.. فدخلت على رسول الله ﷺ وقد أصمت فلا يتكلم فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها علي فعرفت أنه يدعو لي»(١)

ومضى يوم الجمعة كاملاً والنبي عليه السلام على فراشه لم يخرج.. وجاء يوم السبت فصلى أبو بكر الفجر والظهر فكانت المفاجأة عندما رأى المصلون

النبي ﷺ يخرج للصلاة

وذلك بعد أن أذن بلال رضي الله عنه وأقام الصلاة فتقدم أبو بكر للصلاة وكبر وأمهم وأثناء الصلاة خرج علي بن أبي طالب والعباس رضي الله عنهما يحملانه عليه السلام من غرفة عائشة التي تقول: «إن النبي ﷺ وجد من نفسه خفة فخرج بني رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر وأبو بكر يصلي بالناس فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر.. فأومأ إليه النبي ﷺ بأن لا يتأخر قال: أجلساني إلى جنبه فأجلساه إلى جنب أبي بكر.. فجعل أبو بكر يصلي وهو يأتم بصلاة النبي ﷺ والناس بصلاة أبي بكر والنبي ﷺ»(٢) فتحول المسجد إلى ساحة من البهجة والسعادة التي لم تدم فقد أدخل عليه الصلاة والسلام إلى بيت عائشة من جديد يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ صلى خلف أبي بكر في ثوب واحد برد مخالفاً بين طرفيه فلما أراد أن يقوم قال: ادع لي أسامة بن زيد

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق السيرة النبوية ٦-٦٧ حدثني سعيد بن عبيد بن السباق عن محمد بن أسامة عن أبيه أسامة بن زيد وسعيد ومحمد بن أسامة تابعيان ثقتان من رجال: التقريب ١-٣٠١ و٢-١٤٣.

(٢) صحيح البخاري ١-٢٤٣.

فجاء فأسند ظهره إلى نحره»[1] حيث تفاقم عليه المرض.. وكانت فاطمة عليها السلام وأمهات المؤمنين لا يتوقفن عن زيارته بينما كان الألم لا يتوقف عنه.. وبعد أن خرج أسامة والعباس وعلي رضي الله عنهم رأى العباس بفراسته تقاسيم الموت في وجه النبي ﷺ.. ولما خرجا من عنده «قال الناس: يا أبا الحسن.. كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئاً.. فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا.. إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت.. اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر.. إن كان فينا علمنا ذلك وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا.. فقال علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده.. وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ»[2] كان العباس يريد معرفة من يخلف النبي ﷺ لكن علياً كان أبعد نظراً لأن الخلافة ليست منحة منه عليه الصلاة والسلام: وقد تحدث عليه الصلاة والسلام بكلام خطير ودقيق وهام عن الخلافة وعن الصفات التي لا بد أن تتوفر في الخلفاء.. وما يحل للخليفة وما لا يحل وعن أنه لا يعطي الإمارة من سألها وأشياء كثيرة.. بينما لم يتحدث عن شخص بعينه يجب أن يتولى من بعده مما يعني أنه سيترك للمؤمنين أمر انتخاب الأصلح لهم ولها.. والصحابة بشر لهم وجهات نظر مختلفة وآراء مختلفة ومواهب مختلفة ومزايا مختلفة ولا يمكن أن يجمعوا على شخص بعينه.. لكن هناك

---

(١) سنده صحيح رواه البيهقي في الدلائل ٧-١٩٢ من طريق سعيد بن أبي مريم أخبرنا يحيى ابن أيوب حدثنا حميد الطويل عن ثابت عن أنس وهذا السند على شرط البخاري وقد رواه كثيراً انظر مثلاً صحيح البخاري (١-١٥٧ و١-٢٠٩).

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦١٥.

ميزات إذا جمعت برز صاحبها كما برز أبو بكر الذي عينه عليه السلام للصلاة دون أن يسعى للإمامة أو يقدم طلباً لها.. النبي ﷺ هو الذي اختاره وعينه رغم رفضه لها في البداية.. وبعيداً عن ذلك وبينما كان عليه السلام تبرحه الآلام وتزداد به الأوجاع وتنشغل بجسده كان مشغولاً بأمته خائفاً عليها أن تضل كما ضلت اليهود والنصارى.. تقول عائشة وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما «لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه.. قال -وهو كذلك-: لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا»[1] فبعد وفاة أي نبي تزداد العاطفة وتجيش المشاعر فتطيش بدعاً وخرافات ومزارات وزخارف.. حتى يتحول من مجرد قبر إلى وثن يطاف به ويتمسح ويستقبل وتشد الرحال إليه ويذبح عنده وتحيط به السرج والشموع والمصابيح ويطلى بالذهب ويرصع بالجواهر.. وفي النهاية ينصرف الناس عن الخالق ليتعلقوا بمخلوق لا يملك من أمره شيئاً إلا ما وهبه الخالق سبحانه وحباه به.. عندها ينهدم ما بناه النبي ﷺ خلال أكثر من عشرين عاماً ويعود الشرك من جديد لكن بدلاً من عبادة الصنم الذي على شكل صورة يصبح وثناً على شكل قبر.. كان عليه السلام يخشى ذلك ويحذر منه رغم ما هو فيه من المعاناة والحمى التي يزداد اشتعالها داخل جسده الشريف مما أعجزه عن الخروج للمسجد.. حيث صلى أبو بكر في الناس العصر والمغرب والعشاء والفجر والناس يترددون على المسجد وفي الطرقات وفي الأسواق فلا يرون فيها حبيبهم ونبيهم فيها فيزداد شوقهم وحزنهم حتى:

---

(١) صحيح البخاري ١-١٦٨.

جاء يوم الأحد

وتوالى الزائرون من أهل بيته وغيرهم.. كانت فاطمة عليها السلام في طريقها إلى هناك تنظر إلى هذا الأب الحاني فتبكي وتتأثر لما هو فيه من الكرب فيناديها ليخفف ما بها من حزن فيهمس في أذنها فتبكي ثم يهمس مرة أخرى فتبتسم ابتسامة تسرها وتحزن أحبابها.. كانت عائشة رضي الله عنها ترى ذلك المشهد الحزين وتقول: «أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشي النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: مرحباً بابنتي.. ثم أجلسها عن يمينه.. أو عن شماله.. ثم أسر إليها حديثاً فبكت.. فقلت لها: لم تبكين؟ ثم أسر إليها حديثاً فضحكت.. فقلت: ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن.. فسألتها عما قال فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ حتى قبض النبي ﷺ.. فسألتها.. فقالت أسر إلي إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة وإنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلي وإنك أول أهل بيتي لحاقاً بي فبكيت فقال أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين فضحكت لذلك»[(١)] امتزجت لدى فاطمة مشاعر الحزن بالسرور وأقبل الليل وازداد الحزن بالمدينة وعادت الآلام إلى أبيها من جديد و«لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه فقالت فاطمة عليها السلام: واكرباه.. فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم»[(٢)]

ودخل فجر يوم الإثنين

وصلى أبو بكر بالمؤمنين الفجر فحدث شيء مفرح كاد معه المصلون أن يفتنوا في صلاتهم.. فبينما كان أبو بكر خاشعاً في صلاته ارتفع الستر

(١) صحيح البخاري ج: ٣ ص: ١٣٢٦.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦١٩.

الذي على يساره وهو ستر بيت ابنته عائشة فأطل الحبيب منها وهو يبتسم..

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «إن أبا بكر كان يصلي لهم في وجع النبي ﷺ الذي توفي فيه حتى إذا كان يوم الإثنين وهم صفوف في الصلاة.. فكشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف.. ثم تبسم يضحك فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ.. فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف.. وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتموا صلاتكم.. [فقال أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له.. ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً.. فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل.. وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقَمِنٌ أن يستجاب لكم]وأرخى الستر»[1] وعاد إلى فراشه وصلى الفجر ثم ضعف ضعف:

الموت

الذي لا ينتظر أحداً من البشر حتى الأنبياء منهم.. وفي لحظات الكرب وشدة سكرات الموت كانت فاطمة تشاهد حركة أبيها من شدة الألم وذلك «لما ثقل رسول الله ﷺ جعل يبسط رجلاً ويقبض أخرى ويبسط يداً ويقبض أخرى قالت فاطمة يا كرباه لكربك يا أبتاه... قال رسول الله ﷺ: أي بنية لا كرب على أبيك بعد اليوم»[2] ثم رفع طرفه إلى

(١) صحيح البخاري ١-٢٤٠ والزيادة عند مسلم ١-٣٤٨.

(٢) سنده صحيح رواه أبو يعلى ٦-١١١ حدثنا القواريري حدثنا حماد بن زيد حدثنا ثابت البناني عن أنس قال.. والقواريري هو الثقة الثبت العالم عبيد الله بن عمر من رجال =

السماء وكأنه يرى مترله من الجنة.. تقول عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ يقول وهو صحيح: إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير.. فلما نزل به ورأسه على فخذي غشي عليه.. ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال: اللهم الرفيق الأعلى، فقلت: إذاً لا يختارنا.. وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا»(١). وتقول رضوان الله عليها: «كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى منا إنسان مسحه بيمينه ثم قال: أذهب البأس رب الناس واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً.. فلما مرض رسول الله ﷺ وثقل أخذت بيده لأصنع به نحو ما كان يصنع فانتزع يده من يدي.. ثم قال: اللهم اغفر لي واجعلني مع الرفيق الأعلى»(٢) «وأخذته بحة وهو يقول مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.. قالت: فظننته خير حينئذ»(٣) وهنا دخل عبد الرحمن بن أبي بكر أخو عائشة وفي يده سواك فكان النبي ﷺ ينظر إلى السواك في يده «دخل عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه سواك يستن به فنظر إليه رسول الله ﷺ [وعرفت أنه يحب السواك فقلت: آخذه لك فأشار برأسه أن نعم.. فتناولته.. فاشتد عليه.. وقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه أن نعم](٤) فقلت له: أعطني هذا السواك يا عبد الرحمن.. فأعطانيه فقضمته.. ثم مضغته»(٥) «ونفضته وطيبته ثم دفعته

الشيخين: التقريب ١-٥٣٧ وشيخه ثقة ثبت فقيه: التقريب ١-١٩٧ وثابت تابعي ثقة معروف.

(١) صحيح البخاري ٤-١٦٢٠.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٧٢١.

(٣) صحيح مسلم ٤-١٨٩٣. وكلمة (هو) ليست في النص.

(٤) صحيح البخاري ٤-١٦١٦ وجاء بعد كلمة (علبة) يشك عمر.

(٥) صحيح البخاري ٤-١٦١٧.

إلى النبي ﷺ فاستن به فما رأيت رسول الله ﷺ استن استناناً قط أحسن منه [وبين يديه ركوة أو علبة فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه يقول لا إله إلا الله إن للموت سكرات][1].

فما عدا أن فرغ رسول الله ﷺ رفع يده أو إصبعه ثم قال:

في الرفيق الأعلى

في الرفيق الأعلى

في الرفيق الأعلى

ثم قضى»[2] «ومالت يده»[3] «فمات في اليوم الذي كان يدور علي فيه في بيتي فقبضه الله وإن رأسه لبين نحري وسحري وخالط ريقه ريقي»[4] «في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة»[5] «فلما خرجتْ نفسه لم أجد ريحاً قط أطيب منها»[6].. عندها بكت فاطمة والدها بحرقة بكته بقلبها ودمعها وقالت:

«يا أبتاه أجاب رباً دعاه

يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه

يا أبتاه إلى جبريل ننعاه»[7] أما عائشة الشابة الثكلى فقد ذهلت

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١٦ وجاء بعد كلمة (علبة) يشك عمر.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦١٣.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٦١٦.

(٤) صحيح البخاري ٤-١٦١٧.

(٥) صحيح البخاري ٤-١٦١٧.

(٦) سنده صحيح رواه أحمد ٦-١٢١ ثنا همام قال أنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت.

(٧) صحيح البخاري ٤-١٦١٩.

وتحدثت عن ذهولها فقالت: «مات رسول الله ﷺ بين سحري ونحري وفي بيت لم أظلم فيه أحداً فمن سفهي وحداثة سني أن رسول الله ﷺ قبض وهو في حجري.. ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألدم مع النساء وأضرب وجهي»[1] ..بكت أمهات المؤمنين وبكت النساء وبكى الرجال ولم يبك عمر بن الخطاب بل قام يخطب غاضباً فيمن حوله ومهدداً من يقول أن رسول الله ﷺ قد مات.. فطلبوا من رجل من أهل الصفة اسمه سالم بن عبيد أن ينادي أبا بكر فقد اشتد غضب عمر حتى لقد قال من شدة الصدمة «لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا. فسكتوا وكانوا قوماً أميين لم يكن فيهم نبي قبله.. قالوا: يا سالم.. اذهب إلى صاحب النبي ﷺ فادعه قال سالم: فخرجت فوجدت أبا بكر قائماً في المسجد قال أبو بكر: مات رسول الله ﷺ.. قلت: إن عمر يقول لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا.. فوضع يده على ساعدي ثم أقبل يمشي حتى دخل.. فوسعوا له حتى أتى النبي ﷺ فأكب عليه حتى كاد أن يمس وجهه وجه النبي ﷺ حتى استبان له أنه قد مات.. فقال أبو بكر: إنك ميت وإنهم ميتون»[2]. وصل أبو بكر من بيته الذي يقع في مكان شرقي المدينة يقال له: (السنح).. «أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو يعلى ٨-٦٣ والبيهقي في الدلائل ٧-٢١٣ حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد قال سمعت عائشة تقول... ويحيى ووالده ثقتان وقد مر معنا هذا الإسناد كثيراً.

(٢) سنده صحيح رواه النسائي في السنن الكبرى ٤-٢٦٣ أنبأ قتيبة بن سعيد قال حدثنا حميد ابن عبد الرحمن عن سلمة بن نبيط عن نعيم عن نبيط عن سالم بن عبيد.. ونبيط بن شريط صحابي صغير ونعيم تابعي ثقة: التقريب ٢-٣٠٦ وهو ابن أبي هند وتلميذه ثقة من صغار التابعين: التقريب ١-٣١٩ وحميد الرواسي ثقة من رجال الشيخين: التقريب ١-٢٠٣ وقتيبة ثقة ثبت من رجال الشيخين: التقريب ٢-١٢٣.

فدخل المسجد.. فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة.. فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى.. ثم قال: بأبي أنت وأمي.. والله لا يجمع الله عليك موتتين أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها»[1] ثم:

خرج أبو بكر في وقت أبي بكر

خرج إلى هذه الجموع المفجوعة بنبيها فشاهد عمر يهدد من يقول أنه مات ويهدد المنافقين بأن النبي ﷺ سوف يعود ليمزقهم فرجع بعضهم عن النفاق.. لكن كلمات عمر كانت كلمات مفجوع مصدوم لا يدري ما يخرج من رأسه.. كان ظرفاً ليس له سوى أقرب الناس من النبي ﷺ وأكثرهم صحبة له.. خرج أبو بكر بهدوئه المعروف ليزيل عن العقول كلمات عمر وتخاريف الفاجعة.. أخذ الأمة مما هي فيه إلى كتاب الله فأفاقت العقول ورضيت بقضاء الله.. لم ينههم عن الحزن والبكاء ولكن نهاهم عن الاستسلام للعواطف والانجراف في تيارها فيهلكون كما هلكت الأمم السابقة.. فما هي

خطبة عمر

تقول عائشة: «فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ .. وليبعثنه الله.. فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم.. فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبله قال: بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً.. والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبداً.. ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك [خرج وعمر رضي الله عنه يكلم الناس فقال: اجلس.. فأبى..

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١٨.

فقال: اجلس.. فأبى.. فتشهد أبو بكر رضي الله عنه.. فمال إليه الناس وتركوا عمر][1] فلما تكلم أبو بكر جلس عمر فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال ألا من كان يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات.. ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.. وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ﴾ فنشج الناس يبكون»[2] بكاء المفجوع الذي أدرك الحقيقة وأفاق مما هو فيه من صدمة.. كان ابن عباس هناك وقد وصف حال الصحابة بعد خطبة أبي بكر فقال: «والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها من الناس كلهم فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها»[3] كان أبو بكر رضي الله عنه رجل المهمات الصعبة والأزمات.. أعاد الأمة إلى صوابها وقال لها في غياب نبيها المفجع: إن هذا النبي الحبيب مازال بشراً.. وأن الغلو فيه ليس من صفات المؤمنين.. فلم يبق سوى الصلاة عليه واتباع رسالته والمشي على خطاه.. وما عدا ذلك فهو من الغلو الذي قال عنه النبي ﷺ وهو حي: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله»[4]

أما عمر رضي الله عنه فكان أكثر المتأثرين بتلك الآيات وبخطبة أبي بكر لدرجة أنه سقط على الأرض من شدة التأثر..

يقول رضي الله عنه: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها

(١) صحيح البخاري ١-٤١٩.
(٢) صحيح البخاري ٣-١٣٤١.
(٣) صحيح البخاري ج: ٤ ص: ١٦١٨.
(٤) صحيح البخاري ٣-١٢٧١.

فعقرت حتى ما تقلني رجلاي وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها علمت أن النبي ﷺ قد مات»[1]

كانت تلك اللحظات شديدة الدقة والخطورة فقد فارق النبي ﷺ الدنيا وهي مصيبة ما بعدها مصيبة.. كما كان هناك أيضاً الفراغ الرهيب الذي تركه من بعده حيث إن الأمة اليوم دون قائد يرأسها.. وهذا الفراغ يكون أكثر خطورة على الأمة إذا كان الراحل قائداً عظيماً.. فكيف إذا كان الراحل اليوم ليس مجرد قائد عظيم فحسب بل نبي يأتيه الوحي من السماء وتحمله الأمة كلها في قلوبها..

شعر بعض رجالات الأنصار بهذا الفراغ فرشحوا سعد بن عبادة لخلافة النبي ﷺ.. بينما توجه علي بن أبي طالب والزبير بن العوام حزينين إلى بيت فاطمة في الوقت الذي كان فيه أبو بكر مشغولاً بالأمة والأمة مشغولة بحزنها على نبيها.. لكن أبا بكر يتجدد عظمة في مثل هذه الظروف الحرجة.. فقد انطلق إلى حيث أخوانه الأنصار المجتمعين بعد أن سمع باجتماعهم خشية أن تفترق الأمة بعد توحيدها.. أو أن تقع فتنة بين الأنصار والمهاجرين الذين التفوا حول أبي بكر رضي الله عنهم جميعاً.. ولما وصل أبو بكر وجدهم قد التفوا حول رجل مريض وقد غطوه.. كان ذلك الرجل هو الصحابي الجليل سعد بن عبادة وهم يريدون مبايعته بالخلافة.. لكن عمر بن الخطاب كان له رأي آخر في ذلك المكان الذي اجتمع فيه الأنصار والمهاجرون والمسمى بـ:

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١٨.

سقيفة بني ساعدة

دعونا نتجه إلى سقيفة بني ساعدة والذي سيأخذنا إلى هناك شاب من أهل بيت النبي ﷺ هو عبد الله بن عباس الذي يقول إن عمر بن الخطاب قال:

«كان من خبرنا حين توفى الله نبيه ﷺ أن الأنصار خالفونا واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة وخالف عنا علي والزبير ومن معهما.. واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر فقلت لأبي بكر: يا أبا بكر.. انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار [فاجتمع المهاجرون يتشاورون فبينا هم كذلك يتشاورن إذ قالوا: فانطلقوا بنا إلى إخواننا من الأنصار فإن لهم في هذا الحق نصيباً] فانطلقنا نريدهم فلما دنونا منهم لقينا منهم رجلان صالحان.. فذكرا ما تمالأ عليه القوم فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم اقضوا أمركم

فقلت: والله لنأتينهم فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة فإذا رجل مزمل بين ظهرانيهم فقلت: من هذا؟

فقالوا: هذا سعد بن عبادة.. فقلت: ما له؟ قالوا: يوعك.. فلما جلسنا قليلاً تشهد خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله.. ثم قال: أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام.. وأنتم معشر المهاجرين رهط وقد دفت دافة من قومكم فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا وأن يحضنونا من الأمر.. فلما سكت أردت أن أتكلم وكنت قد زورت مقالة أعجبتني أردت أن أقدمها بين يدي أبي بكر.. وكنت أداري منه بعض الحد.. فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر على رسلك: فكرهت أن أغضبه.. فتكلم

أبو بكر فكان هو أحلم مني وأوقر.. والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بديهته مثلها أو أفضل منها حتى سكت.. فقال: ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل.. ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش هم أوسط العرب نسباً وداراً.. وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم.. فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا.. فلم أكره مما قال غيرها كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من إثم أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر.. اللهم إلا أن تسول لي نفسي عند الموت شيئاً لا أجده الآن.. فقال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش.. فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى فرقت من الاختلاف.. [قالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير.. فأتاهم عمر رضي الله عنه فقال: [سيفان في غمد واحد إذاً لا يصطلحا].. يا معشر الأنصار.. ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر رضي الله عنه أن يؤم الناس فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر رضي الله عنه.. فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر رضي الله عنه][1]. [قلت: يا معشر الأنصار.. يا معشر المسلمين.. إن أولى الناس بأمر نبي الله ﷺ ثاني اثنين إذ هما في الغار أبو بكر السباق المتين.. [من هذا الذي له هذه الثلاث؟ إذ هما في الغار من هما.. إذ يقول لصاحبه من صاحبه لا تحزن إن الله معنا مع من هو؟ فبسط عمر يد أبي بكر رضي الله عنهما فقال: بايعوه فبايع الناس أحسن بيعة وأجملها].. ثم أخذت بيده وبدرني رجل من الأنصار فضرب

---

(١) سند الزيادة حسن رواه أحمد ١-٢١ وغيره من طرق عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود وعاصم بن أبي النجود إمام القراء حسن الحديث من رجال الشيخين التقريب ١-٣٨٣ والمعقوفان داخله من حديث سالم بن عبيد السابق.

على يده قبل أن أضرب على يده][1] فقلت: أبسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعته.. وبايعه المهاجرون.. ثم بايعته الأنصار ونزونا على سعد بن عبادة.. فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة.. فقلت: قتل الله سعد بن عبادة.. قال عمر: وإنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلاً منهم بعدنا.. فإما بايعناهم على ما لا نرضى وإما نخالفهم فيكون فساد فمن بايع رجلاً على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذي بايعه »[2]

كل هذه الأحداث جرت بسرعة كبيرة خلال يوم الاثنين الذي مر بحزن وسلام.. فقد أصبح للدولة الإسلامية قائد جديد وللمسلمين إمام كفوء لقيادتها.. تقبل الأنصار قيادة أبي بكر المهاجر إلى أرضهم لأنهم رجال تثقفوا بالكتاب والسنة وآمنوا بالله ورسوله.. ورضوا أن يؤمهم رجل ارتضاه لهم النبي ﷺ وهو حي بين أظهرهم فيكف لا يرضونه بعد مماته.. وهم الذين ما كانوا ليقبلوا رجلاً من غيرهم لو لم يتشبعوا بالتربية الإسلامية العظيمة.. بل ما كان الأوس ليقبلوا عليهم زعيماً من الخزرج ولن يرضى الخزرج أن يتأمر عليهم زعيم من الأوس لو كانوا لا يزالون على ثقافتهم الخشبية.. ثقافة الأصنام التي أزاحها الإسلام عن قلوبهم وعقولهم إلى غير رجعة.. أما أبو بكر فلم يشغله حزنه على نبيه عن مسؤوليته الضخمة تجاه أمته.. فهذا الرجل العظيم هو الذي أعاد

---

(١) سند الزيادة صحيح رواها ابن إسحاق ومن طريق الضياء في المختارة ١-٢٨٨ حدثني عبد الله بن أبي بكر عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن عمر قال وهو سند صحيح فعبد الله بن حزم الأنصاري تابعي صغير وثقة من رجال الشيخين: التقريب ١-٤٠٥ وبقية السند سند البخاري والمعقوفان داخله من حديث سالم بن عبيد السابق.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٥٠٦.

للمفجوعين رشدهم.. وهو الذي ساقته طول صحبته لنبيه عليه السلام إلى النظر للأمور بمنظار أبعد وأكثر اتساعاً.. فاستحق أن يواصل صلاته بالأمة الظهر والعصر وبقية الصلوات بعد أن استقر الوضع السياسي ليعود للنفوس كمدها وحزنها على نبيها ﷺ في يوم أسود رسمه أنس بن مالك لنا فقال: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء.. فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء»(١)

ومضى ذلك اليوم لترحل شمس الإثنين بالفتنة جثة هامدة.. مضى الإثنين الحزين

وجاء يوم الثلاثاء

وقبل أن يصلي أبو بكر في الناس صلاة الصبح قام عمر فتوجه إلى المنبر مخاطباً الصحابة ومعتذراً عما بدر منه بالأمس من أقوال وداعياً بقية الصحابة لمبايعة أبي بكر رضي الله عنه: يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «إنه سمع خطبة عمر الآخرة حين جلس على المنبر وذلك الغد من يوم توفي النبي ﷺ.. فتشهد وأبو بكر صامت لا يتكلم.. قال: كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يدبرنا يريد بذلك أن يكون آخرهم.. فإن يك محمد ﷺ قد مات فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به بما هدى الله محمداً ﷺ.. وإن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ ثاني اثنين فإنه أولى المسلمين بأموركم فقوموا فبايعوه.. وكانت طائفة

(١) سنده صحيح رواه الترمذي ٥-٥٨٨ وغيره من طريق جعفر بن سليمان الضبعي عن ثابت عن أنس بن مالك وجعفر صدوق زاهد من رجال مسلم: التقريب ١-١٣١ وشيخه تابعي ثقة سمع من أنس.

منهم قد بايعوه قبل ذلك في سقيفة بني ساعدة وكانت بيعة العامة على المنبر»[1]

وبعد أن انتهى عمر من خطبته نزل عن المنبر وطلب من أبي بكر الصعود كي يبايعه المؤمنون.. لكن أبا بكر رفض فلم يزل عمر يلح عليه حتى صعد.. يقول أنس رضي الله عنه: «سمعت عمر يقول لأبي بكر يومئذ: اصعد المنبر.. فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة»[2]

«فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة [فلما قعد أبو بكر رضي الله عنه على المنبر نظر في وجوه القوم فلم ير علياً رضي الله عنه.. فسأل عنه فقام ناس من الأنصار فأتوا به.. فقال أبو بكر رضي الله عنه: ابن عم رسول الله ﷺ وختنه أردت أن تشق عصا المسلمين؟

فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ.

ثم لم ير الزبير بن العوام رضي الله عنه فسأل عنه حتى جاءوا به.. فقال: ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين؟ فقال مثل قوله: لا تثريب يا خليفة رسول الله.. فبايعاه] فتكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله.. ثم قال: أما بعد أيها الناس.. فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني... الصدق أمانة والكذب خيانة.. والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله.. والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله.. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل.. ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء.. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله

(١) صحيح البخاري ٦-٢٦٣٩.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٦٣٩.

فإذا عصيت الله رسوله فلا طاعة لي عليكم.. قوموا إلى صلاتكم يـــرحمكم الله»[1] فنهض الجميع إلى الصلاة خلف أبي بكر في يوم امتزج فيه الأســـى بالطمأنينة.. فرسول الله ﷺ مازال مسجى لم يدفن بعد والأمة قد اجتمـــع أمرها على خليفة لرسول الله.. وبعد أداء الصلاة بدأ الإعداد لـــ

تغسيل النبي ﷺ وتكفينه

فقد قال الخليفة الجديد أبو بكر لأبناء عمه ﷺ: «دونكم صـــاحبكم لبني عم رسول الله ﷺ -يعني في غسله- يكون أمره»[2]

وكان ذلك في آخر النهار فكان الذي تولى تغسيله علـــي بـــن أبي طالب رضي الله عنه ولا أدري بالتحديد من هم الصحابة الذين شاركوه في تغسيله من أبناء عمومته.. لكنهم كانوا في حيرة من أمرهم قبـــل أن يبدأوا بتغسيله عليه السلام.. هل يخلعون ثيابه أم يغسلونه في ثيابه الـــتي مات بها وقد كانت هذه الثياب «إزار غليظ مما يصنع باليمن وكساء من التي يسمونها الملبدة»[3] وعائشة رضي الله عنها «تقسم بالله إن رسول الله ﷺ قبض في هذين الثوبين»[4] وبينما هم في حيرتهم تلك نزلت

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق السيرة النبوية ٦-٨٢ حدثني الزهري قال حدثني أنس بن مالك قال والزهري تابعي وإمام طبقته والمقطع الذي بين المعقوفين ســـند صـــحيح رواه الحاكم ٣-٨٠ والبيهقي في الكبرى ٨-١٤٣ والاعتقاد ١-٣٥٠ من طرق وهيب ثنـــا داود بن أبي هند ثنا أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال وهـــذا الســـند صحيح أبو نضرة اسمه المنذر بن مالك بن قطعة وهو تابعي ثقة من رجال مسلم: التقريب ٢-٢٧٥ وداود تابعي صغير وثقة متقن من رجال مسلم: التقريب ١-٢٣٥ وتلميـــذه وهيب بن خالد بن عجلان ثقة ثبت من رجال الشيخين انظر التقريب ٢-٣٣٩.

(٢) جزء من حديث سالم الصحيح وهذه رواية البيهقي ٨-١٤٥.

(٣) صحيح مسلم ٣-١٦٤٩.

(٤) صحيح مسلم ٣-١٦٤٩.

آخر المعجزات عند غسله

تقول عائشة رضي الله عنها: «لما أرادوا غسل رسول الله ﷺ اختلفوا فيه فقالوا: والله ما ندري أنجرد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا أو نغسله وعليه ثيابه؟

فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم حتى ما منهم رجل إلا ذقنه في صدره ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو أن اغسلوا النبي وعليه ثيابه.. فقاموا إلى رسول الله فغسلوه وعليه قميصه يصبون الماء فوق القميص ويدلكونه والقميص دون أيديهم» (1) أي أنهم يدلكون القميص على جسده عليه الصلاة والسلام بعد سكب الماء على الثوب.. وكان علي رضي الله عنه يتأمل رسول الله ﷺ وهو يغسله وكأنه يبحث عن شيء فيقول: «غسلت رسول الله ﷺ فجعلت أنظر ما يكون من الميت فلم أر شيئاً وكان طيباً حياً وميتاً ﷺ»(2) وبعد أن انتهوا من غسله ندمت عائشة قائلة: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه»(3) أي أنها تمنت لو غسله نساؤه فهن في نظرها أولى من الرجال وهو الأصوب وكأنها تتذكر ابتسامته عليه السلام لها قبل أسبوع.. حيث تقول رضي الله عنها: «رجع إلي رسول الله ﷺ ذات يوم من جنازة بالبقيع وأنا

---

(1) سنده صحيح رواه ابن إسحاق السيرة النبوية ٦-٨٤ ومن طريقه الطبري ٢-٢٣٩ وغيره: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد عن عائشة وهذا السند صحيح وقد مر معنا كثيراً.

(2) سنده صحيح رواه الحاكم ٣-٦١ والبيهقي في الدلائل ٧-٢٤٣ والكبرى ٣-٣٨٨ من طرق عن معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن علي رضي الله عنه وسعيد بن المسيب إمام طبقته وكذلك تلميذه ومعمر بن راشد إمام ثقة ثبت فاضل انظر التقريب ٢-٢٦٦.

(3) هو آخر حديث عائشة السابق عند ابن إسحاق.

أجد صداعاً في رأسي وأنا أقول: وارأساه.. قال: بل أنا يا عائشة وا رأساه ثم قال: وما ضرك لو مت قبلي فغسلتك وكفنتك وصليت عليك ثم دفنتك.. قلت: لكأني بك أن لو فعلت ذلك قد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك فتبسم رسول الله ﷺ»[1] وكأنها فهمت من هذا الحديث أن تغسيل الزوج لزوجته والعكس هو الأولى.. لكن ذلك لم يحدث وشرف الله علياً ومن معه بتغسيل نبيه وقبل أن ينتهي علي رضي الله عنه ومن معه من تغسيله

مزج الماء بالكافور

في آخر غسلة لجسد النبي ﷺ وهي السنة التي أرشد إليها عليه السلام من يغسلون الموتى وهي تساعد على نقاء جسد الميت ونظافته.. وقد حضر الصحابي عبد الله بن مغفل رضي الله عنه ذلك العمل فروى ذلك لمن حوله فقال: «إذا أنا مت فاغسلوني واجعلوا في آخر غسلة كافوراً»[2]

ثم قال: «فإني رأيت رسول الله ﷺ فعل ذلك به»[3]

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه ابن حبان ١٤-٥٥١ وغيره وقد مر معنا عند الحديث عن بداية مرضه ﷺ.

(٢) سنده حسن رواه الروياني٢-٩٥ والحاكم ٣-٦٧٠ والخطيب في تاريخ بغداد ٤-٢٨ من طريق مسلم بن إبراهيم نا صدقة بن موسى نا الجريري عن عبد الله بن بريدة أن عبد الله ابن مغفل وابن بريدة تابعيان ثقتان وصدقة حسن الحديث إذا لم يخالف: التقريب ١-٣٦٦ ومسلم ثقة مأمون مكثر.

(٣) سنده حسن رواه الروياني٢-٩٥ والحاكم ٣-٦٧٠ والخطيب في تاريخ بغداد ٤-٢٨ من طريق مسلم بن إبراهيم نا صدقة بن موسى نا الجريري عن عبد الله بن بريدة أن عبد الله ابن مغفل وابن بريدة تابعيان ثقتان وصدقة حسن الحديث إذا لم يخالف: التقريب ١-٣٦٦ ومسلم ثقة مأمون مكثر.

وبعد أن انتهى علي ومن معه من تغسيله ﷺ قام علي بـــ

تطييبه عليه السلام

فقد طيبه علي رضي الله عنه بمسك ثم احتفظ بباقيه كي يحنط به عند موته.. يقول أحد أصحاب علي: «كان عند علي مسك فأوصى أن يحنط به.. وقال علي: وهو فضل حنوط رسول الله ﷺ»(١) أي باقي المســك الذي طيب به النبي ﷺ.. ولما انتهوا من تطييبه بدأوا بـــ:

تكفينه ﷺ

فجاء عبد الله بن أبي بكر الصديق بحلة يمانية غالية اشــتراها لكــي يكفن فيها النبي ﷺ.. فكفن فيها ثم تشاور الصحابة.. فأحسوا بأن الأمر فيه تكلف فنزعوها عنه ثم كفن عليه الصلاة والسلام في ثــلاث أثــواب قطنية بسيطة ليس من ضمنها قميص أو عمامة.. تقول عائشة رضي الله عنها: «كفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرســف ليس فيها قميص ولا عمامة.. أما الحلة فإنما شبه على الناس فيهــا أنهــا اشتريت له ليكفن فيها فتركت الحلة وكفن في ثلاثــة أثــواب بــيض سحولية.. فأخذها عبد الله بن أبي بكر فقال: لأحبسنها حتى أكفن فيها نفسي.. ثم قال: لو رضيها الله عز وجل لنبيه لكفنه فيها.. فباعها وتصدق بثمنها»(٢).

---

(١) سنده صحيح رواه الحاكم ١-٥١٥ وغيره من طريق: حميد بن عبد الرحمن الرواســي ثنــا الحسن بن صالح عن هارون بن سعد عن أبي وائل قال وأبو وائل مخضرم ثقة وتلميذه العجلي صدوق رمى بالتشيع والرفض وقيل رجع عنه: التقريب: ٢-٣١١ والحسن بن صالح ثقة فقيه عابد رمي التقريب ١-١٦٧ وحميد ثقة من رجال الشيخين التقريب ١-٢٠٣.

(٢) صحيح مسلم ٢-٦٤٩.

ولما فرغوا رضي الله عنهم من تكفينه أرادوا:

الصلاة عليه

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم قد سألوا أبا بكر فقـــالوا: «يـــا صاحب النبي ﷺ.. هل يصلى على النبي ﷺ.. قال: نعم»[1] وكان بيــت النبي ﷺ ومسجده محاطاً بجموع الصحابة رجالاً ونساء وأطفالاً ينتظرون الصلاة عليه.. لكن بيت عائشة لا يتسع لهم جميعاً فقد قدم صحابة مـــن أطراف المدينة وما حولها.. ولا يمكن أن تحرم هذه الجموع المحبة المفجوعة من الصلاة على نبيها ووداعه والدعاء له.. فسألوا أبا بكر رضي الله عنه عن كيفية الصلاة على النبي ﷺ فقالوا: «يا صاحب النبي ﷺ هل يصـــلى على النبي ﷺ قال: نعم.. قالوا: وكيف يصلى عليه؟ قال: يـــدخل قـــوم فيكبرون ويدعون ويجيء آخرون»[2] فنظموهم مجموعـــات مجموعـــات وحددوا أحد أبواب عائشة للدخول وآخر للخروج بعد أداء الصــــلاة.. يقول أحد الذين شاهد تدفق أمواج الحب تلك: «لما قبض رسول الله ﷺ قالوا: كيف نصلي عليه؟

قالوا: ادخلوا من ذا الباب أرسالاً أرسالاً فصلوا عليه واخرجوا مـــن الباب الآخر»[3] فتحولت الحشود إلى مجموعات صغيرة ودخلت بترتيب

---

(١) جزء من حديث سالم بن عبيد السابق.

(٢) جزء من حديث سالم بن عبيد السابق.

(٣) سنده صحيح رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٢-٢٨٩ أخبرنا عفـــان بـــن مســـلم والأسود بن عامر قالا أخبرنا حماد بن سلمة قال أخبرنا أبو عمران الجوني أخبرنـــا أبـــو عسيم شهد ذلك.. وأبو عمران الجوني هو عبد الملك بن حبيب تابعي ثقة مـــن رجـــال الشيخين: التقريب ١-٥١٨ وحماد إمام معروف وكذلك تلميذه عفان والأســـود هـــو المعروف بـــ: شاذان وهو ثقة من رجال الشيخين: التقريب ١-٧٦.

وسكينة وخشوع مخضبة بالدموع والبكاء.. فتحول المسجد وبيت عائشة إلى ساحة من النحيب والأنين والرضا بقضاء الله والحمد للذي لا يحمد على مكروه سواه.. ولا أدري ما هي حال المكان بعد دخول أمهات المؤمنين وبقية النساء.. لا أدري ما هي حال الفقراء والمساكين وأهل الصفة وهم يصلون على كافلهم والحاني عليهم.. وكيف هي حال المدينة كلها في ذلك اليوم الثقيل المؤلم..

انتهى الرجال والنساء والأطفال من الصلاة على النبي ﷺ فإذا الدنيا مساء وإذا الشمس قد غربت فلم يجدوا بداً من:

دفنه ليلاً

في غرفة عائشة وذلك لأنه المكان الذي توفي فيه وقد سألوا أبا بكر عن ذلك فقالوا: «يا صاحب النبي ﷺ هل يدفن النبي ﷺ؟ قال: نعم قالوا: وأين يدفن؟ قال: في المكان الذي قبض الله فيها روحه فإنه لم يقبض روحه إلا في مكان طيبة»[1] وتقول عائشة رضي الله عنها: «لما مات النبي ﷺ قالوا: أين يدفن فقال أبو بكر: في المكان الذي مات فيه»[2] لكن الصحابة قد تحيروا من ذهولهم في كيفية شكل قبره هل يضرحون له أم يلحدونه.. تقول عائشة الحزينة عائشة التي فقدت دلال حبيبها وعنايته: «لما توفي رسول الله ﷺ كان رجل يلحد وآخر يضرح فقالوا: نستخير

(١) جزء من حديث سالم بن عبيد الصحيح.

(٢) سنده صحيح رواه ابن سعد ٢-٢٩٢ أخبرنا أبو الوليد الطيالسي أخبرنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة وأبو الوليد الطيالسي هو هشام بن عبد الملك ثقة ثبت من رجال الشيخين: التقريب وبقية السند صحيح على شرط مسلم ٤-١٨٣٦.

ربنا فبعث إليهما فأيهما سبق تركناه فأرسل إليهما فسبق صاحب اللحد فألحدوا له»[1]

والضريح شق في الأرض أما اللحد فشق كذلك ولكن في أسفله وبالتحديد في جهة القبلة منه ميل في زاوية القبر يوضع فيها الميت على جنبه الأيمن تجاه القبلة.. ولما وصل الرجل الذي يلحد حفر لحداً للنبي ﷺ وعاونه بعض الصحابة.. كانت المساحي تحفر قلب عائشة ومن معها.. وتدمي قلوب المؤمنين الساهرين حول بيت نبيهم ﷺ.. تقول عائشة رضي الله عنها: «ما شعرنا بدفن النبي ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من آخر الليل»[2].. وكان عدد الذين دخلوا القبر أربعة رجال أو أكثر.. يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «أنه دخل قبر النبي ﷺ علي والفضل وأسامة»[3] وقال أحد الصحابة «إنهم أدخلوا عبد الرحمن بن عوف فكأني أنظر إليهم في القبر أربعة»[4].. وبعد أن أتموا حفر قبره الشريف ودخلوه

(١) سنده قوي رواه أحمد ٣-١٣٩ وابن ماجه ١-٤٩٦ من طريق المبارك بن فضالة حدثني حميد الطويل عن أنس بن مالك والمبارك صدوق لكنه مدلس لكنه صرح بالسماع من شيخه التابعي الثقة حميد الطويل وله شاهد قوي صحيح السند رواه ابن سعد بالسند السابق.

(٢) سنده قوي رواه عبد الرزاق ٣-٥٢٠ عن ابن جريج وغيره عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه عن عمرة عن عائشة.. عمرة تابعية ثقة أكثرت الرواية عن عائشة وأبو بكر بن محمد عمرو بن حزم وابنه ثقتان وابن جريج ثقة وقد توبع لأنه مدلس كما رواه ابن إسحاق عن فاطمة بنت المنذر وفاطمة بنت محمد عن عمرة عائشة.

(٣) سنده صحيح رواه أبو يعلى ٤-٢٥٣ وعبد الرزاق ٣-٤٩٥ والبيهقي ٤-٥٣ من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال أخبرني ابن عباس وقال الشعبي حدثني أبو مرحب وهذا السند صحيح إسماعيل ثقة ثبت من رجال الشيخين: التقريب ١-٦٨ والشعبي تابعي ثقة من أئمة التابعين.

(٤) سنده صحيح رواه أبو يعلى ٤-٢٥٣ وعبد الرزاق ٣-٤٩٥ والبيهقي ٤-٥٣ من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال أخبرني ابن عباس وقال الشعبي حدثني أبو مرحب =

فرشوا على أرض القبر كساء أحمر يسمى قطيفة يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «جعل في قبر رسول الله ﷺ قطيفة حمراء»(١).

وبعد أن فرشت تلك القطيفة قال علي رضي الله عنه: «إنما يلي الرجل أهله»(٢) ويبدو أن عبد الرحمن خرج مكسوراً من القبر فنزل بدلاً منه قثم بن العباس رضي الله عنهم جميعاً.. وحانت ساعة الوداع المريرة.. حان وضع الحبيب في قبره فلن تراه العيون بعد اليوم إلا يوم القيامة.. حانت ساعة النحيب المر في ليلة كان السهر والحزن هو الجليس لأهل المدينة.. حيث حمل النبي ﷺ من فوق السرير فاستلمه علي ومن معه في القبر فأدخلوه في اللحد على جنبه الأيمن باتجاه القبلة ثم جعلوا اللَّبْنَ منصوباً على اللحد.. وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يشهد المنظر ويقول لمن حوله: «ألحدوا لي لحداً وانصبوا علي اللبن نصباً كما صنع برسول الله ﷺ»(٣)

وبعد أن فعل علي ومن معه رضي الله عنهم ذلك خرجوا ليهيلوا التراب على القبر وكان آخر من خرج من القبر قثم بن العباس.. يقول علي رضي الله عنه: «أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ قثم بن

=

وهذا السند صحيح إسماعيل ثقة ثبت من رجال الشيخين: التقريب ١-٦٨ والشعبي تابعي ثقة من أئمة التابعين.

(١) صحيح مسلم ٢-٦٦٥.

(٢) سنده صحيح رواه أبو يعلى ٤-٢٥٣ وعبد الرزاق ٣-٤٩٥ والبيهقي ٤-٥٣ من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال أخبرني ابن عباس وقال الشعبي حدثني أبو مرحب وهذا السند صحيح إسماعيل ثقة ثبت من رجال الشيخين: التقريب ١-٦٨ والشعبي تابعي ثقة من أئمة التابعين.

(٣) صحيح مسلم ٢-٦٦٥.

عباس»[1].. لكن المغيرة بن شعبة كان يرقب المشهد بألم.. كان يفرك دهاءه كي يمس النبي عليه السلام في قبره قبل أن يهال التراب عليه: «فلما وضع في لحده ﷺ قال المغيرة: قد بقي من رجليه شيء لم يصلحوه قالوا: فادخل فأصلحه فدخل وأدخل يده فمس قدميه فقال: أهيلوا علي التراب فأهالوا عليه التراب حتى بلغ أنصاف ساقيه ثم خرج فكان يقول: أنا أحدثكم عهداً برسول الله ﷺ»[2].

ثم أهالوا التراب والدموع عليه وبكاه من في بيت عائشة ومن في المسجد ومن في الطرقات والمنازل.. بكوا ذلك النبي الذي كان أرحم الناس بهم وأحب الناس إليهم.. بكوا محمداً الذي كانت مصيبة موته تخفف كل المصائب التي تمر بالمؤمنين.. محمداً الذي فارق الحياة جسداً لكنه بقي سنة ومنهجاً.. نهض الصحابة من عند قبره مثقلين بالكمد

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق السيرة النبوية ٦-٨٧ حدثني أبي؛ إسحاق بن يسار عن مقسم أبي القاسم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل عن مولاه عبد الله بن الحارث عن علي وهو سند صحيح فوالد ابن إسحاق تابعي ثقة وكذلك مقسم وعبد الله بن الحارث مجمع على توثيقه انظر التقريب ١-٤٠٨.

(٢) سنده صحيح رواه أحمد ٥-٨١ وغيره من طريق عن حماد بن سلمة عن أبي عمران يعني الجوني عن أبي عسيب أو أبي عسيم قال بهز إنه شهد الصلاة على رسول الله ﷺ.. وأبو عسيب صحابي وأبو عمران الجوني اسمه عبد الملك بن حبيب وهو ثقة من كبار التابعين: التقريب ١-٥١٨ وحماد إمام ثقة معروف.

محملين بسنته وقرآن ربه وربهم.. نهض الصحابة بعد دفنه و لم يعكفوا عند قبره و لم يحولوا ذلك القبر إلى مزار مرصع بالجواهر مطلي بالذهب.. بل إن عائشة استمرت في السكن في بيتها و لم تفارقه.. أما الصحابة فلم يضيعوا أوقاهم عند قبره بتلاوة الأشعار والمدائح والبكائيات الفارغة بل ولا بقراءة القرآن.. لقد علمهم عليه الصلاة والسلام كيف يصنعون الحياة.. كيف يشرقون كالشمس في عروق المستقبل والأجيال.. نهضوا من عند قبره فحملوا رسالته إلى العالم لينقذوه بها كما أنقذهم هو قبل ذلك بها.. فصلى الله عليه وسلم وجزاه عنا خير ما جزى نبياً عن أمته وجمعنا به في جناته.

الفهرس